كتابي

١٠ قروش



حلمي مراد

تنتظر الحبيب .. الذى لن يعود !
لوحة مشهورة للرسام الانجليزى «اللورد ليتون»



« مواساة ! » للرسام الانجليزى «بريتون ريفيير» (١٨٤٠ - ١٩٢٠)



« ليدى بليسينجتون » لوحة رائعة تمثل الجمال الانجليزى ، للفنان « لورنس » (١٧٦٩ - ١٨٣٠) وقد كان لصاحبة الصورة صالون اجتماعى مشهور فى لندن فى أوائل القرن الماضى

كتابى

كتاب شهرى لتلخيص الكتب العالمية
يصدر أول كل شهر

صاحبه ورئيس تحريره : حلمى مراد

شـعار « كتابى »

مصباح الفكر عند الاغريق

الكتاب التاسع والأربعون (السنة الخامسة) : ابريل ١٩٥٦
الاشتراكات ومجموعة الأعداد السابقة : اقرأ التفصيلات بالداخل

الادارة : عمارة الجندول ـ ١٤ شارع ٢٦ يوليو ـ بالقاهرة
تليفون : ٥٩٥٥٦

محتويات العدد

الموضوع	الصفحة

الى متى يفترون ؟

عزيزى القارىء ..

◆ الشعب العربى فى المغرب الأقصى ملء الأخبار اليوم : فالجزائر استحالت الى ميدان لقتال مستعر بين قوة الايمان بالوطنية والحرية والحقوق القومية ، وبين يد الاستعمار الباطشة .. وتونس تستعد لأول مجلس نيابى بعد ان انتزعت من المستعمر استقلالها الداخلى ، وبدأت تستعد للجولة الثانية التى تنتزع فيها استقلالها الكامل .. ومراكش استردت ملكها وزعيمها المحبوب «محمد بن يوسف» ، بعد ان حطمت صلف الفرنسيين على صخرة الجهاد الوطنى..

لذلك رأيت ان أنقل اليك فى هذا الشهر، الفصول التى كتبها « جون جنتر » عن (مراكش) فى كتابه الجديد : « فى داخل أفريقيا » .. على أننى وجدتنى موزعا بين عاملين ، كل منهما أقوى من الآخر : أولهما ما اختطه « كتابى » لنفسه من سياسة قوامها الأمانة الدقيقة ، والدقة الأمينة ، فى النقل والتلخيص .. وثانيهما عامل الغضب للكرامة القومية العربية ، والاستنكار للمفتريات الجريئة .. فان « جون جنتر » الذى التزم الأمانة والدقة فى الحديث عن كثير من الدول والشعوب فى كتبه ، وفى بعض فصول هذا الكتاب بالذات ، تنكب هذه الامانة ، وتحلل من الدقة ، فى الفصول التى كتبها عن شمال أفريقيا ، وعن مراكش بالذات ! .. ولعله فى ذلك كان مدفوعا بعوامل عدة ، منها : مراعاة المصالح الامريكية هناك ، بوصفه مواطنا أمريكيا .. ومنها ما يجيده المستعمرون عادة من فنون الترغيب والدعاية وتزييف الحقائق .. فقد زار « جنتر » مراكش عقب خلع « محمد بن يوسف » وتنصيب « محمد بن عرفة » مباشرة .. وهى فترة فرضت فيها فرنسا على مراكش رقابة حديدية ، ولم تكن تسمح فيها لصحفى بزيارة البلاد الا اذا استوثقت من أنه على استعداد لأن ينسى واجبه الصحفى المقدس فى حبب كؤوس الشمبانيا وعلى الموائد التى تدعوه اليها ، فينكر كل ما يرى ، ولا يعلق بذهنه الا ما يرويه له الفرنسيون المتسلطون على مراكش ، والعملاء الذين باعوا حرية وطنهم وكرامته لارضاء المستعمر.. ولما لم يكفه هذا ، لجأ الى المصادر المغرضة التى دله عليها ناصحوه، والتى كان الوحى الأول لكاتبيها هو التعصب الغربى المقيت ضد كل ما هو شرقى ، والتجنى الاستعمارى البغيض على كل أمة أوقعها الحظ العاثر تحت ربقة الاستعمار ..

وهكذا نسى « جنتر » وطنية « محمد بن يوسف » التى كانت حديث العالم

الحر - الحر بمعنى الكلمة ، لا بالمعنى الذى ابتكرته امريكا وبريطانيا وفرنسا عقب الحرب ! - ليكتب ترهات الفرنسيين وأراجيفهم عن « محمد بن يوسف » وحبه للمال ، وعدد جواريه وحريمه ، وكيف انه يدين بعرشه لفرنسا !!

وهكذا نسى « جنتر » كل منطق ، وكل تحليل علمى عقلى ، ليقتبس من أقاصيص « ألف ليلة وليلة » حكايات عن سلطان مراكشى مزواج عاش فى أواخر القرن السابع عشر وأوائل القرن الثامن عشر ، هو « مولاى اسماعيل » ، فيزعم انه رزق بواحد وثلاثين ابنا فى ستة أسابيع - وهذه دفعة واحدة ، من دفعات كثيرة ! - وانه كان متزوجا من ٥٤٩ زوجة ، فضلا عن آلاف الجوارى ! .. وان ٨٦٧ ولدا من أولاده قدر لهم ان يعيشوا .. الخ .. وهى أرقام كان من المفروض ان يتبين كاتب مثله ، متعلم ، مثقف ، واسع الافق ، مدى خطلها ومجافاتها للمعقول .. وبهذا انزلق « جنتر » الأريب ، فكشف عن انحرافه عن التقاليد التى يقدسها الكاتب الحر النزيه ويتخذها دستورا يلتزمه فى كل ما يكتب !

هذه « عينات » من الأراجيف التى أوردها « جنتر » فى كتابه .. وقد وجدتنى - كما قلت - موزعا بين الأمانة فى التلخيص ، والدقة التى تعودها قارىء « كتابى » ، وبين الغضب للكرامة القومية العربية ، وللحق .. وفكرت فى ان أعدل عن نقل هذا الجزء ، ولكن .. ما قيمة هذا العدول ، اذا كان الكتاب قد طبع ونشر ولقى رواجا هائلا فى كثير من الدول ، وترجم الى عدد من اللغات ؟ .. ان العدول عنه ، يكون أشبه بما تفعله النعامة حين تدس رأسها فى الرمال لتستخفى ، وجسمها ظاهر للعيان ! .. بل ان الواجب هو أن يعلم كل قارىء بهذه المفتريات ليعرف ماذا يقوله الكاتب « النزيه » اذا ما بهر عينيه الاغراء ، وتملك رأسه التعصب ، ونسى واجبه .. نعم ، من حق كل عربى - ومن واجبه أيضا - ان يقرأ هذه المفتريات ليساهم فى تكذيبها ، أو ليطالب من يستطيعون التكذيب بأن لا يسكتوا ، أو ليدعو السلطات والهيئات العربية الى نشر الحقائق التى تدحض هذه المفتريات ..

ولكن الغضب للكرامة العربية كان رغم ذلك يعوق القلم عن المضى .. حتى لقد اضطررت الى حذف كثير من الترهات والأباطيل ، ولو اننى أطلقت لنفسى عنان الحذف ، لما بقى من الكتاب كثير ، ولسلكت مسلك « النعامة » ، الذى يزيد الأمر تفاقما ! .. ولكننى كبحت جماح استنكارى لمسلك المؤلف ، كى اطلعك أيها القارىء العزيز على صور مما يذاع عنك باسم « الأمانة » الصحفية ، وهو أبعد الأشياء عن الأمانة .. وأقول « عنك » لأن الامة العربية اليوم وحدة ، كل لا يتجزأ ، وما يمس عربى المغرب الأقصى ، لابد ان يجرح عربى الشرق الأدنى .. وما يسىء الى القومية المراكشية ، انما يسىء الى القومية

المصرية ، لأن كلتيهما من الكرامة العربية .. وهكذا قدمت لك ما كتبه « جنتر » عن (مراكش) وأنا كاره ، ناقم .. قدمته على حساب أعصابى ، وشعورى . وكرامتى .. قدمته لتعرف ما يقوله الأجانب عنك ـ وما يقرأه العالم كله فى هذه الأيام ! ـ ولتفقد ثقتك فى الكتاب الغربيين الذين التزموا شيئا من الأمانة فى الكتابة عن بعض أجزاء وطنك العربى والأفريقى ، ليستدرجوك الى الثقة بهم ، ثم يخونوا هذه الثقة بالافتراء على أجزاء اخرى من هذا الوطن !

واذا كان « ناقل الكفر ليس بكافر » ، فاننى أرى ان « ناقل الكفر » الذى لا ينبه الى أن ما ينقله « كفر » ولا يدعو الى دحض هذا الكفر ، « كافر » ! ..

وأنا أدعوك الى ان تعلن سخطك على « جنتر » ، لا فى « كتابى » وحده ، بل فى كل صحيفة عربية وغير عربية .. لتمحو عن الكرامة العربية وعن القومية العربية هذه الاراجيف المكذوبة ..

والآن ، اقرأ الفصل الخاص بمراكش قبل سواه ، وبادر الى اعلان احتجاجك .. ولتكن احتجاجاتنا جميعا مظاهرة مشروعة نتوجه بها الى مجلس الجامعة العربية الذى ينعقد فى هذا الاسبوع

هذا العدد ..

عزيزى القارىء ..

◆ بين فيض الرسائل التى أتلقاها منك منذ أصدرت «كتابى» ، حاملة الى رغباتك وأمانيك بصدده ، نسبة كبيرة مافتئت تلح على دائبة كى أنحو نحو المزيد من التطويل ، فى الكتب التى أنتقيها لك كل شهر ، بحيث تجىء خلاصة كل كتاب وافية ، دسمة ، «مشبعة» ، ولو اقتضى الاكثار من صفحات كل موضوع ، الاقلال من عدد الموضوعات التى يحتويها الكتاب ..

وأعترف لك أنى لاأوافق القائلين بهذا الرأى ، لأن هدفى هو اعطاء فكرة «كافية» عن أكبر عدد من الكتب العالمية ، سيما وهناك آلاف مؤلفة من الكتب تظهر باللغات الأجنبية كل عام ، الى جانب الكتب القديمة .. لذلك قاومت رغبة القائلين بهذا الرأى زمنا طويلا ، حتى ازداد الحاحهم فى المدة الأخيرة ، فرأيت ـ انصافا لهم ، وانصافا لمعارضيهم فى الوقت نفسه ـ أن أجرى التجربة المقترحة ولو مرة واحدة ، ثم أسألهم وأسألك الرأى فى نتيجة التجربة !

وقد كان ، وهذا هو العدد الحالى يحمل اليك نموذجا للفكرة منفذة : بالتطويل فى تلخيص كل كتاب ، والاقلال من عدد الكتب الملخصة

فما رأيك ؟

حلمى مراد

كتابى

أعداد نفدت

الكتب الستة الأولى ، والادارة مستعدة لشرائها .

كتابى السابع « **عشيقة نابليون** » ، والثامن « **مذكرات كيوبيد** » ، والتاسع « **صنم تحطم** » ، والعاشر « **حديقة الله** » ، والحادى عشر « **عندما تحقد المرأة** » ، والثانى عشر « **لعبة الحب والموت** » ، والثالث عشر « **الشيطان على الأرض** » ، والسادس عشر « **ليدى هاملتون** » ، والسابع عشر «**الارملة المرحة**» ، والثامن عشر « **حياة جورج صاند** » ، والتاسع عشر « **حياة سارة برنار** » ، والعشرون « **رباعيات عمر الخيام** » ، والحادى والعشرون « **حياة بيتهوفن** » ، والثانى والعشرون « **حياة موسولينى** » ، والثالث والعشرون « **كوخ العم توم** » ، والرابع والعشرون « **الزوج والعشيق** » ، والخامس والعشرون « **البوهيمية** » ، والسادس والعشرون « **فتاة لها ماض** » ، والسابع والعشرون «**ترويض النمرة**» ، والثامن والعشرون «**فن الحب**» ، والتاسع والعشرون «**الجريمة والعقاب**»، والثلاثون « **المنافق** » (**طرطوف**) ، والحادى والثلاثون « **أميرة مصر** » ، والثانى والثلاثون « **الأمطار** » ، والثالث والثلاثون « **أفروديت** » ، والرابع والثلاثون « **أقنعة الحب السبعة** » ، والخامس والثلاثون « **سالومى** » ، ٣٦ ٣٧ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ٤٨

◆ **وتطلب** من ادارة «**كتابى**» : ١٤ شارع ٢٦ يوليو بالقاهرة (عمارة الجندول) وثمن كل عدد (من العدد ٧ الى ٢٤) ١٠ قروش خالصا أجرة البريد (المسجل) ما عدا العددين ١٣ ، ١٦ ، وثمن كل منهما ١٢ قرشا ، والعدد العاشر ، والعدد العشرون ، وثمن كل منهما عشرون قرشا .. وابتداء من العدد ٢٥ ثمن كل نسخة بالبريد المسجل ١٢ قرشا

◆ **ملاحظة : ترسل القيمة فى مصر والسودان باذن بريد عادى ، وفى الخارج بشيك على أحدبنوك القاهرة ، ولاتقبل العملة الاجنبية أو أذون البريد الخارجية . وتحرر الأذون والشيكات باسم صاحب المجلة شخصيا**

مطبوعات « كتابى »

صدر منها حتى الآن :

١ — قصة مدينتين
٢ — ذات الثوب الأبيض
٣ — الخالدون
٤ — الخاطئة
٥ — حياة امرأة (الجزء الأول)
٦ — حياة امرأة (الجزء الثانى)
٧ — الخطيئة الأولى وفتاة من الأقاليم
٨ — أوديب
٩ — مدام بوفارى (الجزء الأول)
١٠ — مدام بوفارى (الجزء الثانى)
١١ — عاشقات فى الخريف

وثمن كل من الأول والرابع والسابع ، عشرون قرشا خالصا أجرة البريد المسجل (نظرا لوشك نفادها) ، والثانى والتاسع والعاشر والحادى عشر ١٢ قرشا ، والثالث والخامس والسادس ١٠ قروش

« كتابى » يشترى الأعــداد الستة الأولى من القــراء

نظــرا لالحاح الكثيرين من القراء فى طلب الأعداد الستة الأولى من « كتابى » ، ولتعذر اعادة طبعها فى الوقت الحاضر ، ولما كان لا يبعد أن يكون لدى البعض أكثر من نسخة من الأعداد المذكورة ٠٠ **فقد رأت ادارة « كتابى » أن تعلن عن استعدادها لشراء أى عدد من نسخ الأعداد الستة الأولى تمهيدا لتمكين من تنقصه الأعداد المــذكورة من اقتنائها بعد ذلك من الادارة ٠ فالرجا الاتصال بالمجلة فى هذا الشأن ، على أن يكون تسليم النسخ اليها حضوريا أو بالبريد المسجل ٠**

الاشتراك فى « كتابى »

◆ ترسل جميع الأعداد الى المشتركين : بالبريد المسجل ٠ وقيمــة الاشتراك في مصر والســودان : عن سنة (١٢ عددا) : ١٢٠ قرشا وعن نصف سنة (٦ أعداد) ٦٥ قرشا - فى الخارج (العراق وسوريا ولبنان والأردن والحجاز الخ ٠٠) ترسل القيمة بشيك أو بحوالة بريدية نقدية Money Order عن طريق مكاتب البريد وتحتسب القيمة بما يوازي ١٤٠ قرشا (عن سنة) و ٧٥ قرشا (عن نصف سنة) ٠ وفى الكويت وعدن وحضرموت واليمن وقبرص وانجلترا وأمريكا وفرنســا وألمانيا واستراليا الخ ٠ قيمة الاشتراك ١٦٠ قرشا (عن سنة) و ٨٥ قرشا (عن نصف سنة) خالصة أجر البريد المسجل بخلاف أجر البريد الجوى



نافذة «كتابي» تطل على العالم :

رأيت وسمعت لك في أوربا

للمحرر

من « مونمارتر » ٠٠ الى ميدان « الباستيل »

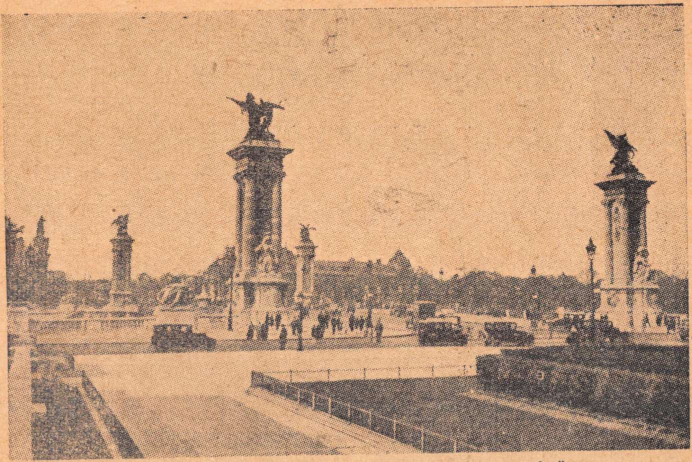
• فى الفصل السابق زرنا سويا ـ من معالم باريس الخالدة : ميدان الكونكورد ، فالشانزليزيه ، فميدان « الاتوال » وقوس النصر ٠٠ وأخيرا ، برج ايفل ٠٠

واليوم نواصل جولاتنا فى مدينة النور فنزور أحياء « مونمارتر » ، و « مونبارناس » ، ثم دار الاوبرا ـ ذات الشهرة العالمية ـ وقصر شايو ، فميدان « الباستيل » ، ومقبرة « بير لاشيز » ٠٠ الخ ٠

أسطورة « سان دنيس » !

• و حى « مونمارتر » من أشهر أحياء باريس وأعرقها فى القدم ، وله تاريخ شائق طويل يشبه الأساطير ، يرجع الى ما قبل ظهوره فى عالم الوجود كحى مأهول من أحياء باريس ٠ ولعلك تعجب اذا علمت أن كل شهرته و « مجده » لا يصل «عمرهما» الى مائة عام ، فان هذا الحى لم يصبح جزءا من المدينة الا فى عام ١٨٦٠ فقط ٠٠ أما قبل ذلك التاريخ فلم يكن الا مجرد « تل » يقع خارج حدود المدينة ، وكان يطلق عليه : « جبل عطارد » !

وتبدأ قصة التل ـ أو تاريخه ـ فى القرن الثالث ، حين أعدم فوقه القديس « دنيس » ، أول أسقف لباريس ، مع قسيسين آخرين من أتباعه ، حوالى عام ٢٧٢ ٠ ففى تلك الفترة لاقت المسيحية فى بدء انتشارها كثيرا من عنت الوثنيين واضطهادهم ، فألقى القبض على رجال الدين الثلاثة وعذبوا بآلات التعذيب فى داخل المدينة ، ثم اقتيدوا الى معبد « عطارد » فى أعلى التل حيث تقرر أن ينفذ فيهم حكم الاعدام ٠٠ ولكن فى منتصف الطريق الى قمة التل ثارت ثائرة الجلادين غيظا من صلابة ايمان القساوسة الثلاثة ، فأعدموهم فى الطريق ٠٠ فى التو



قنطرة اسكندر الثالث ، من أجمل كبارى باريس

واللحظة .. بفصل رؤوسهم عن أجسادهم !

وتزعم « الأسطورة » التى شاعت على أثر الحادث أن القديس دنيس نهض بعد فصل رأسه فالتقط الرأس من الأرض ومضى الى حيث غسل وجهه الملطخ بالدم ، ثم سار عدة أميال (كذا !) حتى تهاوى ميتا آخر الأمر فى الميدان المعروف اليوم باسم « ميدان القديس دنيس » !

وفى القرن التاسع ، أثناء محاصرة الاعداء لباريس ، صعد الكونت « أودس » ـ الذى صار فيما بعد ملكا لفرنسا ـ الى قمة « تل عطارد » ، (مونمارتر) ، ليشجع الأسرى من أهل باريس . وفى عام ٩٧٧ عسكر فى نفس المنطقة الملك «أوثون» الثانى بجيوشه ، بعد أن اخترق بها شوارع باريس مدمرا فى طريقه كل ما صادفه !

وفى القرن الثانى عشر ـ أثناء حكم الملك « لويس البدين» ـ

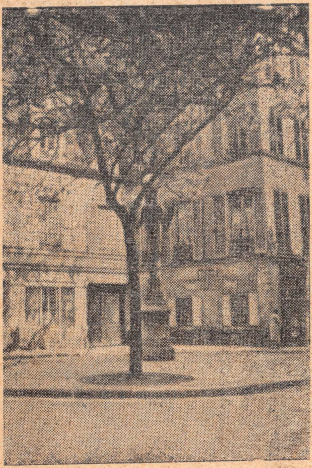
أنشأت ٤٣ راهبة ديرا فى تلك المنطقة أطلقن عليه اسم « دير ديزابيس » ، (وعنه سمى الشارع المعروف بنفس الاسم اليوم فى مونمارتر) ٠

وفى ١٥ أغسطس سنة ١٥٣٤ اجتمع فى مونمارتر الزاهد المعروف « اجناتيوس لويولا » ونفر من أتباعه ، حيث أخذ « لويولا » على نفسه عهد التخلى عن ماله والقناعة بالفقر مدى حياته !

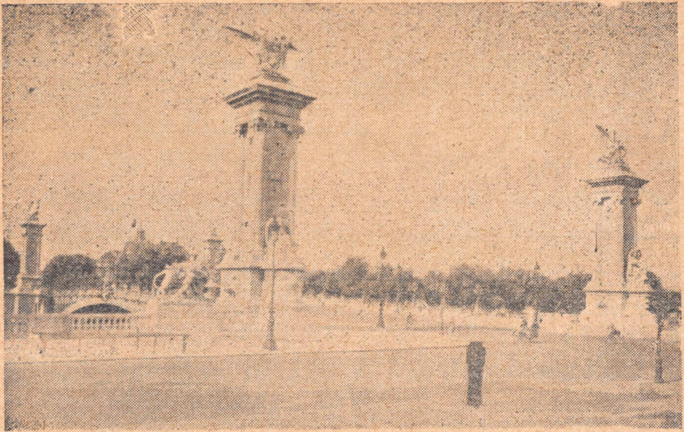
ويرجع تاريخ اقامة طواحين « مونمارتر » الهوائية المشهورة التى صارت رمزا للحى ، الى القرن السابع عشر ٠ وبعد قرن آخر كانت عشرات من هذه الطواحين ما تزال باقية فوق التل ٠٠ أما اليوم فلم يبق من المجموعة غير طاحونة واحدة هى



الطاحونة الوحيدة الباقية من طواحين حى « مونمارتر »



الدار التى كان يقطنها الرسام الفرنسى المشهور « ديلاكروا »



منظر آخر لكوبرى اسكندر الثالث ، وقد حف بجانبيه صرحان رائعان من تحف فنى المعمار والنحت

المعروفة باسم « طاحونة لاجاليت » .

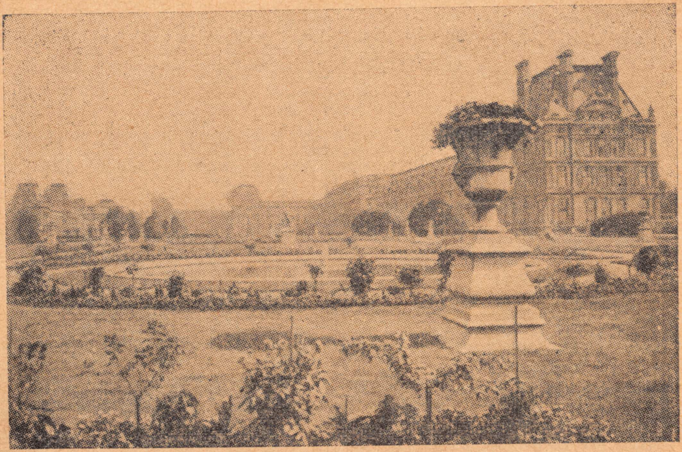
وقد شهدت « مونمارتر » دخان المعارك الحربية فى العصور الحديثة فى ٢٩ مارس سنة ١٨١٤ حين استبسلت فى الدفاع عنها حفنة من جنود وطلبة الكلية الحربية ، فى وجه جيوش أوربا المتحالفة ضد فرنسا فى أخريات أيام نابليون !

وحين دخل الألمان باريس فى عام ١٨٧١ نقل جنود الحرس الوطنى ١٧١ مدفعا الى قمة التل ، لانقاذها من الوقوع فى يد العدو .. فلما انسحب الألمان من العاصمة ، أمر الوزير «تيير» باسترداد تلك المدافع من مونمارتر ، فوضعت اليد عليها قوات الجنرال « لوكونت » . لكن القائد نسى لسوء الحظ أن يحضر الجياد اللازمة لجر المدافع ، ومن ثم أرسل فصيلة من الجنود لاحضار العدد المطلوب من الجياد . وفى تلك الاثناء كان جمع من الأهالى قد تجمع حول قوات الجيش وأغرى جنودها بالتمرد ،

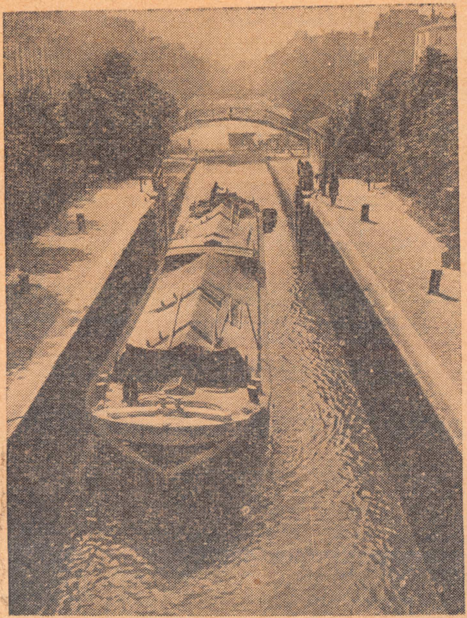
فأسروا قائدهم الجنرال « لوكونت » كما أسروا قائد الحرس الوطنى .. ثم أوقف الاثنان أمام جدار وأطلق عليهما الرصاص ! وكانت تلك بداية حكم الحكومة المؤقتة التى ظلت تسيطر على حى مونمارتر نحو شهرين

اللوحة التى رسمها « جان جاك روسو » لمونمارتر

◆ **ومن** العجيب أن مونمارتر قد تجوهلت كموطن لأهل الفن من البوهيميين ، حتى نهاية القرن الثامن عشر ، حين صعد « روسو » الى قمة التل – وكان يومئذ فى التاسعة عشرة – وهناك أوحى له المنظر برسم لوحة جميلة أقنعت أسرته بقبول فكرة احترافه الفن والأدب .. ثم جاء الفنان « جيريكو » فرسم لوحة أخرى رائعة – تعرض اليوم فى متحف اللوفر –



جانب من حدائق « التويلليرى » الخلابة ، وهى كل ما بقى من القصر العريق الذى أحرقه الثوار على اثر هزيمة فرنسا فى الحرب السبعينية ! (فى عهد الامبراطور نابليون الثالث)

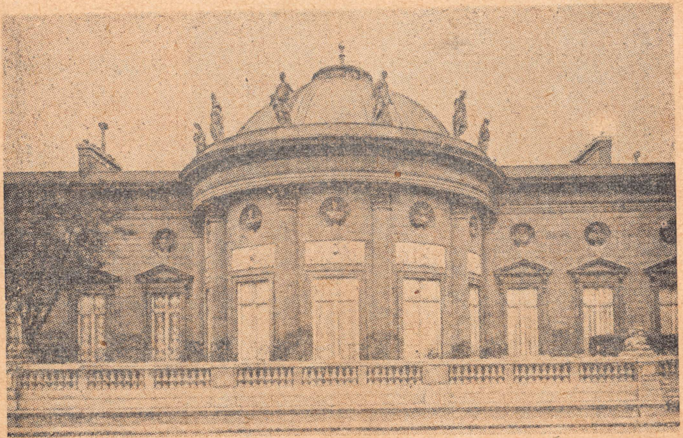


منظر رائع لقناة «سان مارتان» التى تشق أحد أحياء باريس، وقد ربطت بين ضفتيها القناطر، ومرقت خلالها الصنادل والزوارق

أثارت من حماسة أهل الفن ما دفعهم الى بدء حركة « الهجرة » الى مونمارتر ! ٠٠ وسرعان ما أنشئت « الاستديوهات » ، حاملة أسماء عدد من عباقرة الفن فى القرن التاسع عشر ، ومنهم الفنان « ترويون » الذى كان يكفى لالهامه أن ينظر خلال نافذته الى قطعان الأبقار وهى تساق الى المذبح ! ـ حيث تقوم الآن مدرسة « ليسيه رولان »

وفى مقاهى الحى ، كما فى مقاهى مونبارناس والحى اللاتينى وميدان بيجال ، صار يجتمع اتباع المدارس الفنية المختلفة ليتجادلوا ويتناقشوا ٠٠ وبين دخان الشاى والسجاير صارت ترسى الاسس وتقرر القواعد لمذاهب الفن ونظرياته !

وبمضى الأيام ، أوحت الفطنة الى أصحاب المقاهى بأن يطرزوا أسطورة « شذوذ » الفنانين وبوهيميتهم ، بوشى من الواقع يشبع فضول الفضوليين ، فأنشأوا « كباريهات الفن » المختلفة ٠٠ التى صارت طابعا مميزا لمونمارتر ، لصيقا بها ، شأنها شأن أسطورة القديس دنيس !٠٠ وقيض لهذه الملاهى أو «علب الليل » أن يجىء الفنان الارستقراطى المشوه « تولوز لوتريك » ـ فى عام ١٨٩٠ وما بعده ـ فيخلدها جميعا بتخليده أشهرها فى تلك الحقبة ، وهو ملهى « الطاحونة الحمراء » ٠٠ وبفضل لوحاته تلك ، ظل هذا الملهى محتفظا بشهرته ومكانته فى « الحى » الى اليوم ـ وان تنازل عن مكانته بالنسبة الى أحياء « باريس » الاخرى الى عشرات غيره من ملاهى هذه الايام !



قصر « اللجيون دونور » ، الذى شيده لويس السادس عشر قبيل الثورة ، وقد قطنته « مدام دى ستايل » فترة ، وحوله نابليون الى قصر للجنة وسام جوقة الشرف ٠ ثم دمره الثوار بعد الحرب السبعينية ولكن تم ترميمه



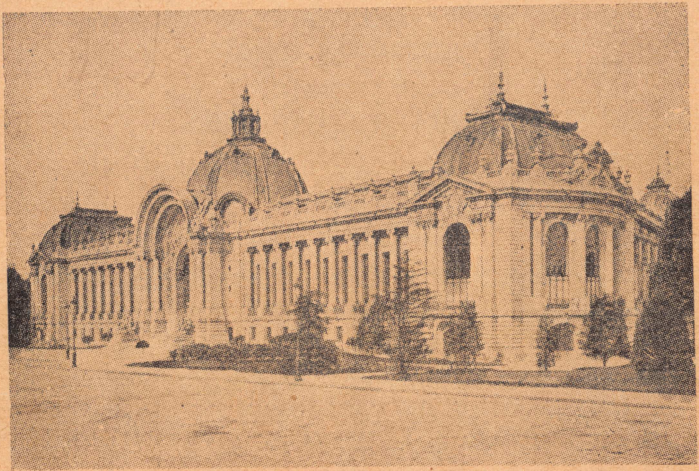
نمــوذج من فن النحت عند دولة « اشـور » القديمة ، وهو معروض بالجناح الشرقى بمتحف اللوفر

حيث أعدم الماريشال « ناى » !

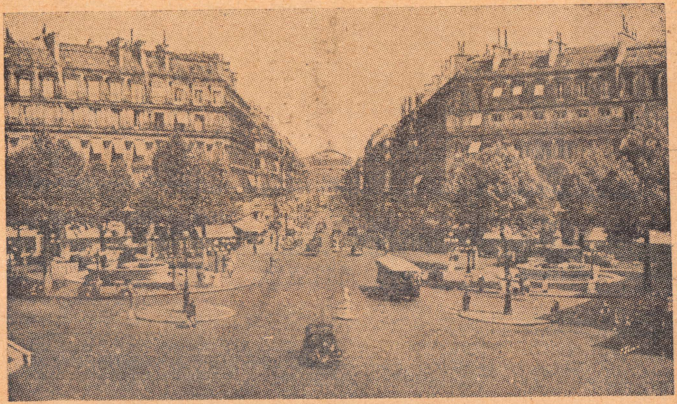
• **فاذا** غادرنا « مونمارتر » فتعال نتجـه الى حى آخر له شهرته بدوره ، هو حى « مونبارناس » - أو « جبل بارناس» - وقد أزيل التل الذى نسب اليه الاسم فى عام ١٧٦٠ وسوى بالأرض ، كى يشق مكانه الشارع الفاخر العريض الذى يحمل اليوم نفس الاسم ٠٠ وفى مستهل الشارع يقوم ميدان صغير يتوسطه تمثال للأديب الكبير « بلزاك » ، من صنع الفنان « رودان » ٠٠ وفى الطرف الآخر من الشارع يقـوم تمثال « الماريشال ناى » ، الذى كان من قواد نابليون ثم انضم بعد نفيه الأول الى الملكيين ٠٠ فلما عاد الامبراطور الى عرشه هجر جيشه وانضم اليـه ! ٠٠ ولاقى القائد عقـابه على هـذا « التذبذب » حين هزم نابليون فى واترلو وعادت الملكيـة الى

فرنسا ، فأمر « لويس الثامن عشر » بالقبض على الماريشال وحوكم ثم أعدم رميا بالرصاص ، فى نفس البقعة التى أقيم فيها تمثاله فيما بعد ٠ على أن انشاء خط المترو تحت الارض ،استلزم نقل التمثال من ذلك المكان الى مكانه الحالى فى طرف شارع « مونبارناس » ٠

وقد كان حى « مونبارناس » فى عصر النهضة حى الطلبة ـ وهى المكانة التى انتزعها منه الحى اللاتينى فى هذا العصر ـ أما اليوم فقد صار موطنا لأفراد الطليعة من أهل الفن ، بحيث يستمتع الزائر لمقاهيه المشهورة ـ « الكوبول » ، و « الدوم » ، و « الروتوند » ـ بسهرات ومجالس فنية وأدبية ذات طابع شائق فريد فى نوعه ٠٠ أما من ينشد اللهو والصخب فيستطيع ان يجد بغيته فى كباريهات الحى الشبيهة بكباريهات مونمارتر ٠٠



قصر الفنون الجميلة بباريس ، وقد شيد من أجل معرض سنة ١٩٠٠ ، ويضم الآن متحف الفن الحديث

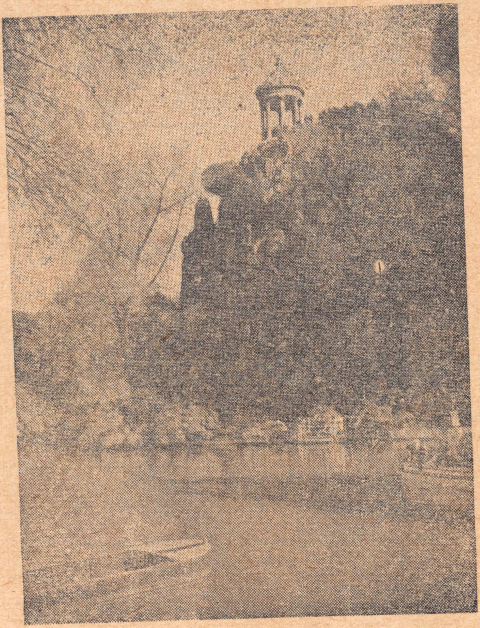


شارع الاوبرا ،من أجمل شوارع باريس وأكثرها ازدحاما بالمتاجروالناس

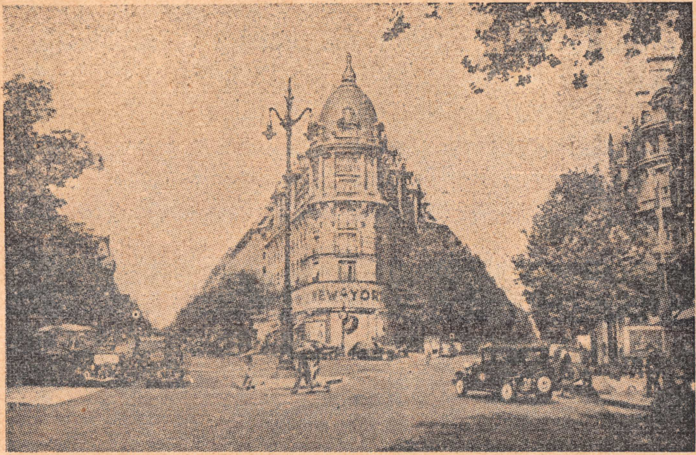
أكبر دار للاوبرا فى العالم !

• **والآن** تعال بنا نقضى سهرة فى دار اوبرا باريس ، التى تعتبر ـ من حيث مساحة مبناها ـ أكبر دار للأوبرا فى العالم، وان كان عدد مقاعدها (وهو ٢١٥٨ مقعدا) يقل بكثير عن عدد مقاعد دار أوبرا « سكالا » بميلانو ، التى تتسع لنحو ٣٦٠٠ متفرجا ! ٠٠ على ان الفارق بين الدارين من حيث فخامة البناء والنقوش وجمال فن المعمار يجل عن الوصف والقياس : **فدار اوبرا ميلانو ذات مظهر عادى متـــواضع من الخارج ، لا يكاد يتفوق على المظهر الخارجي لدار اوبرا القـاهرة ، كما تتشابه الداران فى تصميم الصالة الداخلية وشكلها العام ـ وان كانت الصالة هناك تزيد على ضعفى مساحة الصالة عندنا ـ اما دار اوبرا باريس فهى « شىء آخر » تماما :** فمبناها من الخارج صرح

فنى ضخم من الأحجار المنحوتة الى عشرات التماثيل واللوحات البارزة والمحفورة ٠٠ (بعكس اوبرا ميلانو الشبيهة بمستطيل أصم مدهون « ببياض » أصفر كالح ، وكأنه «مدرسة» ابتدائية متواضعة فى أصغر بلدة من بلدان الاقاليم عندنا !) ٠٠ والميدان الذى أقيمت فيه اوبرا ميلانو لا يكاد يبلغ - فى مساحته - « عشر » ميدان اوبرا باريس ذى الاتساع الهائل والرواء البالغ ٠٠ أما السلم الداخلى للدار الأخيرة فلن أستطيع وصفه لك مهما أطنبت ! ٠٠ وحسبك ان تعلم انه « سلاملك » رائع من المرمر الأبيض يبلغ عرضه من أسفل عشرة أمتار ، ثم يتفرع



هضبة « شومون » تطل على بحيرة خلابة تنساب على صفحتها الزوارق ٠ ويرى فوق الهضبة معبد جميل على الطراز الرومانى



المبنى الرائع الذى يطل على زاوية « الجران بوليفار » ، أكثر شوارع باريس ازدحاما بالمارة والمتسكعين ، والمقاهى ، والمسارح ، ودور السينما ، والبنوك .. الخ

فى منتصفه الى سلمين عريضين يقودان الى مداخل المدرج الفسيح للصالة الداخلية . وقد صنع « درابزين » السلم من الرخام الجزائرى ، وتلألأت فى سقف البهو وأركانه ثريات ثمينة خلابة .. ومرايا .. وتماثيل رائعة .. ولوحات فنية ، أروعها اللوحة التى تزين قبة البهو ، وتمثل « ابوللو يرفع قيثارته » ، وهى من ريشة الفنان «ميليه» .. **ولا يسع الداخل الى البهو الا ان تبهره مساحته ، اذ يبلغ طوله ستين مترا ، وعرضه خمسة عشر ، وارتفاع سقفه عشرين .. بل يبلغ ارتفاع المرآتين الرئيسيتين اللتين تزينانه ، ثمانية أمتار ! .. وعلى جانبى البهو أعمدة مرمرية رائعة الجمال ، وفى طرفيه مدفأتان ضخمتان . وخلف احداهما تنفسح صالونات الدار**

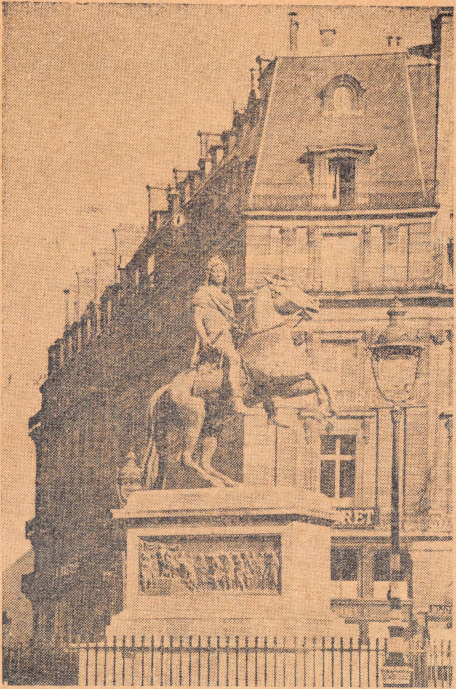
الفاخرة، الثمانية الاضلاع، التى تزين جدرانها لوحات زيتية ثمينة

وقد نبتت فكرة انشاء الدار فى عام ١٨٥٧ ، فأقيمت من أجل ذلك مسابقة لاختيار أحسن تصميم لها ، وقد فاز فيها المهندس المعمارى « شارل جارنييه » • وبعد تذليل الكثير من الصعوبات التى نشأت بسبب « رشح » المياه ، وضع حجر الأساس فى عام ١٨٦٢ •• ثم افتتحت الدار بعد ١٣ عاما ، فى سنة ١٨٧٥ •

وتتسع خشبة مسرح الدار لنحو ٤٥٠ ممثلا وممثلة ! •• ويرتفع سقفها الى مستوى قمة كاتدرائية « نوتردام » ، أى الى ارتفاع ٧٥ مترا • ولم يستخدم فيها غير المرمر المستخرج من محاجر فرنسا أو مستعمراتها ، وتتراوح ألوانه بين الأبيض والأزرق والوردى والأحمر والأخضر • وبلغ طول الخرائط



ميدان الجمهورية : نموذج لجمال ميادين باريس واتساعها الهائل



تمثال لويس الرابع عشر بميدان «النصر» وقد أقيم للمـــرة الثانية فى عهد عودة الملكية ،بعد أن دمر الأول اثناء الثورة

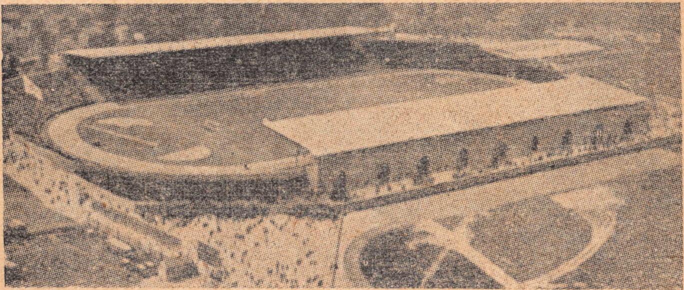
الهندسية التى اعد فيها المهندس تصميمات الدار نحو ١٢ ألف متر !

ويوجد تحت الدار ممر فى باطن الأرض ، اختفى فيه ذات يوم « مساعد اضاءة » بالمسرح الأهلى ، فقد تراهن مع صديق له على النزول اليه · ونزل بالفعل ، لكنه لم يصعد منه ! ولم يفض البحث عنه الى نتيجة ، وما يزال لغز اختفائه غامضا الى اليوم !

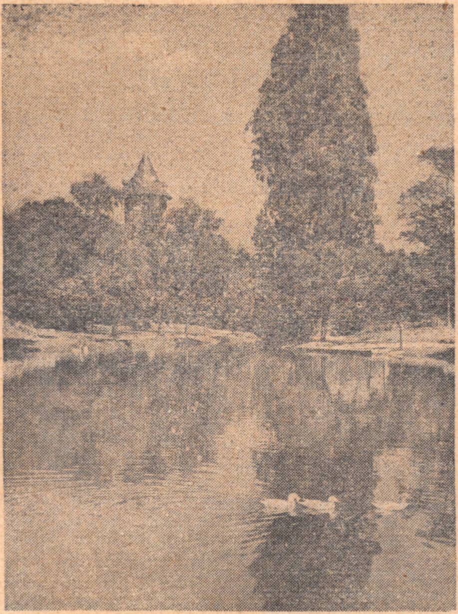
« لافاييت » ٠٠ و « كافيه دى لابيه »

◆ **اما** وقد فرغنا من جولتنا بدار الاوبرا ، فلنخرج الى الميدان الهائل الذى ينفسح أمامها ، والذى تتفرع عنه عدة شوارع كبرى تزدحم بالحوانيت التجارية الكبرى ٠ وأقرب هذه الحوانيت الى الميدان محل « لافاييت » المشهور ، وهو صورة مكبرة ــ اضعافا ــ من محل « شيكوريل » بالقاهرة ، ويتألف من خمسة طوابق ، ينتقل رواده بينها بسلالم « أوتوماتيكية » تدور كالشريط بين أعلى وأسفل ، وكلما مرت درجة منها أمام عتبة الطابق ، دلف اليها شخص من راغبى الصعود أوالنزول، فتصعد به أو تهبط دون ان يحرك ساكنا

وميدان الاوبرا فى باريس حافل بالمقاهى والمطاعم الأنيقة المنتشرة على الأرصفة ، **ومن أشهر هذه المقاهى « كافيه دى لابيه » ــ أو مقهى السلام ــ وهو المقهى ذو الشهرة العالمية الذى يعرفه كل زائر لباريس ، سيما من الشرقيين ، فانهم يعتبرونه « محلهم المختار » الذى يلتقون فيه على غير تعارف ٠ وهو المقهى الوحيد فى العاصمة الفرنسية الذى تستطيع ان**



« ستاد » باريس الرياضى الحديث ، ويحضر المباريات فيه عشرة آلاف متفرج !



البط يمرح على المياه الناصعة الصافية فى حديقة « التأقلم » بباريس

تتناول فيه قدحا من القهوة « التركية » التى نشربها فى بلادنا ، ويقدمها لك هناك ساق من سقاة المقهى يرتدى الطربوش والسترة الخضراء الموشاة بالقصب التى يرتديها خدم القصور والسفارات فى بلاد الشرق ! .. وكم يشرح صدر الزائر الشرقى ان يرى ذلك الساقى ويشرب ذلك القدح من القهوة التى طال حنينه اليها ، كما يبهجه ان يفاجأ وهو جالس بعبارة عربية ينطق بها جالس آخر بالقرب منه يتحدث الى صديق له !

حيث « كان » يقوم سجن « الباستيل » !

• **فاذا** استرحنا فترة فى « كافيه دى لابيه » ، وأصيبت أعيننا بـ « تخمة » من الجمال الذى تمر مواكبه أمامنا ، من كل

قطر حسناء – تقوم بالسفارة لوطنها فى عاصمة النور ! – نهضنا لننصرف الى وجهة أخرى من معالم باريس • وقبل ان نمضى ، تعال نبتاع من كشك الصحف المقام على رصيف المقهى، محصولا من صحف مصر ! •• فأنت تستطيع ان تقرأ ما تشاء من الصحف العربية وأنت جالس فى «كافيه دى لابيه» ، وكأنك جالس فى مقهى بور فؤاد أو عماد الدين ! – والقياس مع الفارق ، أو « الفوارق » ، بطبيعة الحال !

الى أين نمضى ؟ •• فلنيمم شطر ميدان « الباستيل » ، كى نعيش لحظات فى البقعة التى انبعثت منها شرارة الحرية الاولى فعم ضياؤها جميع الارجاء !

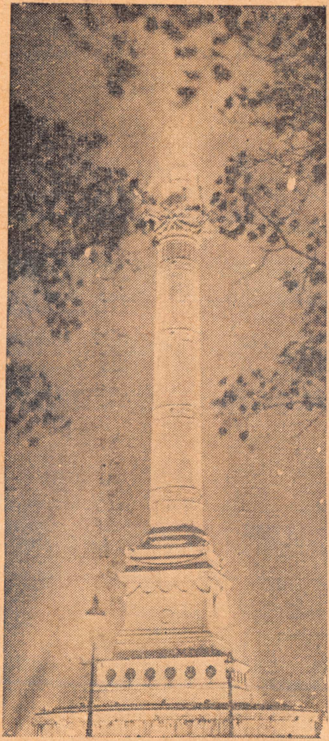
ولنبدأ قصة « الباستيل » من أولها :

فى أواخر القرن الرابع عشر ، قرر الملك شارل الخامس ان يشيد لنفسه قلعة محصنة ، يستطيع ان يختبىء فيها اذا ألمت به الملمات – اذ كان قصره الذى يقطنه غير حصين – وأرسى حجر الأساس فى القلعة الجديدة فى عام ١٣٧٠ • ولتخفيض نفقات البناء الى الحد الأدنى ، استخدم نزلاء السجون فى الجزء الأكبر من العمل • **لكن العمر لم يمتد بالملك الى ان يتم تشييد حصنه الجديد ، فقد مات فى عام ١٣٨٠ • وبعد عامين تم البناء ، ولكن لسوء حظ المهندس الذى أشرف على المشروع – وكان يدعى « بريو » – استمع الملك الجديد الشاب الى بضع شكاوى وصلته عن شراسة المهندس وقسوته ، فزج به فى القلعة التى شيدها •• وبذلك كان أول نزلاء « الباستيل » !**

واستخدم الباستيل منذ ذلك التاريخ كسجن للخصوم السياسيين ، فكان كل منهم يوضع فى «زنزانة» منفردة ، ولكن يسمح له بأن يأخذ معه الى زنزانته أثاثه الخاص وخدمه الخصوصيين ، ويستقبل فيها أصدقاءه !•• لكن هذا النوع من العقاب ألغى فى سنة ١٧٨٤ – قبل نشوب الثورة بخمس سنوات – وظل الباستيل شبه فارغ من «النزلاء» !•• وعندئذ

تقرر هدمه ، وكانت حاميته فى ذلك الحين تتألف من ٣٧ حارسا سويسريا و٨٢ جنديا من مشوهى الحروب .. كما كانت المدافع المقامة فوق أبراجه عاطلة من الذخيرة !.. كل ما كان صالحا للاستعمال من أسلحة السجن لم يجاوز ثلاثة مدافع خفيفة فى الفناء وبضع بنادق كبيرة فوق الحصون . وهكذا لم يكن هجوم الشعب الثائر على الباستيل يوم ١٤ يوليو عام ١٧٨٩ الا غضبة رمزية !.. وقد استمر الهجوم حتى الساعة الخامسة من بعد ظهر ذلك اليوم ، حين اضطر حاكم السجن الى التسليم .. وعندئذ نفذت الجماهير الثائرة حكم الاعدام فورا فى الحاكم وجميع ضباطه وجنوده السويسريين والمشوهين !

وتدفقت جموع الثوار الظافرين الى داخل السجن ، فلم تجد فى جميع زنزاناته غير سبعة من المسجونين : منهم أربعة من المزيفين ، واثنان مخبولان ، ونبيل شاب ألقى فى غياهب السجن بناء على طلب والده!..



النصب التذكارى المقام فى ميدان الباستيل (فى مكان السجن القديم المشهور) كما يرى فى الليل فى ضوء الانوار الكاشفة

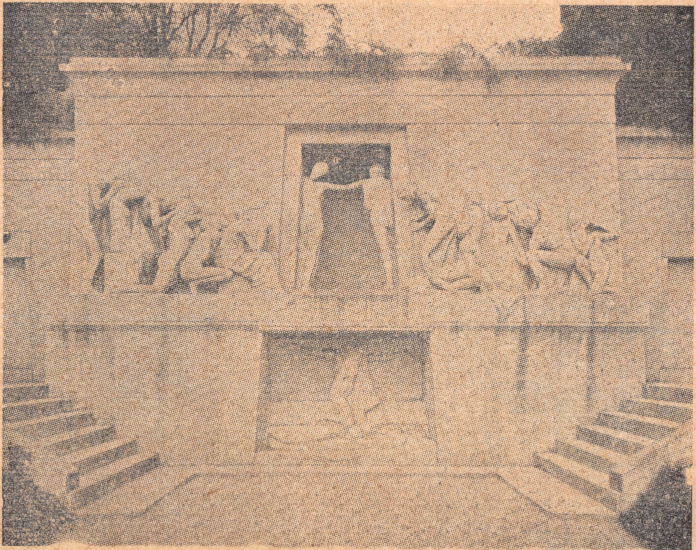
فحمل السبعة فى مظاهرة صاخبة اخترقت بهم شوارع باريس ٠٠ ثم قدم المزيفون بعـد ذلك الى المحاكمة، وأودع المخبولان مصحة عقلية ، وعاد النبيل الشاب الى أسرته

وفى اليوم التالى بدأت عملية هدم السجن العريق ، وفى خلال عام كان قد سوى بالأرض !٠٠ فلما جاء نابليون أمر بوضـع تصميم الميدان الحالى ، فى عام ١٨٠٣ ، وفى المـدة بين عامى ١٨٣١ و١٨٤٠ أقيم النصب التذكارى الشامخ الذى ترى صورته مع هذا الكلام ٠

واذا كانت الصورة القاتمة التى رسمها «تشارلس ديكنز» لنزلاء الباستيل ، فى «قصة مدينتين» تعتبر مغالى فيهـا بالنسبة لتلك الفترة السابقـة لنشوب الثورة مباشرة ، فان الذى لاسبيل الى انـكاره أن الاحوال كانت تعسة بالفعل فى عصور سابقة لذلك التاريخ ٠ واذا كان الباستيل قد اشتهر بأنه سجن رهيب ــ الداخـل اليه مفقود، والخارج منه مولود!ــ فان سجلاته تروى حادث فرار واحد وقع خلال تاريخه الطويل: **فأثناء حكم الملك لويس الخامس عشر ، حكم على شاويش يدعى «مونبار» بالعمل كعبد على سفن النخاسة التى تنقل المنفيين الى جزر خط الاستواء ، جزاء قتله ضابطا سويسريا ٠ وفيما هو فى زنزانته بالباسـتيل ينتظر نقله الى السفينة ، « تعرف » الى فأر هبط عليه من السـماء فأرشـده الى ثقب فى «مونة» الجدار! وبعد مجهود متواصل، بيديه وباستخدام طبق الطعام، لمدة ٧١ يوما ٠٠ اهتدى الى نفق يفضى الى حانوت بدال!٠٠** وكان من حسن حظ الهارب أن أول مخلوق بشرى وقع عليه بصره حين بلغ تلك المرحـلة ، عطف عليه ــ رغم ذهوله ــ فأعانه على ازالة آخر عائق يقف بينه وبين الحرية،وأخفاه عن عين القانون!٠٠ على أن الهارب لم يلبث أن ألقى القبض عليه من جديد ، غير أن الملك عفا عنه ، اذ اعتبر فراره الخارق للمعقول بمثابة « عفو الهى» !

حيث دفن « موليير » و « أوسكار وايلد »

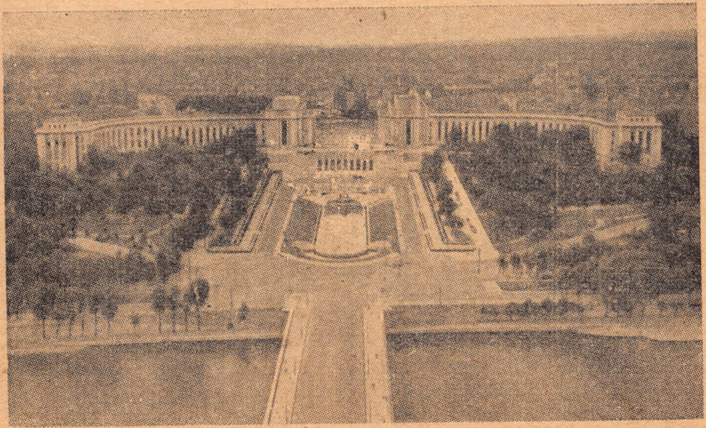
• وبين حديث «الباستيل» وحديث الموت صلة نسب ، فتعال نتوجه الى مقبرة باريس المشهورة ، المعروفة باسم « بير لاشيز» ، حيث يرقد عدد من عباقرة فرنسا وجاراتها من الدول الأخرى . ومن هؤلاء : **شوبان ، ألفريد دى موسيه ، موليير ، الموسيقى جورج بيزيه (ملحن أوبرا «كارمن») ، الماريشال ناى ، الوزير «تيير» البارون هوسمان - مجدد معالم باريس - وبلزاك ،ساره برنار، ثم الأديب الانجليزى الذى لفظته انجلترا فمات فى وطن الجميع «باريس» : اوسكار وايلد !**



أحد صروح الفن فى مقبرة « الاب لاشيز » المشهورة بباريس ، التى تضم رفات الكثيرين من عظماء فرنسا

ومقبرة «بير لاشيز» كانت فى الاصل ضيعة فى ضواحى العاصمة تعرف باسم «فولى رينو» ثم اشتراها اليسوعيون فى عام ١٦٢٦ وأطلقوا عليها « مون لويس» ، واستخدموها بمثابة استراحة فى الطريق - «رست هاوس» - وقد شيدت مبانيها فى عام ١٦٨٢ على نفقة الأب « لاشيز » ، قسيس اعتراف الملك لويس الرابع عشر ٠ لكن اليسوعيين اضطهدوا ونفوا من البلاد فى عام ١٧٦٣ ، فبيعت الضيعة ٠ وفى سنة ١٨٠٣ ابتاعتها بلدية باريس واتخذتها مقبرة

وقد كانت المقبرة مسرحا لآخر محاولات حكومة فرنسا المؤقتة فى عام ١٨٧١ أن تصمد فى وجه خصومها ٠٠ فقد تسللت قوات الحكومة النظامية الى المقبرة أثناء الليل ، واذ ذاك نشبت معركة وحشية بين القبور ، قبض خلالها على ١٤٧ من الثوار ، أسندت ظهورهم الى أقرب حائط ونفذ فيهم حكم الاعدام فورا ٠٠ ثم دفنت جثثهم فى خندق كبير فى المكان ذاته ٠



قصر شايو بجناحيه الرئيسيين المقوسين ، كما يرى من قمة برج « ايفل » الذى يشرف عليه

ومما يذكر عن مقبرة « الأب لاشيز » هذه ان بها عدة أقسام، بينها قسم للمسلمين ، وقسم آخر لليهود ٠٠ الخ

قصر شايو

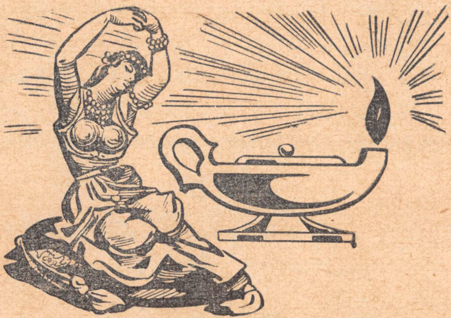
◆ **ولهذا** القصر الذى تعقد فيه دورة الأمم المتحدة بين حين وآخر ، تاريخ شائق ، عريق فى القدم : ففى عهد الملكة « مارى دى مديسيس » ، شيدت الملكة لنفسها قصرا ريفيا على منحدر تل شايو ٠٠ فلما ماتت، ابتاعت القصر احدى محظيات الملك هنرى الرابع ، وكانت تدعى «باسومبيير» ٠٠ ثم انتقلت ملكية القصر الى «هنرييتا» ملكة انجلترا، التى كانت من أصل فرنسى ، فحولته الى دير للراهبات ، لجأت اليه كثيرات من الأميرات وسيدات المجتمع القانطات ، وبينهن «مدموازيل دى لافاليير» التى هجرها الملك لويس الرابع عشر ليعشق مدام دى مونتيسبان!

وفى العدد القادم أكمل لك قصة قصر شايو ، ثم أحدثك عن معجزة باريس الهندسية الكبرى : « المتروبوليتان »

كان من أبرز مظاهر النقص فى اتجاهاتنا لتعرف الآداب العالمية ، اننا كنا نولى وجوهنا دائما صـوب الغرب ، متناسين الشرق ، موطن الثقافات الاولى ، والمنهـل الذى أدرك الغرب قيمته وعظمته ، فأقبل يغترف منه ويرتشف ..

ولكن « كتابى » فطن ـ ومنذ مولده ـ الى هذا النقص ، فحرص على ان يقدم اليك خلال السنوات الأربع الاولى من عمره ، ملخصات وافية للشوامخ التى أقام صروحها فلاسفة اليونان وشعرائها ، وحكماء الهند ، والصين .. الخ . كما قدم لك روائع من الادب الفرعونى ، والروسى ، والفارسى ..

والیوم ، يقدم « كتابى » على خطوة جديدة فى ميدان الأدب الشرقى ، فيتيح لك فرصة قراءة رواية طويلة كاملة من الأدب الهندى :



قلوب ضالة

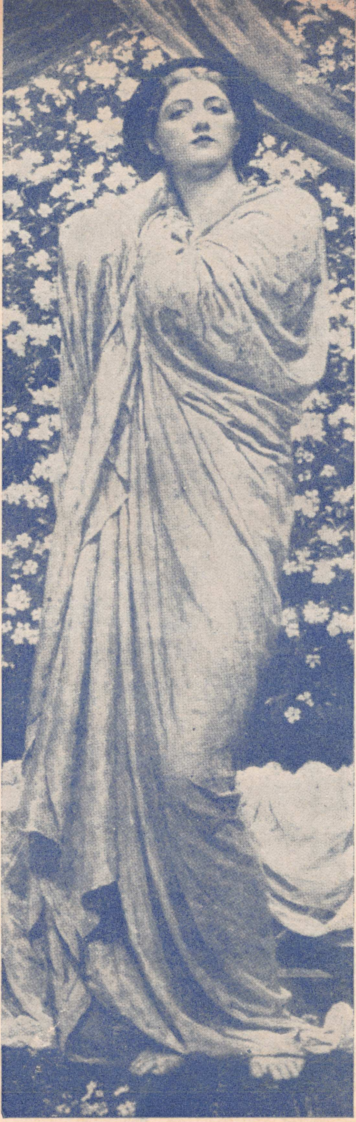
لأديب الهند الأكبر وشاعرها العظيم

رابندرانات تاغور

فلا تنس ان تقرأ هذه التحفة العالمية فى العدد الجديد من « مطبوعات كتابى » الذى يصدر حوالى منتصف ابريل الحالى



« المظلات » للرسام الفرنسي « رنوار » (١٨٤١ - ١٩١٩)



« براعم » للرسام الانجليزى
« ألبرت مور » (١٨٤١ - ١٨٩٣)



الجوع لا يرحم!

ملخصة عن قصة سورية طويلة

بقلم: محمد حاج حسين



- ١ -

عندما أستعيد ذكريات طفولتى المريرة ، ترجف أعماقى للأحداث الدامية التى عانيتها : من حرمان ، ودمع ، وآهات ذبيحة !٠٠ يقولون ان الطفولة أجمل مراحل العمر ، ويتشدقون بأنها انطلاقة الى السعادة الغريرة ٠٠ الى آخر ما يهرفون به من أقوال قد تصدق على أولئك الذين أغدقت عليهم الطفولة فيض نعمائها ٠ أما الفئة المظلومة ، التى عصرتها الطبيعة حرمانا وأوجاعا ، فلم يتحدثوا عن طفولتها المظلمة التى تنبض بالشقاء وترزح بالألم ! ٠٠ **ولقد نسلت أنا من أولئك المحرومين ، الذين كتب عليهم أن يكدوا ليوفروا الراحة لسواهم !**

ولدت فى غرفة حقيرة ، باردة ، لا يتسرب اليها النور ٠٠ كانت كل شىء بالنسبة لنا : فهى للطهى، وللنوم، وللاستحمام! ٠٠ وكان والدى يضرب أمى كل يوم ، فتذرف البائسة الدمع ، وتنكمش وهى تكتم زفراتها ، وتخنق دموعها ٠ وأنساب أنا الى حجرها أحاول أن أرفه عنها ، وأمسح أشجانها ، فتضمنى الى صدرها بحنان ، وتنظر الى والدى من طرف خفى ، وقد تجلى الخوف فى عينيها المذعورتين ، ثم تسعل سعالا حادا عنيفا ، يخيفنى ويبعث الرعدة فى أعضائى ! ٠٠ وكنت فى الثامنة من عمرى عندما أفقت على هذه الصورة المضيضة ، التى وسمتنى بالأسى ، وجللتنى بالرهبة من كل شىء !

وأذكر يوما دفعت أمى الى فيه بنصف ليرة سورية لأشترى به خبزا وجبنا ٠ وكان نصف الليرة هذا ، حصاد يوم ناءت أمى بثقله ٠ فقد غسلت ثياب بعض الناس ، وظلت تعمل عشر ساعات ، حتى تقرحت يداها ، فأجزلوا لها العطاء بنصف الليرة، وجاءت به فرحة الى البيت !

وما أن خرجت الى الزقاق الذى كنا نسكنه ، حتى وجدت بعض الأطفال يمرحون ويلعبون ، فاستخفنى اللهو . وما انقضت هنيهة ، حتى شعرت بأن النقود قد طارت من يدى ، فرجفت وجفلت .. وغرقت فى نشيج . وأخذت أذرع الزقاق المعتم بحثا عن نقودى ، والخيبة تلسعنى . حتى اذا عصف بى الجوع ، أبت الى حجرتنا ذليلا مهيضا . وثار والدى ، وأمسك بعصا أخذ يهوى بها على جسدى ، فرمت أمى بجسدها على ، لتقينى الضرب . وبعد أن هدأت ثائرته قالت : « الله يدبرها ! » .. فصاح أبى : « كيف يدبرها ؟ »

ـ اتق الله يارجل .. ان الذى يرسل الرزق الى العصافير ، قادر على أن يرزق عباده !

وخرجت أمى ، ثم عادت بعد فينة تحمل تحت أبطها ثلاثة أرغفة من الخبز الأسود ، مع بعض حبات من الزيتون ، وهى تقول : « ألم أقل لك ان الله لن يضن علينا بخبزنا هذه الليلة ! .. لقد استعرت الأرغفة من جارتنا أم أحمد » ، فقال أبى : « ولكنها فقيرة مثلنا ! » .. قالت : « **الفقير يشارك أخاه الفقير خبزه ، فهو يحس لذعة السغب !** »

وأتى أبى على رغيفين ، ثم أخذ يتجشأ ويتثاءب . وأغمضت والدتى عينيها أسى وحرقة ، وتناولت الرغيف الباقى فدفعته الى .. فقلت : « وأنت .. ألا تأكلين ؟ » .. قالت : « **اذا أكلت أنت .. أشبع أنا !** » **.. ولكننى قسمت الرغيف قسمين ، وأعطيتها النصيب الأوفر منه ، فأبت . وألححت عليها ، فاغرورقت عيناها بالدموع ، وقالت : « اعطنى قسمك ، وخذ قسمى » .. والتهمنا خبزنا مع ما تبقى من حبات الزيتون**

* * *

كان والدى ـ فى الماضى ـ يعمل فى سبيل لقمته . وكان سعيدا فى فقره : يكدح بياض نهاره ليأتى لأمى بثمرة جهده ،

يعمان معا فى عيشة فقيرة ، ولكن يسودها الحب ، وترفرف عليها الألفة ، ويظللها التفاهم الجميل الذى جعل من حياتهما متعة لا تكدرها غيوم الفقر الأسود ! ٠٠ بيد ان الحياة أبت على والدى أن يسير فى الطريق المستقيم ، اذ زين له بعض أترابه الباطل ، وأغروه على الخمر ، فأصبح يقسم ثمرة كده بين الخمر وأمى ٠ وبكت أمى لهذه الشقوة ، ولكنه لم يلن لتوسلاتها ، وأمعن فى غيه !٠٠ وكثيرا ما كان ينساها ، فلا يجلب لها الخبز ، فتبيت على الطوى ٠ حتى اذا فاهت بكلمة ، انقلب الى وحش كاسر ، يضربها بقسوة وغلظة ، حتى استحالت حياتها جحيما !

وقدر لأبى أن يفقد عمله بسبب الأزمة ٠ وذرع المصانع ، ذهابا وايابا ، بحثا عن عمل ، فكانت الأبواب كلها مسدودة فى وجهه ٠ ومرت بنا أزمة خانقة ، فاضطر والدى الى بيع الأثاث القليل الذى كانت تحتويه غرفتنا ٠ وطار الثمن فى الخمر !٠٠ وبعد عناء ، استطاع والدى أن يجد عملا فى تكسير الحجارة ، فجذلت أمى ، وشكرت الله على هذه النعمة الضافية ، وان لم يكن أبى يعطيها الا النذر الضئيل من أجره ، لينفق الكثير على عربدته ! ٠٠ ثم عادت الأيام تكشر لنا عن أنيابها الحمراء ٠٠ اذ تخبط أبى فى مرض هد منه القوى ، فلما شفى ، لم يستطع القيام بأى عمل ، فشمرت أمى عن ساعد الكد ، لتكسب اللقمة بغسل الثياب ، وخدمة البيوت ٠ وكانت تعود فى المساء ببعض دريهمات يغتصب أبى القسم الأوفر منها ، ليحتسى به الخمر !

والغريب ، ان كل من رآنى لم يكن يصدق اننى ربيب الفقر والحرمان٠٠ **فملامحى الدقيقة ، وزرقة عينى ، والشحوب المختلط ببياض لونى ، وشعرى الأشقر الذى كان يتألق على رأسى كتاج من ذهب٠٠ كل هذه كانت تجعلنى أقرب الى أبناء الاسرات الرائعة فى بحبوحة العيش ، منى الى أبناء الفقراء المحرومين ٠٠ لولا الأسمال البالية !**

* * *

وفى الحادية عشرة من عمرى ـ هذه السن الرخصة الغضة ـ تعرضت لمسئولية جسيمة ناء بها كاهلى . واحسرتاه ، لم أتذوق نعيم الطفولة ، بل هصرنى الجحيم هصرا شديدا . فوالدى ـ الذى ضاق ذرعا بحياتنا الضنكة ـ فر الى جهة نائية مجهولة ، ليعمل ويعاقر بنت الحان .. أجل ، فر والدى ، وتلاشى من وجودنا ! .. وها أنذا ـ بعد أن كبرت ـ أحس رجفة تنتابنى ، عندما أفكر فى تلك اللحظات الدامية ، التى طار بها والدى من وجودنا ، الى حيث لا أدرى !

وتتابعت المصائب تحدق بنا كالحة ! .. وما لبثت أمى أن وقعت تتخبط فى مرض قتال . وحاولت أن أشفيها بدموعى ! .. وعادتها بعض جاراتنا ، وكل واحدة تصف لها دواء خاصا . وكنت أسمعها تدعو الله من قلب ملهوف ، أن يرزقها الصحة لتستأنف جهادها الشاق ، فى سبيل اللقمة « اللعينة » ! .. ويبدو لى ان السماء كانت مغلقة ، فلم تصخ لأنينها ، ولم تأبه لذلتها . سامحنى يا رب لهذا التجديف ، فرحمتك وسعت السماوات والأرضين !

وفكرت فى أن أشتغل لأساعد أمى . وارتحت لهذا الخاطر . وهبطت الى الحارة أنشد العمل . وأحسست اذ ذاك بما كان يلاقيه أبى من عنت ! .. ثم ظفرت أخيرا بعمل لدى حلاق حارتنا . وكان عملا شاقا ، مضنيا ، تحملته بصبر عجيب ، رغبة فى الدريهمات التى كنت أنتظرها بنافد الشوق ، لأساعد بها والدتى التى يفترسها المرض . ومضت أربعة أيام ، ولم يؤد الحلاق لى قرشا واحدا . وصحت عزيمتى على مطالبة معلمى بأجرى ، فزعق فى زعقة مخيفة : « أمجنون أنت ؟ » ، وقرص أذنى قائلا : « ألا تعلم انها منة كبرى أن أدعك تعمل عندى ، لتتعلم ؟! »

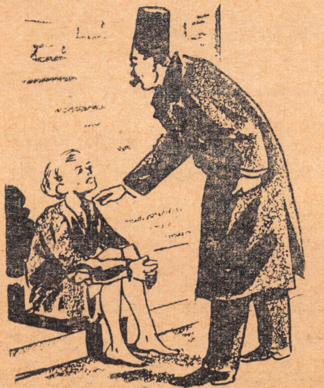
وضمتنى أمى الى صدرها الحانى ، حين رجعت اليها مهموما ٠ وكان لابد من أن أجد عملا لأزيح عن أمى الكابوس الذى يجثم عليها ٠ ورضى خباز الحـــارة أن أعمل فى فرنه ، فكنت أحمل صـــينية الخبز ، وأذهب بها الى بيوت أصـحابها ، حتى كلت قدماى ٠ ووجدت تسرية وغبطة فى المساء ، عندما منحنى الخباز نصيبى من قطع الخبز التى حصلت عليها بعرق جبينى ، فأسرعت الى أمى ، والدنيا على رحبها تضيق بفرحتى ٠ وكانت تغط فى نومها ٠ واقتربت منها ، فوجدتها فى نوم عميق ، لا سكنة فيه ولا نأمة ، فأشفقت عليها وتركتها ٠ وتناولت قطعـة من الخبز فالتهمتها ، ثم غرقت فى نوم عميق ٠ **وزحمتنى أحلام مخيفة ، فوجدتنى شريدا وحيدا ، أنادى أمى فلا تجيب ٠ وصرخت فى رعب وأنا ألتصق بأمى ، ثم عدت الى نومى ٠ ولكن الأحــلام المزعجة عاودتنى ، فصرخت : « أماه ! » ٠٠ ولكنها ظلت جامدة بلا حراك ٠٠ وحدثتنى نفسى بشر مستطير ، فاندفعت من الغرفة أنادى الجيران ، فلم يجبنى أحد ٠ وتزايد فزعى ، ودار رأسى ، ولم أدر ماحدث لى ٠ ولكننى عرفت فى الصباح أن أمى ٠٠ قد ماتت !** واقشعر بدنى ، ورجف كيانى ، وأظلمت الدنيــا فى ناظرى ٠ ولست أدرى كيف دفنت أمى ٠٠ اذ لم أفق الى نفسى ، الا وجارتنا « أم أحمد » تقول لى : « ستعيش عندنا يا مصطفى ، وستكون بمثابة أحد أولادى ! » ٠٠ وقال لى زوجها ، وهو عامل يكدح فى سبيل أبنائه : « يا مصطفى ، انك كأحد أولادى ، ولن أميز أحدهم عنك ! »

ونمت تلك الليلة فى مسـكنهم ٠ وفى الصباح ، قالت « أم أحمد » لأبنائها : « أخرجوا الى الحارة ، ولاعبوا مصطفى » ٠٠ ولكننى ما لبثت أن تسللت من رفاقى فى غمرة اللعب ، **وقصدت الى غرفتنا لأتنسم عبق أمى الراحلة ٠٠ وشدهت عندما رأيت حمالين ينقلون الى الغرفة بعض الأكياس ، والمـالك القـاسى جالس على مقعد أمام الغرفة ٠ فلما رآنى قال فى غلظة : « الحمد لله**

أن ماتت أمك ، اذ وفرت على عناء طردها ! »

ورمقته فى اشمئزاز وازدراء ، ثم استدرت على عقبى ، ورحت أعدو هاربا من هذا الجو البشع ، حيث يرقص الجشع الكريه على أشلاء الموت ٠٠ ومن الزقاق الذى شهد ثكلى ! ٠٠ وخرجت من الحارات الملتوية الى المدينه الحديثه بأبهتها، وصخبها، وضجيجها ٠ ومشيت دون غاية ، حتى كلت قدماى ، فوقفت مبلبلا ، مضطرب الجنان ٠ وشعرت بالحنين الى حارتنا ، غير اننى حرت فى تعرف طريق العودة اليها ٠ ووجدتنى أبكى ، دون أن يأبه أحد لبكائى ! ٠٠ ومن خلال الضباب الذى ران على مخيلتى ، تراءت لى فكرة ٠٠ تذكرت أبى الذى لم يمت مثل أمى ، بل هرب من البؤس ٠٠ فلم لا يكون فى هذه الأمكنة الجميلة ؟! ٠٠ وسألت أحد المارة عنه ، فضحك منى ، ومضى لشأنه ٠ وسألت غيره ، فلم يلتفتوا الى ٠٠ وشرع الجوع يفترسنى !

ما أشد قسوة الجوع الذى لا يرحم ! ٠٠ لكم تمنيت لو أن الموت تخطفنى كما فعل بأمى ، اذ أراحها من الدنيا التى يتلظى فيها الجوع !٠٠ وهبط على الليل ، فانتبذت مكانا من الرصيف،



وجلست القرفصاء ٠ وغرقت فى نوم مثقل بالرؤى البغيضة ، وبرودة الليل تلسعنى ٠ وفجأة ، استيقظت مذعورا على يد تهزنى ٠٠ وأبصرت أمامى أحد أولئك السادة الذين يتشحون بالثياب الجميلة ، يرنو الى ، ويسألنى فى رفق عما دعانى للنوم فى الطريق ٠٠ فلما عرف اننى لم أجد مأوى ، سألنى عن أهلى فقلت : « هرب أبى من زمن بعيد ، وخلفنى مع أمى ٠٠ وقد

ماتت ! » ٠٠ وأشفق الرجل على ، فأخذنى الى داره ، وقد وعدنى أن يستخدمني في بيته ٠٠

وفتحت لنا الباب امرأة كهلة قال لها : « اعتنى يا أم ابراهيم بهذا الصبى ٠٠ قدمى له الطعام ، وادخليه الحمام ، واشترى له فى الصباح ثيابا جديدة ، فسيصبح خادما لدينا » ٠٠

وقدمت لى « أم ابراهيم » طعاما شهيا التهمته فى شره ٠٠ فما أقسى الجوع ٠٠ وما ألذ الشبع !

★ ★ ★

وانتعشت ، وطبت نفسا في ذلك البيت ، فرحت أخدم سادته باخلاص ٠ وكان رب البيت من الأثرياء – ويدعى « على غالى » – وقد احبنى لنشاطى ٠ وكان ينفحنى ببعض القروش ، فاحرص على ادخارها ، لأن الأيام علمتنى ان للدراهم البراقة فعلا سحريا ، تعنو له الجباه ، وتتحطم أمام جبروته كل القوى ! ٠٠ كذلك كانت زوجة سيدى فاضلة ، رقيقة الشمائل ، حبتنى بعطفها ، وكانت توصى « أم ابراهيم » دائما بأن لا ترهقنى بالعمل !

وسمعت سيدى يقول لزوجته ذات يوم : « ألا ترين ان مصطفى من نسل كريم ؟ ٠٠ ألا ترينه كالملاك ، فى سماته ، وملامحه ، وجماله ؟ » ٠٠ فرحت أنظر الى المرآة ٠٠ ولم أصدق اننى أصبحت على هذه الصورة التى تتلألأ حسنا وبهاء !

وكانت لسيدى ابنة وحيدة ٠٠ طفلة بارعة الحسن ، اسمها « عائدة » ٠٠ عيناها الزرقاوان تشبهان زرقة البحر العميق ، وشعرها الذهبى يتموج على كتفيها ٠ أما بشرتها ، فكانت ناصعة ، مشربة بحمرة ٠ وقد نشأت ترف فى الدلال ! ٠٠ وكنت مكلفا بمرافقتها الى المدرسة ، أحمل لها حافظة كتبها ، ثم أنتظر – فى لهفة ! – ساعة عودتها ، لأسرع الى المدرسة فأعود بها ٠ وكذلك كنت أصحبها فى أوقات رياضتها ونزهتها

وكانت تتردد على البيت مدرسة خاصة تعلم عائدة ، فأبت الطفلة الا أن أحضر معها الدرس . ووافق سيدى . وسرعان ما تعلمت القراءة ، فأقبلت علـى الكتب ، حتى سبقت « عائدة » بمراحل ، وأخذت أساعدها على فهم دروسـها ! .. وأعجب سيدى بهمتى . واسـتطاع أحد أبناء الجيران أن يدلنى على مدرسة ليلية ، بأجر معتدل ، فصفقت جوانبى طـربا . وكان معى بعض المال الذى أدخرته من هبات سيدى .. ولكن هـذا المال لم يكن ليزيد عن نفقات الدراسة لخمسة عشر يوما ! **على ان سيدى لم يكد يعلم ، حتى ازداد اعجابا بى ـ وكنت أظن انه سيسخط على ـ وتولى عنى دفع نفقات الدراسة !**

* * *

بلغت العشرين من عمرى ، عندما كانت « عائدة » فى طريقها الى الثامنة عشرة ، يحف بها جمال بارع لا تتمالك النفس ازاءه سوى الخشوع ! .. وكان شغفى بالقراءة قد هدانى الى روائع الفكر العالمى ، كما اتقنت اللغة الفرنسية ، **وارتقيت الى شبه وكيل لأملاك سيدى « علـى غالى » ، أراقب مزارعه ، وأحاسب الفلاحين ، وأقوم ببعض أعماله !**

لم يكن يعكر على صفوى سوى « عائدة » ! .. كانت تحدب على كأخت بارة ، وتكاشفنى بأحاسيسها وأمانيها . وكنت أجد فى الاصغاء اليها نشوة تشوبها أحاسيس لا أدرك لها كنها ، حتى تكشفت أخـيرا ، فعملت على وأدها ، لأن دونهـا قبض الريح ! .. ولكنها كانت أقـوى منى .. أجل ، لقد أحببت « عائدة » !

وكانت الفتاة قد انقطعت عن الدراسة بعد الشهادة الثانوية ، فهرع اليها الخطاب لجمالها الغلاب ، ولكنها كانت تردهم وتقول لى : « لن أتزوج يا مصـطفى الا بدافع الحب .. فأنا أعلم ان هؤلاء الذين يحومون حولى ، لا يبغون سوى ثروتى ! » .. فأذكر

لهـــا أحيانا ان أباها راغب فى تزويجها ، ولكنها كانت تبادر قائلة : « لقد أباح لى حرية اصطفاء بعلى ، فليس من المعقول أن يعمل على اتعاسى ، وأنا وحيدته ٠٠ لن أتزوج حتى ألتقى بأمير أحلامى ! » ٠٠ وكنت أسألها أحيانا عن صفات الزوج المنشود، فتقول : « **لا يهمنى أن يكون غنيا ، فعندى من المـال ما يكفينا معا ٠٠ ولا أن يكون منحدرا من أسرة عريقة ٠٠ كل ما أريده أن تتحد عواطفه مع عواطفى ، وتنسكب روحه فى صميمى ٠٠ ان الزواج أدق نقطة وأخطرها فى حياة المـرأة ، فيجب أن تكون الأناة رائدها !** »

وحاولت أن أنتزع هذه العاطفة التى تغلبنى وتشدنى نحوها ٠٠ من أنا حتى أطمع فى الزواج من عائدة ؟! ٠٠ ألست خادما حقيرا ، التقطوه من الطريق ، وعطفوا عليه حتى أصبح انسانا ؟ ٠٠ كان يكفينى أن أكون على مقربة منها لأسعد ٠٠ ولو تزوجت من غيرى ! ٠٠ ليت عائدة ظلت طفلة ٠٠ ان حياتى وسـعادتى وحبى مرصودة لها ٠٠ لا أريد عنها بديلا !

★ ★ ★

وفى ذات صباح ، رحلت الى القرية ، اذ كنا فى وقت الحصاد وكان على أن أراقب الفلاحين ، وأبيع المحصول ٠ وانطلقت على الجواد ، تتناوبنى الهواجس ، والتباريح ، ولا يخفف من لوعتى سوى الأمل فى أن تزور « عائدة » القرية مع أبيها ٠٠

واستغرقنى العمل فى القرية خلال موسم الحصاد ٠ وكنت أعمل بهمة لا تعـرف الكلل ، لأشغل عن التفكير فى عائدة ٠٠ **فما جدوى هذا الحب الذى يسعر النيران فى أحشـائى ؟! ٠٠ وحاولت أن أنساه ٠٠ ولكننى انتهيت الى ان من المستحيل ان أنسى « عائدة » أو أن أنتزع حبها بعد أن سرى فى دمى !**

★ ★ ★

ولاحظت عند عودتى الى المدينة شيئا من التغير فى أطوار « عائدة » ، كما أخذت تكثر من الخروج . وفى ذات ليلة ، تأخرت الى ما بعد الساعة العاشرة مساء ، وكانت قد ذهبت لزيارة خالتها . واشتد قلق أبيها ، فأمرنى بأن أذهب لأعود بها . ولكن خالتها أبدت دهشة وقالت : « اننا لم نرها منذ أسبوع ! » .. ولو ان رصاصة انطلقت فى صدرى ، لما آلمتنى قدر هذا الجواب ! .. وعدت والانفعالات تفترسنى .. أين كانت تذهب وهى تزعم أنها تزور خالتها كل يوم ؟ .. أتكون العذراء الساذجة قد وقعت فى الشباك ؟.. وماذا أقول لسيدى؟ **.. هل أصارحه بالحقيقة ، ليدرأ عن فلذة كبده الأذى ، ويقيها شر الذئب ؟! .. لا ، فمن يدرى ؟ .. لعلها وقعت على الحبيب الذى ينيلها ما ترجو من سعادة .. ألست أريد لها السعادة ؟ .. ان هذه هى بغية حبى لها ، فلأتعذب .. فالعذاب فى سبيل الحب لذيذ ! .. وعولت على أن أفاتحها فى الأمر ، فاذا عرفت ان محبها كفء لها ، ساعدتها حتى يتم هناؤها . واذا كان العكس ، دافعت عنها بكل عزيمتى .. فليس لى من أمل سوى هناءتها !**

وتلكأت فى الطريق وأنا أشفق على أبيها من المفاجأة . وكم كانت فرحتى حين وجدتها جالسة مع أبيها عند عودتى . وسألنى الأب عن سر تأخرى ، فزعمت له ان صديقا صادفنى فى الطريق ، فشغلنى ، حتى اذا وصلت الى بيت خالة سيدتى أخيرا ، وجدتها قد بارحته من برهة ! .. ولمحت وميضا فى عينى « عائدة » ! .. ولم أذق غفوة فى تلك الليلة ، فقد شعرت بأن الخيط الواهى الذى تعلق به أملى قد انقطع . صحيح اننى

أخطأت فى عاطفتى نحو « عائدة » ، وكان على أن أذكر دوما اننى خادمها ، وان الفارق الاجتماعى الهائل يجعل نجوم السماء أسهل منالا ٠ ولكن ، متى كان القلب يخضع للمقبول والمعقول ؟!

وأقبلت « عائدة » فى الصباح ، فأنكرت حالى ٠ وما لبثت أن شكرتنى اذ أنقذتها من ورطة شائكة فى الليلة السالفة ، فسألتها : « وأين كنت اذن ؟ » ٠٠ وأغمضت عينيها نصف اغماضة ، كأنها تتلذذ بالحلم البهيج ، وتمتمت : « كنت حيث دعانى قلبى ٠٠ مع الحبيب ! » ٠٠ ولم تشعر بأن جوابها مزق أحشائى ٠ ومضت تصارحنى بكل شىء ٠٠ فلقد التقت ، وهى تزور صديقتها « وعد » ، بأخيها « حسنى » ، فاذا بقلبها يخفق له ، ورأت فيه الزوج المنشود ٠٠ وقالت : « وأفضى لى حسنى بغرامه ، فشعرت اننى أمتطى السحب ، وأنطلق فى السماء ! » ٠٠ وتكرر اللقاء بين الشابين ، وأصبحت « عائدة » تصحبه فى نزهات طويلة ٠ وأخذها الى أندية الليل ، حيث يتراقص الشبان والفتيات على أنغام الموسيقى ، وحيث تذوقت « عائدة » الخمر للمرة الأولى !

وداخلنى بعض الريب فى نواياه ، فسألتها : « ولم لم يخطبك ؟ » ٠٠ فأجابت : « لن يمضى هذا الأسبوع حتى تعلن خطوبتنا ! » ٠٠ وما ان انصرفت ، حتى رحت أقتات من همومى!

٠٠ وعذبتنى الغيرة ، وانتابتنى شتى الهواجس ٠ وعزمت على الهرب من نفسى ، فدبجت رسالة الى سيدى أشكر له بره بى ، ثم أخذت النقود القليلة التى ادخرتها ، وانسللت الى الخارج مع الفجر ٠٠ بعد أن ذرفت الدمع على الأوقات الممتعة التى قضيتها فى هذه الدار الحبيبة ، التى حنت على وجعلت منى شابا ، زودته بالسلاح ليكافح فى الحياة !

- ٢ -

ومضت عشر سـنوات حافلة بالجهـاد المستميت ، حتى وصلت الى ما أصبو اليه · فقد أصبحت محاميا ، يدر على مكتبى المال الوفير ، والشهرة المستفيضة ، والوقار الجليل !·· وصرت أجالس العظماء ، وأغشى المجتمعات الراقية · كل هذا من ثمار جهادى الدائب ، وكفاحى ، وصبرى ·· فبعد أن غادرت بيت سيدى ، اتجهت صوب (دمشق) تحدونى الآمال · وسكنت غرفة متواضعة فى حى قديم ، ثم رحت أبحث عن عمل ، حتى [illegible]عى ، وأظلمت الدنيا فى نظرى · وعندما نفد آخر قرش لدى ، خطر لى أن أتخلص من حياتى بأن ألقى نفسى فى نهـر « بردى » ·· ولكننى وجدت أخيرا عملا فى مطعم ، كخـادم ، [illegible]تببت على اداء واجبى باخلاص جعل المدير يحبنى ويضـاعف أجرى · وتعلق بى الزبائن ، وكثيرا ما تبسطوا معى فى الكلام، فدهشوا لمعلوماتى وسعة اطلاعى ·· فقد كنت اشترى الكتب، وأقضى شطرا من الليل فى استيعابها

واوحى الى طالب من زبائنى بالانتساب الى الجامعة · فراقت لى الفـكرة ·· وتخيلت نفسى محاميا أذود عن الحق والخـير ، وأساعد المظلومين والمنكوبين الذين خلفهم الركب الانسـانى ، ليعانوا الحرمان والبؤس والجوع ! ·· وكان صاحب المطعم طيبا، كريم الخلق ، فشجعنى ، وأذن لى بأن أتغيب ما شئت لأحضر المحاضرات

وهكذا انتظمت فى الدراسة بمعهد الحقوق ثلاث سنوات · وعندما نلت شهادتى ، آثرت مهنة المحاماة على الوظيفة ، فأنهيت مدة تمرينى عند أحد كبار المحامين ، ثم اتخـذت لنفسى مكتبا متواضعا · وما لبثت أن أصبحت محاميا كبيرا ، أعالج القضايا الكبرى ، ويتهافت على الناس · فقد كان شعارى : الاخلاص ، ومتابعة القضايا بالدرس والبحث حتى أكسبها ! ·· ولم يكن

المال ليهمنى ، بل اننى كنت كثيرا ما أعالج قضايا الفقراء دون أجر !

وكنت أتمنى لو أتيح لعائدة أن ترى هـذا المجد . فقد ظل حبهـا يعمر قلبى ، وطيفهـا لا يبرح ذهنى . وكلما هممت بالذهاب الى بلدتها ، وأدت الفكرة ، حتى لا يتجدد أساى !.. كان عزائى الوحيد أن تكون سعيدة مع زوجها الذى أحبته بكل قلبها..أما أنا ، فيكفينى أن أعيش على الذكرى ـ بعد نجاحى ـ نقيا من كل شائبة ، بعيدا عن كل دنس ، دون أن يخطر ببالى الـزواج . وانصرفت بكليتى الى عمـلى ، أحاول أن أنسى به « عائدة » التى أحببتها أكثر من نفسى !

★ ★ ★

كنت فى مكتبى ، فى مساء يوم قائظ ، مستغرقا فى دراسة قضية جنائية ، حين أقبلت سيدة أصرت على مقابلتى . فأذنت لها ازاء الحاحها . ولم أكد أرفـع رأسى عن الأوراق لأحييها ، حتى انتفضت واقفا كالمأخوذ ، وقد حسبت ان خيالى هو الذى أمدنى بالمنظر .. وقفزت الى السيدة ألثم يديها متأثرا .. فقد كانت أم « عائدة » !

وكان الأسى يكمن فى عينيها ، والحزن الدفين يكسو محياها ، فأوجست شرا . وقالت لى : « اننى مسرورة لنجاحك الـذى ترامت الينا أنباؤه .. » ، فقلت : « لولا فضلكم ما كنت شيئا مذكورا ! » .. قالت : « بل انك تستحق كل رفعة ومجد .. أنت بمثابة ولدى ! » .. وبكيت حين علمت ان سيدى القديم مات منذ خمس سنوات . وسألتها عن « عائدة » ، فقالت بصوت محطم ، خلال الزفرات الحرى : « عائدة فى السجن ! »

وكدت أصعق ! .. كان « حسنى » قد غرر بهـا ، ثم تزوج منها ، حتى اذا انقضى شهر العسل ، تكشف لهـا عن وحش كاسر ، فطفق يعذبها ، وانغمس فى اللهو الفاجر والخمر والقمار .

ولما مات أبوها ، حملها على بيع الضيعة ليبدد ثمنها فى أشهر معدودات على موائد القمار ، ثم حاول حملها على أن تبيع بيت الأسرة ، فلما أبت طلقها ! ٠٠ وبعد أن عانت الذلة والفاقة ، أطلقت عليه الرصاص ! ٠٠ وقالت سيدتى : « ووجدت نفسى وحيدة ، فقيرة ، محطمة ٠ وفى غمرة الهموم ، جاءنى صديق يقول : « ان ربيبكم مصطفى أصبح محاميا كبيرا فى دمشق ، فلم لا توكلينه ليدافع عن عائدة » ؟٠٠ »

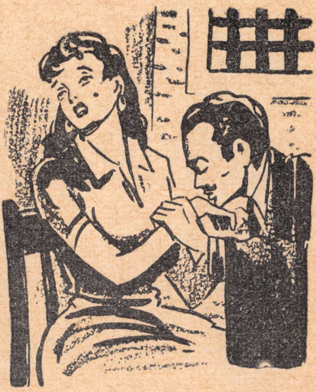
وعهدت الى وكيل مكتبى أن يعمل على تأجيل كل قضاياى لأمد طويل ، وصحبت « سيدتى » الى دارى ٠ **وعلمت ان «حسنى» لم يمت،فان اصابته من مسدس زوجته لم تكن قاتلة٠٠ فتهللت فرحا ، اذ وجدت فى هذا مايخفف من ذنب «عائدة» !**

ولم أغف فى ليلتى تلك هنيهة واحدة ٠ وكنت أرتجف اذ أتمثل « عائدة » فى السجن ، وحيدة ، منبوذة ، تدمغها الجريمة، وهى التى كان الحرير يدمى جسدها ! ٠٠ ألى هذا الحد تقسو الحياة ؟! ٠٠ وتولانى ذعر شديد عندما خطر لى ان « عائدة » الرقيقة الاحساس ، قد تقتل نفسها لتنجو من العار ! ٠٠ ثم عاودنى الأمل ، فتمثلتها تغادر السجن حرة ، أبية ، مطلقة ، لا زوج لها ! ٠٠ **أمن الممكن اذ ذاك أن ترضى بى زوجا ؟٠٠ ولكن أمن المنطق أن تتزوج من خادمها القديم ؟ ٠٠ مهما يكن من شىء، فلا يعنينى أن تتزوجنى ٠٠ فليست سعادتى التى أنشد ، وانما سعادتها هى ! ٠٠ أما أنا فيكفينى أن أعيش بقربها ، أقدم لها جهد أعصابى ، وحصاد عملى ، لتحيا فى رفاهية !**

وانطلقت مع أمها فى سيارتى فى الصباح التالى ، الى البلدة التي درجت فيها ، وقضيت فى ربوعها صباى الشقى

★ ★ ★

لم أكد أطمئن الى ان أم « عائدة » قد استقرت فى دارها ، حتى أسرعت الى السجن ، وأنبأت مديره بأنى محامى « عائدة » ،



فوجدته مشفقا عليها ، اذ رفضت أن تتناول طعاما منذ يومين •• وأقبلت « عائدة » ذليلة ، منفوشة الشعر ، فصرخت أناديها ملتاعا • وتطلعت الى بنظرات حجبها الشقاء ، فعدت أهتف باسمها • وتفرست فى طويلا ، ثم صرخت : « مصطفى ! » •• وارتمت على صدرى تشهق وتزفر • وأجلستها على المقعد ، وجثوت أمامها ألثم يديها بشغف واخلاص وأنا أقول : « تشجعى •• لقد جئت أفديك بروحى ! » •• فقالت بصوت واه كأنه صادر من قبر : «أين كنت هذه المدة ؟ •• لكم بكيت لفراقك !»

وأنبأتها بما صرت اليه ، ورحت أبث فى نفسها الأمل •• فقد كانت يائسة ، قانطة ، تخال انها فقدت دنياها ، ولم يعد لها من رجاء سوى الموت • ووجدتنى أقول لها : « لسوف أقتل نفسى اذا أصابك مكروه ! » •• وحملتها بعد لأى على أن تأكل بعض الحلوى • وتمالكت عواطفى الجياشة ، ثم رحت أسألها عن ظروف الحادث •• فحدثتنى عما كان من دناءة « حسنى » وقسوته ، وتحايله عليها حتى حملها على أن تبيع الضيعة ليبدد ثمنها • ولما أخفق فى حملها على بيع الدار ، طلقها ، فعادت الى أمها لتعانيا معا شظف العيش ، حتى اذا لم يعد لهما من مورد ، حملت « عائدة » مسدسا ، وقررت الانتحار • وخرجت ترتاد الأماكن الحلوة التى كانت تغشاها ، لتودعها قبل موتها ، فاذا بها تصادف « حسنى » ، الذى أخذ يلاحقها قائلا : « اننى أحبك وقد ندمت على طلاقك ، وانى مستعد لأن اراجعك ، على أن

تبيعي البيت ، لحاجتي الماسة الى ثمنه ! » ٠٠ وبحركة لا شعورية ، امتدت يدها الى المسدس ، وأطلقت على « حسنى » الرصاص !

وكنت أصغى بجوارحي للمأساة ٠٠ ورأيتنى دون وعى أضم « عائدة » الى صدرى ، وأوزع عليها القبلات لأفرج عن أساى ٠٠ وغادرتها وقد بثثت فى نفسها الثقة بعدالة الله ورحمته !

★ ★ ★

ما أن بارح « حسنى » المستشفى ، بعد أن شفى من الجرح الذى أصابه ، حتى حاولت أن أقنعه بكل الوسائل المجدية على أن ينزل عن دعواه المدنية ، ولكنه قال فى لؤم وحقد : « انها تستحق الموت ٠٠ بودى أن أراها ميتة فى سجنها ! » ٠٠ واذ أعيتنى الحيل ، لمست فيه نقطة ضعفه ، وهى : **المال !** ٠٠ ومضى يساوم فى خسة وضعة ! ٠٠ وكنت قد أخذت معى كل نقودى ، فدفعت اليه عشرة آلاف ليرة ٠٠ ولم يكد يكتب تنازله حتى قال : « ان عائدة جميلة ٠٠ فهنيئا لك ٠٠ أليست عشيقتك ؟ » ٠٠ واكتسحنى غضب هائل ، فوددت لو أبطش به ٠٠ ولكننى كنت ملهوفا على الذهاب الى « عائدة » أبشرها ٠٠ حتى اذا قابلتها ، أخذت تستدرجنى حتى عرفت اننى ابتعت التنازل بالمال ، فهتفت : « لماذا تفعل كل هذا ؟ » ٠٠ **وكدت أصارحها بحبى ، لولا ان خنقت الكلمات بقوة وقلت : « لأنه واجبى ٠٠ أنتم الذين ربيتمونى ! » ٠٠ وبحركة لا شعورية ، طوقتنى بذراعيها ، وغمرتنى بقبلاتها الدافئة ، وهى تقول : « سأعيش من أجلك ! »**

وانصرفت من لدنها ، تتقاذفنى الهواجس ٠ ما أسعدنى ! ٠٠ لقد قرأت فى عينى «عائدة» الحب ! ٠٠ وتخيلت ساعة خلاصها ، وطار خيالى الى الوكر الجميل الذى سأبنيه معها ، حيث تمرح أطياف المنى ، والهوى ، والشباب ، والسعادة ! ٠٠ وعكفت على اعداد الدفاع ٠٠ كنت كلما تلوت فقرة منه ، تندت عيناى

بالدموع . فقد كان قصيدة حية ، تتمثل فيها شتى الاحاسيس، وتحتدم فيهـا العواطف الحـارة ! .. وعندما جاء دورى فى الدفاع ، خيل الى انى غبت عن الوجود ، اذ رحت أتدفق بكلامى، أستعرض ظروف الاعتداء ، وأحلل عوامله ، وأستعرض نفسية « حسنى » الذى باع ضيعة « عائدة » وبدد ثمنها ، ثم لفظهـا بقسوة ! .. وتدفقت فياضا بالبلاغة ، وأنا أدافع عن ظـروف « عائدة » عندما أطلقت الرصاص ، حتى أبكيت المستمعين فى قاعة المحكمة ، واستحوذت على مشاعر القضـاة ! .. وهيمن السكون العميق ، ليتردد صوتى مدويا ، معبرا عن ظلم الانسان لأخيه الانسان ، حتى أحس الجميع بأن المجـرم الحقيقى هو : « حسنى » !

وانسحب القضاة للمداولة .. ثم عادت هيئة المحـكمة ، فساد الصمت .. وقال رئيس المحكمة ، بعد الحيثيات : « **بما ان المدعى المدنى تنازل عن حقـه ، قررت المحـكمة ـ نظرا للظروف المخففة ـ حبس المتهمة شهرا .. وبمـا انها أمضت أربعين يوما فى السجن ، فقد تقرر اطلاق سراحها فورا** » !

وهرعت الى « عائدة » أتأبط ذراعها ، فارتمت على صـدرى كأنها لا تصدق انها استردت حريتها المسلوبة ! ! .. وحارت وأمها فى شكرى ، فقلت لهما : « اذا كان هنـالك من يجب أن يقدم الشكر ، فهو أنا .. فلولاكم لما كنت شيئا مذكورا .. فأنا خادمكم ! »

واذ خلوت الى نفسى ، أخذت أسائلها : « أيتاح لى الزواج من «عائدة» لأغمرها بحبى واخلاصى ؟ .. كنت أخشى اذا ما طلبت يدها ، أن يفسر هذا بأننى أتقاضى أجرى نظير خدمتى لها .. كانت فكرة انى خادم لعائدة تتركز فى ذهنى ولا تبرحه .. هل من المعقول أن ترضى بالزواج من خادمها ؟! »

وكان لابد من أن أعود الى مكتبى فى (دمشـق) .. فلما اطمأننت الى ان « عائدة » استعادت حيويتها ، أعلنت اننى راحل

فى غد ، فأبدت ألمها لفراقى ٠٠ ثم قالت فى أسى : « أريد منك قبل سفرك أن تدبر لى عملا ٠٠ فأنت تعلم اننا أصبحنا بلا مورد ! » ٠٠ فهتفت : « أتعملين وأنا فى الوجود ؟ » ٠٠ وعبثا حاولت أن أقنعها بأن تتيح لى فرصة رد جميلها وجميل والديها ٠٠ فقد أبت الا أن تعتبر أية معونة نوعا من الصدقة التى يستحيل أن تقبلها ! ٠٠ وعرضت عليها أن تعتبر المعونة دينا ريثما تتزوج ٠٠ وشحب وجهها ، وقالت : « لقد جربت حظى ٠٠فالزواج لعنة حمراء ، ولن أفكر فيه البتة ! » ٠٠ وأحسست أننى أختنق ، فاغرورقت عيناى بالدموع رغما عنى٠٠ **وصرخت عائدة : « لماذا تبكى ؟ » ٠٠ وفقدت وعيى ، ووجدتنى أصارحها بحبى ، وكيف هربت الى حيث تقاذفتنى الأهوال حتى نجحت ! وفجأة ، فطنت الى اعترافى ، فتأوهت وقلت : « سامحينى يا عائدة ٠٠ لا تظنى أننى أستغل خدمتى لك من أجل الزواج ٠٠ أنا خادم لك ٠٠ الى الأبد ٠٠ فالفروق الاجتماعية بيننا واضحة ٠٠ ومن العار أن تتزوجى من خادم لك ! »**

ورأيت وجهها قد شحب ، وانقبضت ملامحها ، وغرقت فى ذهول شديد ! ٠٠ وعرانى بدورى اضطراب عنيف ، وان انقذنى دخول أمها من هذه البلبلة !

وفى الصباح ، رحلت الى دمشق ، دون أن أقوى على وداع « عائدة » وأمها !٠٠ كنت أريد أن أهرب من هذه المدينة الجميلة التى شهدت حياتى المدلهمة ، وقبرت فيها حبى ! ٠٠ ما أشد الفراغ الكاسح الذى تولانى ببعدى عن « عائدة » !٠٠وتذكرت اعترافى لها بالأمس ، فعضتنى الندامة ! ٠٠ كيف سولت لى نفسى الجهر بمشاعرى ؟ ٠٠ وتخيلتها ناقمة على جرأتى ٠٠ بل وقاحتى ٠٠ أمن المعقول أن ترضى بى بعلا وهى ربيبة العراقة ، والنبل ، والترف ٠٠ وأنا الخادم الحقير الذى التقطه أهلها من الشارع ، وحنوا عليه ، وربوه ؟! ٠٠ ولأول مرة فى حياتى ، نقمت على وضاعة أصلى ، فاستفاضت دموعى ٠ وتنبهت أخيرا

الى صوت سائق سيارتي يقول : « سيدى .. أتبكى ؟ »

ومسحت دموعى ، وتمتمت : « لا .. أنت واهم ! » .. وبدا انه فهمنى ! وعدت الى هواجسى .. ليتنى لم أفض لها بحبى !

وما أن وطأت قدماى (دمشق) ، حتى هرعت الى مكتبى ، أحاول أن أتفرغ بكليتى الى عملى . ولكن ظنى خاب .. كنت أقرأ دون فهم ! .. واستبدت بى لوعة .. وعبثا حاولت أن أدرس قضاياى .. ففى قلبى كانت النار مشتعلة لا تخبو !.. ووجدتنى أصلى ، وأدعو الله . **وأخذت أهيم فى شوارع (دمشق) على غير هدى ، وفى أعماقى جوع مضطرم .. جوع من لون آخر ، غير ذلك الذى رافقنى فى نشأتى ! .. كنت أتلهف فى الماضى على كسرة خبز أسكت بها صرخة المعدة .. أما اليوم ، فان الجوع الذى يستبد بى لا يرحم ! .. جوع لا أستطيع أن أسكته لحظة واحدة .. جوع النفس الى رفيقتها فى الحياة .. جوع الروح الى روح أخرى تنسكب فيها الى الأبد !**

ولم يدرك سر تغيرى فى تلك الفترة سوى صديقى «يوسف»، فحاول أن يتعرف أمرى ، ولكنه لم يفز بطائل . وحاول أن يسرى عنى ، ولكن دون جدوى . واستبد بى الأرق . كنت أكافح اليأس فى أيامى الماضية وأفوز عليه ، فلم أنصاع له اليوم ؟! .. كيف أتناسى نفسى ، وأطوى كل هذا الكفاح الذى خلط بدمى وغمس بعرقى ؟! .. وقررت أن أسحق اليأس ، فكتبت الى « عائدة » رسالة أعتذر فيها عما بدر منى ، وأؤكد لها اننى سأظل دوما خادمها !

وكأنما انزاح عنى عبء ثقيل ، فذهبت الى مكتبى ، وانصرفت الى قضاياى . وأحسست بأننى أنتصر على اليأس بالهمة والارادة .. ففى ميدان العمل متسع لكبت الألم ، والسمو بالنفس الى الذروة !

★ ★ ★

وعدت ذات يوم الى البيت مبكرا .. وارتجفت اذ أبصرت

بعائدة وأمها ، فقبلت يدم الأم وصافحت الابنـــة ، وجلست بينهما وأنا لا أصدق انهما بقربى . وجددت الأم شكرها لحسن بلائى فى الذود عن كرامة ابنتها ، فاصطبغ وجهى بالاحمرار ، وقلت : « انى خادمكم ! » ، فصرخت عائدة : « لا تقل هـــذه الكلمة .. انك أحب الناس الينا ! » . وهفا بى فرح عظيم لهذه العبارة السحرية !

واستضفتهما فى بيتى . وبعد العشـــاء سألتنى « عائدة » عمـــا اذا كان لدى عمل ، فضحكت .. أى عمل فى الدنيـــا يصرفنى عنها ؟ .. ودعتنى الى أن أرافقها فى نزهة فى شوارع دمشق .. ووجف قلبى ، فقد كنت أخشى الانفراد بهـــا ! .. واهتز بدنى حين تأبطت ذراعى فى الطريق ، ثم وهى تقـــول بدلال : « أأضايقك يا مصـــطفى ؟ » .. وأطبق علينا الصمت برهة ، ثم عادت فسألتنى أن أدبر لها عملا ، فعدت الى جـــوابى السابق ، من أننى أريد أن أرد جزءا يسيرا من فضلهم وديونهم! .. وسألتنى فجأة : « لماذا أرسلت تعتذر ؟ » .. وغاض الدم من وجهى، وقلت : «لأنه لا يجوز لخادم أن يطلب يد سيدته ! »، فهتفت : «لست خادما لنا .. بل أنت أنبل انسان فى وجودنا !» .. وعادت تسألنى : « والآن ، الا تفكر فى الـــزواج ؟ » .. قلت : « لقد نزعت هذه الفكرة من رأسى الى الأبد ! » .. قالت **« أما أنا فقد وجدت لى عملا .. سأتزوج ! »**

وخفق قلبى الذبيح . بينما استطردت هى : « وزوجى الذى اخترته يمتاز بفضائل سامية ! » .. وأحسست بالغـــيرة من هذا السعيد ، ولكننى لم أنقم على « عائدة » ، فما كنت أتوخى الا سعادتها . وقالت : « ألا تسألنى من هو هذا الزوج الـــذى أحبه ؟ » .. وسكت واجما حائرا .. **وحدقت فى ، وطافت فى عينيها الساجيتين أنوار بهية ، ثم تمتمت كالحالمـــة : « انه .. أنت يا مصطفى ! » .. وكدت أترنح وأهوى من فرط ما انتابنى من سعادة !**

إقرأ معى :



كتاب الشهر

عزيزى القارىء ...

قدمت لك فى هـذا الباب فى اعداد سابقة من (كتابى) الكتب الشائقة التالية :

- آراء جريئة فى الحياة : للفيلسوف الانجليزى المعاصر « جود »
- آراء جريئة فى السياسة : لبرنارد شو
- كيف نجحوا فى الحيـاة : لديل كارنيجى
- الحياة فى موسكو : هارولد ليكوك
- مراهق : البرتو مورافيا
- آلهة ومقابر وعلماء : سيرام
- الالمان ، شعبا وعبـاقرة : أميل لودفيج
- مستقبل زوجك فى يدك : مسز ديل كارنيجى
- التـاريخ السرى للاحتلال البريطانى : ويلفريد بلنت
- أقنعة الحب السبعة : أندريه موروا .
- فى داخل أفريقيـا : جون جنتر
- من فرعون الى فاروق : هـ . وود جارفيس
- كفاحى : سومرست موم

واليوم أقدم لك فصلا جديدا من كتاب « جون جنتر » : « فى داخل افريقيا »

وفى الاعداد القادمة أزمع أن أقدم لك فى هذا الباب مزيدا من الـكتب الممتعة ..


INSIDE
AFRICA
BY
JOHN GUNTHER
مراكش
وادى النيل
فى داخل مراكش
للصحفى العالمى المحقق «جون جنتر»

« فى داخل افريقيا » ٠٠ مرة أخرى !

◆ قدمت لك فى العدد ٤٤ من « كتابى » فصلا من الكتاب القيم الذى وضعه الصحفى والكاتب العالمى «جون جنتر» ، وتحدث فيه عن « نهضة مصر فى عهد الثورة » ، ووعدتك بأن أوافيك تباعا ببقية فصول الكتاب ٠ وها أنذا أفى بوعدى ، فأقدم لك اليوم فصلا جديدا من كتاب : « فى داخل افريقيا » ، يتناول البلد العربى الشقيق (مراكش) ٠ وقد زار جنتر (مراكش) بعد اقصاء سلطانها الشرعى عن عرشها وتنصيب بديله الخائن الذى ارتضى أن يستحل لنفسه مركز قائد البلاد وزعيم حركة « التحرير » فيها ! ٠٠ وقد كتب « جنتر » هذا الفصل تحت تأثير النشوة التى استولت على عقول المستعمرين ، وزينت لهم ان السلطان الشرعى – والزعيم القومى – قد انزاح عن طريقهم الى الأبد ! ٠٠ ويبدو ان شيئا من هذه النشوة قد انتقل الى « جنتر » ، سيما وان السلطات «الفرنسية» كانت تتولى اعداد الاستقبالات والبرامج للصحفيين والمراقبين الذين كانوا يزورون مراكش اذ ذاك ، فاما اقتنع الزائر بما يقدم له من معلومات أعدها المستعمرون ، وا ما ٠٠ ضيقت السلطات عليه الخناق! ٠٠على انذلك لا ينهض له عذرا على الاطلاق ، فان طالب الحقيقة – المجرد من أية نزوة أو ميل – لا ينساق لنشوة نبيذ المستعمرين ، وانما يخوض المتاعب والمخاطر لأداء رسالته ٠٠ فان لم يفعل ، فهو مغرض أو مقصر ، ولو أورد بعض الحقيقة ٠٠ لأن الحقيقة كل لا يتجزأ ٠٠ ويؤسفنى أن أرى « جنتر » يحيد عن الصراط فى حديثه عن مراكش فى هذه الصورة ، مع أنه كانفى فصولأخرى حريصاعلى الدقة والحياد فىالبحث عن الحقيقة !

سلطان مراكش

◆ **لمراكش** سلطانان (١) : أولهما هو السيد الكهل الشاحب الوجه ، المتجهم الطلعة ، الذى ارتقى العرش فى ٢١ أغسطس سنة ١٩٥٣ ، والذى لم يصل الى منصبه الرفيع الا لأن الفرنسيين خلعوا سلفه المنفى ٠

---

(١) وضع « جنتر » هذا الفصل من كتابه قبل حدوث التطورات الاخيرة التى أدت الى خلع بن عرفه عن العرش ، واعادة السلطان الشرعى الى عرشه ٠

والسلطان الآخر هو «محمدالخامس» الذى خلعه الفرنسيون ونفوه . ويتمثل الموقف فى مراكش - بوجه عام - فى صراع محتدم ، بشع من أجل الحكم والنفوذ، بين قوتين متنافستين يمثلهما السلطانان .. فالسلطان « القديم » يمثل الوطنيين ، والسلطان « الجديد » يمثل الفرنسيين !

والسلطان الذى ولاه الفرنسيون يدعى « سيدى محمد بن مولاى عرفه العلوى » ، وهو بمثابة « البابا » - أى زعيم دينى- وفى الوقت نفسه ملك ، والعوبة ، وسجين ! .. فأما أن السلطان زعيم دينى ، فلأنه الرئيس الدينى لرعيته ، اذ يجب قبل تعيينه ملكا أن يباركه علماء (فزان) ويمنحونه النفوذ - وهم بهذه المثابة يمثلون مجلس الكرادلة فى روما ! - والسلطان ملك ، لأن مراكش - ولو من الناحيه النظرية - دولة مستقلة يقوم الفرنسيون « بحمايتها » ! .. (وقد ظلت مراكش تحت حكم سلسلة متعاقبة من الأسرات المالكة منذ القرن التاسع الميلادى .. ولا تزال - حتى تحت الحماية الفرنسية - تدعى « الامبراطورية الشريفية ») .. أما أن السلطان «ألعوبة» ، فلأن عليه أن يفعل مايطلب اليه الفرنسيون فعله ، والا فقد منصبه ! .. ومنذ فرضت فرنسا حمايتها على مراكش - فى سنة ١٩١٢ - وهى السلطةالعليا فيها .. وأخيرا، فان السلطان فى مراكش « سجين » ، لان الفرنسيين - رغم أن سلطتهم هى العليا - لا يستطيعون أن يمارسوا الحكم بدونه ، اذ لابد لهم من سلطان يجلس على العرش ، ليحتفظوا لمراكش بمظهر الدولة « المستقلة » ، نظرا لأن هذا يلائم سياستهم .والسلطان « ابن عرفه » سجين مطيع ، فى حين أن « سابقه »- ابن يوسف- كان متمردا ، بل كان الفرنسيون الى حد كبير سجناءه !

البحث عن سلطان كهل جاهل !

◆ **ولقد** ولد سيدى محمد بن مولاى عرفه العلوى فى (فزان) عام ١٨٨٩ . وهو من أصحاب الاراضى الموسرين ، ومن أبناء

عمومة السلطان « السابق » ، وعضو فى الأسرة العلوية ، كما أنه من « الاشراف » ، أى من سلالة النبى محمد فيما يقال ٠ ولقد تولى البيت العلوى الحكم منذ سنة ١٦٦٨ ٠ وأفراده من أصل عربى وليسوا من البربر ٠ وخليق بنا أن ندرك أن وراثةالعرش فى مراكش ليست وراثة بالمعنى المعروف فى الغرب ، فالسلطنة المراكشية لا تنتقل من الأب الى الابن حتما ، وانما كل ما هنالك هو أن وارث الملك يجب أن يكون « شريفا »وحسب ٠ والمفروض ـ نظريا ـ أن يكون السلطان الجديد هو خير أقارب السلطان السالف أو أقواهم نفوذا ، وأن يختاره ـ نظريا أيضا ـ علماء مسجد القيروان فى (فزان) ٠٠ ولكن الذى يحدث حاليا أن المقيم العام الفرنسى فى مراكش يرشح أحد الأشراف للعلماء ، فيعمدون الى « انتخاب » هذا المرشح ليصبح سلطانا !

وقد وجد الفرنسيون أنفسهم فى موقف عسير حين خلعوا السلطان « محمد الخامس » فى أغسطس سنة ١٩٥٣ ،واضطروا الى أن يبحثوا عن سلطان جديد ٠٠ فقد كان لديهم عدد من الاشراف ، بيد أنهم كانوا ينشدون : **١ ـ شخصا كهلا لا يملك أن يستوعب الآراء الوطنية على مر السنين عليه فى الحكم ! ٠٠ و : ٢ ـ أن يكون لينا كل اللين !**

وقد ظفر « ابن عرفه » بالمنصب لأنه كان مغمورا ، لا لون له من الناحية السياسية ٠٠ وأهم من هذا أنه كان المرشح المختار لدى الجلاوى ، باشا مراكش الشهير ـ الذى توفى منذ نحو شهرين ـ اذ كان نسبه يتصل به من ناحية الأم ٠٠ **وأنه لمن المشكوك فيه أن السلطان « ابن عرفه » يعرف القراءةوالكتابة !!**

ومن طريف ما حدث عندما انتقل ابن عرفه الى قصر السلطان فى (الرباط) ، انه أصر خلال الأيام القليلة الأولى على أن يطهو غذاءه بنفسه ، اذ كان يخشى أن يحاول أحد الأوفياء للسلطان المخلوع أن يدس له السم !

سياسة « اطعم الفم تستحى العين » !

• **وسلطان** مراكش – أيا كان – يعتبر من أغنى أغنياء الدنيا ! .. ففى مراكش نحو ستين قصرا سلطانيا ، كما أن حاشية السلطان قد تصل فى العدد الى عشرة آلاف . ويتقاضى السلطان ثلاثمائة مليون من الفرنكات فى العام لنفقاته ونفقات أسرته ! .. وقد سألت الجنرال « اوجستان جيوم » – الذى كان مقيما عاما عندما زرنا مراكش – عن مصدر كل هذه النقود، فقال : « **من الشعب** » ! .. فسألته : « ومن أين يأتى بها الشعب ؟ » ، فأجاب : «**من الأرض**» . وأمسك لحظة ثم أضاف : « **انهم يحصلون عليها من الارض اذا سقطت الامطار .. فاذا لم تكن الامطار كافية ، فلا نقود هناك !** » .. ومن أسباب دفع مثل هذا المرتب الضخم للسلطان ،أنه مضطر –كقاعدة– الىالاحتفاظ بمظهر ضخم ، كما أنه – وفقا للتقاليد الاسلامية – لا يستطيع أن يرد سائلا عن بابه ! .. **وهناك سبب آخر للسخاء فى مرتبات السلاطين ، الا وهو ابقاؤهم مشدودين الى عربة الفرنسيين !**

وتختلف الحياة العائلية لابن عرفه اختلافا كبيرا عن حياة سلفه .. فان له زوجة واحدة تدعى « للاهنية » ، وهى ليست ملكة ، لأن نظام الملكات غير معروف فى مراكش ! .. وفيما عدا هذه الزوجة لم يعرف أن للسلطان خليلة ما !

والنفوذ الرئيسى للسلطان على رعيته نفوذ دينى ، فان مراكش من الدول الاسلامية الشديدة التمسك بأصول الدين . على أن له أيضا – أو كانت له – سلطات دنيوية .. فقد كانت لمراكش حتى سنة ١٩٥٣ حكومة ملكية مطلقة لا دستورية .. ولما كان الفرنسيون يريدون أن يحتفظوا – بأى ثمن كان – بما يتظاهرون به من أنهم مجرد « مستشارين » يحكمون باسم السلطان ، فقد أوجدوا نظاما مزدوجا تقوم الادارة الفرنسية

فى أحد جانبيه ، وحكومة السلطان الخاصة ـ التى تسمى « المخزن » ـ فى الجانب الآخر منه ! ٠٠ وفى ظل هذا النظام يستطيع السلطان أن يظهر نفوذه بعدة طرق ، وان ظلت السلطة الحقيقية فى أيدى الفرنسيين ٠٠ مثال ذلك أن السلطتين التنفيذية والقضائية ليستا منفصلتين فى مراكش ، والسلطان هو السلطة القضائية العليا فى كل المسائل القانونية التى تتعلق بالمراكشيين ، حتى فى الجرائم ٠٠ كذلك لم تؤت مراكش سلطة تشريعية ، وانما للسلطان وحده السلطة التشريعية الى الدرجة التى تجعل للمراسيم التى يصدرها قوة القانون اذا ما أقرها الفرنسيون ، فى حين أن الفرنسيين لا يملكون حق تنفيذ قانون ما لم يوقعه السلطان ٠

وقد أثار السلطان « محمد الخامس » سخط المقيم العام بتكرر « اضرابه » عن توقيع عدة قوانين ، مما كان يخلق أزمات حكومية ٠ وكان هذا من الأسباب الكبرى لخلعه ٠ ولسوف يكون السلطان الجديد أسهل عريكة من سابقه ـ بالطبع ـ بيد أن الفرنسيين لم يشاءوا أن يتركوا فرصة لتكرار ما كان يحدث ، فأدخلوا تعديلات قصت من جناحيه ، وجردته ـ فى الواقع ـ من كل سلطة دنيوية ، وليس « المخزن » الآن سوى طيف لشبح ، اذ أصبح يقتصر على الاشراف على المؤسسات الدينية !

عقرب تقض مضاجع الفرنسيين !

◆ **أما السلطان** الآخر « محمد الخامس » ـ أو سيدى محمد بن يوسف ـ فشخصية أكثر تعقيدا ، ورواء من « ابن عرفة » ٠٠ وقد اعتلى العرش فى سنة ١٩٢٧ ، وكان يومئذ فتى فى السابعة عشرة ٠ وهو الثامن عشر الذى تولى العرش من أسرته ، وثالث أبناء السلطان السابق ٠ وقداختاره الفرنسيون ، دون أخويه اللذين كانا يكبرانه ، لأنهم كانوا فى ذلك الوقت يريدون شابا ـ لا شيخا ، صلب العود ! ـ وشابا يعرف

الفرنسية ، ويبدو عليه من الذكاء ما يبشر بمستقبل طيب ٠٠ فاذا بمن اختاروه يغدو ـ حين جاء المستقبل ـ عقــــربا تقض مضاجعهم !

ولقد تجاوزت كراهية الفرنسيين لمحمد الخامس كل حد ٠٠ وكان من أسبابها ـ كما يقولون ـ بذخه واسرافه المفرطان ، اذ كان يقتنى السيارات كما يقتنى المرء ربطات العنق ! ويقــول الفرنسيون ان مرتبه لم يكن سوى جزء ضئيل من دخــله الضخم ـ اذ قدرت ثروته حين خلع عن العرش بما يتراوح بين أربعة وخمسة بلايين من الفرنكات ، أى ما بين أربعة وخمسة ملايين من الجنيهات ! ـ وللســلطان زوجتــان ، وأربعون أو خمسون جارية أو أكثر ، فالمعروف أن المراكشيين مفرطون في ميولهم الجنسية ! ٠٠ والزوجة الأولى للسلطان فى نحو الخامسة والأربعين من عمرها ، وتعرف رسميا ب «أم أولاد السلطان» ٠ أما الزوجة الثانية ففى الخامسة والعشرين ، وتعرف باســم « المحظية » ٠ هذا ولا تبدى أى من الزوجتين غيرة من الزوجة الأخرى ، وان لم يدر أحد ما يدور فى (الحريم) ٠٠ وقد كانت الزوجتان تزوران زوجةالمقيم العام الفرنسى مرتينفى العام، معا! بيد أن الجنرال «جيوم» نفسه لم يرهما قط ٠٠ وتغلق نصف حجرات قصر المقيم أثناء زيارة زوجتى السلطان ! ٠ ٠ وبين جوارى السلطان فرنسيات ـ كما تقول الشائعات ـ وعدد من الزنجيات !٠٠ بل يقال ان بينهن انجليزية أو أمريكية !

والسلطان محمد الخــامس ـ رغم اسرافه ـ ذو شخصيــة ديموقراطية فذة فى بعض النواحى ، فقد كان يؤثر من سياراته جميعا سيارة صغيرة يقودها بنفسه٠وكان يحب أن يبنى بيديه، وأن يقود جرارا (بولدوزر) ، كما أنه يجيد « التنس » ،ويؤثر أن يلعبه مع طاه فى المطابخ الملكية ! ٠٠ وهو ريــاضى ، يحب ركوب الخيل ، والرماية ، والصيد ٠٠ وكان مستشاروه يدركون

أنه فى مزاج طيب اذا ارتـــدى الثياب البيضـــاء وبدا حليق الذقن !

« مؤامرة » تحرر الأميرات !

◆ **على** أن الفرنسيين ما كانوا ليخلعوا السلطان محمد الخامس لسوء سلوك منه ، ولا لشغفه بالمال والنساء الجميلات ، بل ولا لأنه حاكم مستبد ٠٠ وانما الذى كرهوه منه هو تعـــاونه مع الحركة الوطنية ـ وقد كلفه هذا عرشه ! ـ فضـــلا عن أنهم لم يكونوا مرتاحين للطريقة التى كان يربى بها أولاده الخمسة الذين رزقهم من زوجته الأولى ، وأكبرهم هو الامير مولاى حسن ـ الذى أشرف على نهاية العقد الثانى من عمره ـ وأصغرهم ابنة فى العاشرة من عمرها ٠ وقد منح السلطان قدرا كبيرا من الحـــرية لابنتيه الكبيرتين « للا عائشة » و « للا ملكة » ، وأولاهمـــا فى نحو الثانية والعشرين ، والأخـــرى فى العشرين ٠٠ **فهمـــا تخرجان لشراء حاجاتهما من الأسواق دون ماحراسة ،وفى ثياب غربية ، دون حجاب !** ٠٠ ولم يستطع أحد ـ حين زرنا (الرباط) ـ أن يبرر لنا السر فى اباحة السلطان كل هذا القدر من الحرية لابنتيه ، على النقيض من معاملته لزوجتيه وجواريه ٠٠ **على أن الفرنسيين يظنون أن تلك كانت « مؤامرة » وطنية ، فقد ثبت ـ كما قالوا لنا ـ أن السلطان كان خاضعا لنفوذ حزب الاستقلال، الذى يؤمن بتحرير المرأة !**

ومن أهم ما يذكر عن صاحب السمو السلطانى الأمير مولاى حسن ، أنه ـ بعد أن درس فى فرنسا ـ أصبح وطنيا متحمسا، وأضحى له تأثير كبير على أبيه ، وان كان السلطان قد حاول من ناحيته أن يخفف من جموح آراء ابنه ! ٠٠ وكانت نزوات الامير ـ كما يقول الفرنسيون ـ لا تطاق ٠ **ففى احدى المناسبات أهدى أباه سيارة ، ثم أعلن للملأ أنها هدية من « ولى العهد » ! ٠٠ فى حين أن العرش المراكشى ليس وراثيا بالمعنى المعـــروف ، كما**

ذكرنا . وقد أفزع الفرنسيين أن يعتنق مولاى حسن فكرة أن يخلف أباه .. فى حين أنهم ما كانوا ليدعوه يصل الى العرش مطلقا !

الأمير « حسن » ومغزى تصرفاته ؟

• **وللولايات** المتحدة عدة قواعد جوية كبيرة فى مراكش ، كما تحتفظ بحامية ليست بالقليلة فى تلك البلاد . وقد سعى المقيم العام منذ البداية الى الحيلولة دون أى اتصال ـ سواء أكان رسميا أو غير رسمى ـ بين السلطان والمنشآت الامريكية ! ومع أنه كان سلطان البلاد ، الا أنه لم يتلق أى نبأ عن المفاوضات الخاصة بالقواعد ، حين بدئت ، ولا طلب منه أن يوافق عليها ، اذ تجاهله الفرنسيون تماما فى هذا الصدد ، مطمئنين الى أن نصوص معاهدة الحماية تكل اليهم الشئون الخارجية لمراكش ، ومن ثم فالمقيم الفرنسى هو وزير الخارجية الرسمى ووزير الدفاع للسلطان ! ثم جاء يوم تصرف فيه الأمير مولاى حسن بدافع من من نفسه، فقفز فى سيارة واتجه الى القاعدة الأمريكية القريبة من (الرباط) حيث زار ـ علنا ـ الضباط الذين يتولونها ! وكان لذلك مغزى هام ، اذ أن كثيرا من المراكشيين ـ حتى الذين يميلون منهم لأمريكا ـ يشعرون بقلق طبيعى لأن بلادهم أصبحت ـ دون موافقتها ـ جزءا من شبكة الدفاع الامريكية !.. فلو أن قاذفات الولايات المتحدة قامت من قاعدتها (فى الرباط) وأغارت على موسكو ، فمن الواضح أن لموسكو أن تغير عندئذ بدورها على (الرباط) ، ومن ثم فستصبح مراكش طرفا فى الحرب العالمية القادمة ، شاءت أو لم تشأ !

وكان هذا هو الموقف الذى أراد مولاى حسن ابرازه ، فأثار غيظ الفرنسيين !

قصة الانقلاب (١)

• وقصــــة الانقلاب فى مراكش خليقة بأن تملأ كتابا ٠٠ فلقد ظل السلطان أعواما عديدة خاضعا للفرنسيين ، وان عمد الى شيء من العنف معهم أحيانا ٠٠ فما الذى جعله فى النهـــاية ينقلب عليهم تماما ؟ ٠٠ وجهت هذا السؤال الى الجنرال جيوم ، فأدهشنى جوابه اذ قال : « **الرئيس روزفلت !** » ٠٠ على أن ثمة أسبابا أخرى بالطبع ، كالحرب العالمية الثانية ، وهزيمة الالمان لفرنسا ، وهبوط الامريكيين فى الأراضى الفرنسية بشــمال أفريقيا ٠٠ **فقد ذهل المراكشيون اذ تبينوا أن فرنسا لم تكن دوله كبرى قوية ، وانما كانت ضعيفة منقسمة على نفسها** ٠٠

وعنــدما ذهب الرئيس روزفلت الى « الدار البيضاء » ليحضر المؤتمر الذى عقد هناك فى أوائل سنة ١٩٤٣ ، دعا السلطان الى العشاء ٠٠ ويبدو أن هذا الاجتماع كان بداية تحول فى تفكـير السلطان ، كما كانت تلك هى المرة الأولى ـ منذ سنة ١٩١٢ ـ التى سمح فيها لسلطان بأن يقابل شخصية أجنبية كبيرة دون أن يرافقه مستشار فرنسى ! **ولما كان روزفلت يبغض الأسلوب الاستعمارى العتيق ، فقد صارح السلطان بأنه يرى أن من حق مراكش أن تحظى بالاســـتقلال فى الـــوقت المناسب** ٠٠ حتى اذا عاد الى أمريكا ، كتب له خطابا يقال انه ذيله بملاحظة بخط يده نصح فيه السلطان بأن يحرص عــلى أن يحفظ ثروة مراكش المعدنية من أى « مزيد » من الاستغلال الاجنبى !

ومنذ ذلك الوقت « فسد » السلطان كما يقول الفرنسيون ، وأصبحوا يتوقعون أن يغدو قوة مناوئة : ففى سنة ١٩٤٧ خطب السلطان فى (طنجه) معلنا أن مراكش تتمسك بكل حقوقهـا

---

(١) اذا كانت الأمانة فى التلخيص تدعونا الى نقل هذا الفصل ، الا اننا لا نقر ما جاء فيه على علاته ، بل نراه مليئا بالتحريف والتشويه المغرضين

كدولة تحت الحماية ٠٠ وفى سنة ١٩٥٠ زار باريس وطالب بمعاهدة جديدة مع فرنسا على أسس أفضل ٠ **وعزز صلة مراكش بالعالم العربى ، وطالب بكثير من الاصلاحات ، وتطلع الى الاستنجاد بالامم المتحدة ، ومن ثم اشتد التوتر فى مراكش٠** اذ كان الجنرال (المارشال حاليا) « الفونس بيير جوان » مقيما عاما خلال معظم تلك الفترة ، وكان متعنتا ، شديد التحمس لمصالح فرنسا ٠٠ فى حين ازداد نفوذ حزب الاستقلال ـ الذى أنشىء فى سنة ١٩٤٣ ـ وأصبح قوة تثير الرأى العام يوما بعد يوم ٠ ويقول الفرنسيون ان الشيوعيين تغلغلوا فى صفوفه بدرجة كبيرة ٠٠ وليس هناك ما يؤكد مدى ما فى هذا الزعم من صدق ، فان أعضاء حزب الاستقلال يصرون على انكار أى اتصال بالشيوعية !

الجلاوى ٠٠ مخلب الفرنسيين !

◆ **وما** لبث أن ظهر عامل قوى فى الميدان ٠٠ ذاك هو « الجلاوى » ، الذى كان دائما منحازا للفرنسيين : ففى أواخر سنة ١٩٥٠ زار السلطان غاضبا ، واتهمه بأنه المسئول عن القلاقل الوطنية التى قامت فى عدد من قرى البربر التابعة له ! ٠٠ وغضب السلطان بدوره فطرده ، **ويعزى اليه أنه قال له : « اخرج يا كلب » ! ٠٠ وانقطعت الصلات تماما بين السلطان والجلاوى ، ونشأ موقف استغله الفرنسيون لصالحهم !**

وفى فبراير سنة ١٩٥١ ، وقع حادث « جوان » المشهور ، اذ تقدم المقيم الفرنسى الى السلطان بطلبات ، منها أن يوقع بيانا يستنكر فيه أعمال حزب الاستقلال ، وهدده بالخلع ان لم يفعل! ثم حلت الأزمة بالتراضى ٠٠ وفى تلك الاثناء غادر فرسان « الجلاوى » من البربر معاقلهم ، وقاموا باستعراضات عسكرية خارج (فزان) و (الرباط) والمدن الاخرى ، تهديدا للسلطان! ٠٠ والواقع أنهم ما كانوا ليحفلوا بالسياسة وانما كانوا يطمعون

فى النهب والسلب ٠٠ على أن « الجلاوى » اضطر الى تسريحهم ، لأن باريس رفضت فى اللحظة الأخيرة أن تأخذ بخطة « جوان » التى كانت ترمى الى استغلال مظاهرة الجلاوى للتخلص من السلطان !

وتبعت ذلك اضطرابات ، وقلاقل ، واضرابات ، استمرت عاما ٠٠ ثم انتهت مدة خدمة المقيم الفرنسى « جوان » وخلفه « جيوم » ٠ وكانت الدول العربية تواصل فى تلك الأثناء جهودها لعرض المسألة المراكشية على الأمم المتحدة ، الأمر الذى قاومته فرنسا ٠٠ حتى كان نوفمبر سنة ١٩٥٢ ، اذ حان موعد خطاب العرش السنوى ــ وكان الفرنسيون قد ابتدعوا هذه العادة ليدعموا من هيبة المنصب السلطانى ! ــ واذ ذاك سلك السلطان فى خطابه مسلك الاعتدال ، فشكر لفرنسا ما فعلته من أجل مراكش ، ولكنه قال : **ان الوقت سيحين ولابد كى تتخلص مراكش من « ثياب الأطفال » !** ٠٠ ثم نشبت القلاقل العنيفة فى الدار البيضاء فى ٧ ديسمبر ، فبادر الفرنسيون الى حل حزب الاستقلال واعتباره خارجا على القانون ، وألقوا بألف وطنى ــ أو أكثر ــ فى غياهب السجون ! ٠٠ وكانت هذه بداية النهاية للسلطان ، اذ كان انهيار حزب الاستقلال انهيارا له !

لماذا لم تتدخل أمريكا لمنع خلع السلطان ؟

◆ **وكان** « الجلاوى » هو الذى قام بالانقلاب ، بينما كان « جيوم » متغيبا فى فرنسا فى عطلة قصيرة ــ ومن الجلى أنه لم يكن يتوقع متاعب خطيرة(١) ــ ومن القصص ما تقول ان الضباط والموظفين الفرنسيين المقيمين فى الرباط قد تآمروا من وراء ظهر « جيوم » ضد السلطان ٠٠ كما كان الفرنسيون الذين استوطنوا مراكش ضده ٠ وكذلك انقلب عليه الباشوات والقواد لتعاونه

---

(١) أو لعل الأمر كان مدبرا لاقصاء العنصر الفرنسى عن المؤامرة واظهارها بمظهر الانقلاب الداخلى !

مع الوطنيين ، سيما وأنهم كانوا حريصين على نفوذهم الاقطاعى ٠٠ ومن ثم جمع « الجلاوى » توقيعات معظمهم على التماس رفعه الى الحكومة الفرنسية « لخلع السلطان ! »

وبلغت الأزمة ذروتها فى أغسطس سنة ١٩٥٣ ، حين انحدر فرسان « الجلاوى » الى (فزان) و (الرباط) متعطشين للقتل، فطار « جيوم » عائدا الى مراكش ، وحاصر القصر بالقوات الفرنسية كي « يحمى ! » السلطان ، ثم استغل الموقف ليتقدم اليه بسلسلة جديدة من المطالب ، واستبعد ما كان السلطان يطالب به من اصلاحات ! ٠٠ ووافق السلطان الأعزل ، ولكن « الجلاوى » جمع ألفين من أعوانه ، وأعلن « خلع » السلطان !٠٠ ولم يدر الفرنسيون ما ينبغى أن يفعلوا ، وفى ١٥ أغسطس جرد العلماء ـ الذين جمعهم الجلاوى ـ السلطان من كافة سلطاته الروحية ، وقام الوطنيون باضطرابات للاحتجاج على ذلك ٠ وضاعف من تعقد الموقف حلول أهم أعياد المسلمين ٠٠ وانقسمت الحكومة الفرنسية على نفسها ، ثم سمحت ـ فى النهاية ـ بخلع السلطان ٠٠ وأقصى بطريق الجو الى كورسيكا !

وما أن خلع السلطان ، حتى أعلنت الحكومة الأمريكية للحكومة الفرنسية « استياءها الشديد » ! ٠٠ ولكن ، من ناحية أخرى ، لم تشأ وزارة الخارجية الأمريكية ان تثير متاعب « لاداعى لها ! » مع فرنسا ، مراعاة لمستقبل القواعد الجوية الأمريكية فى مراكش (١)

الأسد ٠٠ والرجل ٠٠ والحسناء !

◆ **ويتألف** شمال أفريقيا الفرنسى من ثلاث دول هى : مراكش ، والجزائر ، وتونس ٠ ولكل منها صفاتها الخاصة ،

---

(١) ولكن الشعب المراكشى لم يكف عن كفاحه ، ولم يكن فى حاجة الى أمريكا (اذ وقفت الى جواره الدول العربية ، والكتلة الافريقية الآسيوية) ٠٠ فعاد السلطان محمد الخامس الى عرشه ٠٠ وسجد « الجلاوى » عند قدميه مستغفرا !

حتى لقد قيل قديما ان مراكش أسد ، والجزائر رجل ، وتونس حسناء ! ٠٠ وقد احتل الفرنسيون الجزائر فى سنة ١٨٣٠ ، وتونس فى سنة ١٨٨١ ، ومراكش فى سنة ١٩١٢ ٠٠ وكانت لهم فى كل من الدول الثلاث سياسة خاصة : فتونس ومراكش محميتان ـ وان اختلف نظام الحماية فى كل منهما ـ أما الجزائر فاعتبرت جزءا من فرنسا ذاتها ! ٠٠ كذلك تختلف الدول الثلاث من الناحية القومية : فمراكش أكثر الثلاث تأخرا ، والجزائر أكثرها خضوعا ـ وان قام فيها تمرد صغير عنيف فى سنة ١٩٥٤ ـ فى حين أن تونس أكثرها تقدما ، كما أن الحركة الوطنية فى تونس أكثر علما ونضوجا منها فى مراكش ٠٠

والدول الثلاث جزء من العالم العربى ، ينحدر أهلها من العنصر « السامى » أو العنصر « الحامى » ، ويتكلمون العربية ، ويدينون بالاسلام ٠٠ وعدد سكانها معا ٢٠ مليون نسمة ،منهم ١٫٦٠٠٫٠٠٠ من الفرنسيين ، يقيم معظمهم فى الجزائر ٠

ولم تكن ثمة حدود معينة بين الدول الثلاث فى الماضى ٠وهى تعرف باسم « جزيرة المغرب »، ولكن الاوربيين اعتادوافىالعصر الحديث أن يعرفوها باسم « بلاد البربر » ٠ وقد كان ساحل البربر ـ أخطر مناطق القراصنة البربر فى الماضى ـ يمتد من (ساله) ، القريبة من (الرباط) ، محاذيا لساحل البحر الابيض المتوسط حتى ليبيا ٠ وكان سكان المغرب الأصليون من البربر، ثم تتابع عليها الفينيقيون ـ الذين انشأوا (قرطاجنة) فى تونس ـ فالاغريق ، فالرومان ، فالفاندال ، فالفرنجة ، فالبيزانطيون ، فالعرب ـ الذين غزوها مرتين ـ فالأتراك ، الذين لم يصلوا الى مراكش ، ثم البرتغاليون والأسبانيون والفرنسيون فى العصور الحديثة ٠٠ ومن ثم نرى فى شمال أفريقيا اليوم أربعة أنواع من السكان : (١) البربر وهم من العنصر الحامى ، (٢) الساميون ومنهم العرب واليهود ، (٣) الزنوج الذين جاءوا نتيجة ايغال العرب والبرابرة في غزو

الجنوب ، (٤) الاوربيون ـ ولست أقصد المستوطنين الحاليين منهم فحسب ، وانما أيضا سلالة الأوربيين الذين كان يعود بهم المراكشيون ـ المغاربة ـ كسبايا وعبيد من اغاراتهم فى البحر والبر ٠٠

ويخلق بنا أن نذكر أن شمال أفريقيا لا يمت الى افريقيا وحدها ، وانما يمت الى أوربا أيضا ، فان معظم الفرنسيين يعتبرون مراكش والجزائر وتونس امتدادا لفرنسا ذاتها ، سياسيا ، واقتصاديا ، وعاطفيا ، وعسكريا ٠ بل ان مراكش بالذات تعتبر غربية ، فهى تشرف على (جبل طارق) ويقترن تاريخها بتاريخ أسبانيا ، بحيث لا يمكن الفصل بينهما ٠٠ كذلك شمال أفريقيا يمت الى آسيا ،فان تأثيرات آسيوية تغلغلت هناك ، نذكر منها الاسلام ٠ ومن ثم يجب أن نبقى فى ذهننا أننا نعالج منطقة أفريقية ، وأوربية ، وآسيوية فى آن واحد !

مراكش المفتتة على مذبح الاستعمار !

وتنقسم مراكش الى ثلاثة أجزاء : المنطقة الفرنسية ، والمنطقة الأسبانية ، والمنطقة الدولية التى تشغل مدينة (طنجه) معظمها ٠٠ والمناطق الثلاث تؤلف الدولة الشريفية ٠ وتشغل مراكش الفرنسية ١٥٣٫٨٧٠ ميلا مربعا ، ويتراوح سكانها بين ٨ و ٩ ملايين من النسمات ، قد يبلغ عدد الفرنسيين منهم ٣٥٠٫٠٠٠ ، كما أن هناك نحو ٥٠٫٠٠٠ من غير الافريقيين ، معظمهم أسبانيون ٠٠ أما المنطقة الأسبانيةفمساحتها ١٨٫٠٠٩ أميال مربعة، وسكانها ١٫٠٨٢٫٠٠٠ نسمة٠وتبلغ مساحةطنجة ٢٢٥ ميلا مربعا ، وتقع وسط المنطقة الأسبانية ، وسكانهانحو ١٧٠٫٠٠٠ نسمة ٠

وهناك ثلاثة أمور تمتاز بها مراكش فى مجموعها :

أولا : أنها تواجه الغرب والشمال ٠٠ فهى تقع فى حوض المحيط الأطلسي وحوض البحر الأبيض المتوسط ٠

ثانيا : أنها على النقيض من معـــظم دول الشرق الأوسط وجنوبى البحر الأبيض ، لم يهزمها الأتراك ·

ثالثا : أنها أكثر الدول الاسلامية مقاومة للتطور السريع فهى متأخرة عن دولة مثل لبنان بأربعين سنة ، أو أكثر (١)

رابعا :ومراكش أكثر من الجزائر وتونس اتصالا بأسبانيا ·· سيما وأن المراكشيين والعرب احتلوا أسبانيا لأكثر من ٧٠٠ سنة ·· ولا يزال أثر الاسبانيين فى حضارة مراكش ، وأثر المراكشيين فى حضارة أسبانيا ، ظاهرين الى اليوم !

ومن المعلومات الخاطئة عن مراكش أنها من دول المنطقة الحارة ·· فمع أن المرء يستطيع أن يشوى البيضة فى رمال الصحراء - جنوبى (موجادير) - فى الصيف ، الا أن « الجليد » عزل فى سنة ١٩٥٤ مناطق بأسرها منها ، لعدة أسابيع ! ·· فهى كمـا قال المارشال « ليوتى » : « مراكش بلاد باردة ذات شـمس حامية » ! ·· ففيها ثلاث سلاسل من جبـال أطلس : أطلس العليا ، والوسطى ، والداخلية ، ويصل ارتفاع بعض قممهـا الى ١٢٠٠٠ قدم ! ··وهى تفصل مراكش عن بقية أفريقيا ، وقد ساعدت كثيرا على عزلها عن القارة · وتظل هذه الجبال -جنوبى مدينة مراكش - مغطاة بالجليد معظم أيام العام !

السلطان الذى تزوج من ٥٤٩ زوجة ، عدا الجوارى !

◆ **فى** القرن الثامن الميلادى ،بدأت أجزاء من الدولة العربية فى الانفصال عنها ·· فقام حاكم ثائر من أهل مراكش - فى عام ٧٨٨ - بتخليص بلاده من التبعية للدولة العربية ، وأقام ملكا ظل أبناؤه يتوارثونه زهاء ١٢٠٠ سنة · ويقال ان هذا الحاكم مات مسموما بعطر أرسله اليه هارون الرشيد ! ·· وكانت أول عاصمة للدولة هى المـــدينة الرومانية (فوليو بوليس) ، ثم أصبحت (فزان) العاصمة فى سنة ٨٠٨ · واتسمت القـرون

(١) يلاحظ أن هذه المدة هى بالذات عمر الاستعمار الفرنسى فى مراكش !

التالية بالمؤامرات والدسائس ٠٠ ويعتز أبناء مراكش الوطنيون بماضى بلادهم ، ويشبهون حضارة أجدادهم بحضارة « المغول » فى الهند ٠ وقد ظلت (فزان) مركزا للعلم على مر القرون ،ولكن المراكشيين القدماء لم يخلفوا آثارا قائمة ، اذ أنهم يميلون للهدم واعادة البناء ٠٠

وكان من أبرز سلاطينهم شخصية وذكرا، « مولاى اسماعيل» الذى ظل فى الحكم ٥٥ عاما ــ بين سنتى ١٦٧٢ و ١٧٢٧ ــ وكان معاصرا للويس الرابع عشر ملك فرنسا ــ وقد أراد أن يتزوج من احدى بناته ! ــ وكان وحشا فظيعا ، شرع فى بناء قاعدة لحكمه فى (مكناس) تفوق (فرساى) ، حتى أن حظائر الخيل الملكية كانت تمتد ثلاثة أميال وتضم ١٢٠٠٠ جواد ، وكان العبيد الذين سخروا فى البناء يدفنون داخل الجدران اذا ارتكبوا ما يغضبه ! ٠٠ وقد أثار بأعماله اهتماما خارج مراكش ، حتى أن لويس الرابع عشر أوفد سفيرا ليتحرى صحة الأنباء، فأكدها له ٠٠ ومما ذكره أن السلطان رزق بواحد وثلاثين طفلا فى ستة أسابيع ! ٠٠ وأنه استقبل هذا السفير يوما ويداه ملطختان بالدماء حتى مرفقيه ، بعد أن أطاح برؤوس عدد من عبيده ! ويقال انه كان متزوجا من ٥٤٩ زوجة ، عدا الآلاف من الجوارى ٠٠ بحيث كان يندر أن يقرب امرأة مرتين ! ٠٠ وقد عاش من أولاده ٨٦٧ ، وقتلت مئات من بناته عند مولدهن! وقداستجلب عددا كبيرا من زنوج الصحراء الكبرى، وزوجهم من مراكشيات، لينجب حرسا خاصا للسلطان ، ما زالت بعض سلالاته قائمة ٠ وكان يقتنى مئات الألوف من العبيد ، منهم ٢٥٠٠٠ من الأسرى الاوربيين ٠ ويقال انه قتل ٣٦٠٠٠ نفس بيده ! ٠٠ وكان اذا ارتدى ثوبا أصفر ، أدرك الجميع أن كل من يصادفه لابد مقتول! ٠٠ على أنه كان ــ رغم ذلك ــ محاربا باسلا ، واداريا ماهرا ، وحد معظم مراكش وسار بها الى الطمأنينة والرخاء ٠٠ وقد

حاول مرة أن يقنع جيمس الثانى ـ ملك انجلترا ـ باعتناق الاسلام !

الذئاب تتقاسم الفرائس !

◆ **وقد** وقعت مراكش فى قبضة الاستعمار فى أوائل القرن الحالى ، اذ اتفقت فرنسا وانجلترا على أن تطلق الثانية يدالأولى فى مراكش ، مقابل أن تستبيح لنفسها مصر !وساهمت أسبانيا بدور فى هذه المناورة ، كما ساهم القيصر ولهيلم الألمانى ، اذ طالب بنصيب فى مراكش ، فعمدت فرنسا ـ بمعونة انجلترا ـ الى ارضائه بأن أقطعته منطقة من افريقيا الاستوائية الفرنسية .. ثم انتهزت فرصة القلاقل الداخلية فى مراكش ، فسارت بقواتها الى (فزان) فى سنة ١٩١٢ .. وكانت هذه بداية « الحماية » . ولولا الضغط الألمانى، ثم الجشع الذى جعل ألمانيا تقبل الرشوة ، لما استطاعت فرنسا الى هذا العمل سبيلا .

(والرباط) هي عاصمة مراكش . ويبلغ عدد سكانها ٤١٧ر١٦١ نسمة . وهى مركز الحكومة ، ففيها مقر المقيم العام والقصر السلطانى ، وبها شوارع بديعة واسعة ، و « فيلات » أنيقة تحيط بها حدائق يانعة . وليس لها من سحر القدم والعراقة اللذين تتسم بهما (فزان) سوى قسط ضئيل . ولكنها مدينة مليئة بالمتناقضات الصارخة : ففيها ترى الجنود الأمريكيين يخطرون فى الشوارع عينها التى تسير فيها النساء المسلمات المحجبات من قمة الرأس حتى أخمص القدم !



ويسيطر على الرباط اليوم جو متوتر، كئيب (١): فالعرب

(١) كانت زيارة « جونتر » عقب خلع محمد الخامس وتنصيب ابن عرفة

ممنوعون من التجمهر فى الشوارع ، ولو فى جماعات تضم كل منها اثنين أو ثلاثة ! ٠٠ والبوليس يراقب كل فرد ، ويتعرض الزائرون الامريكيون لأن تصادر أوراقهم وتفحص ٠٠ ولم أوفق أبدا الى مقابلة فرد واحد من المبرزين فى الحركة الوطنية ، فى الرباط ، اذ كانوا جميعا فى السجون !

ولمدينة (الرباط) أخت عبر نهر (بورجرج) الهزيل ٠٠ تلك هى (ساله) ، وهى منطقة مراكشية بحتة ، من مراكز المثقفين المسلمين ذوى الأفكار الحديثة ، وكانت فيما مضى مقرا للقراصنة ، وقد سجن فيها «سرفانتس»(١) يوما ٠ وهناك قول سائر : ان (الرباط) و (ساله) لن تتهادنا حتى تتحول الرمال الى عنب ، والنهر الى لبن !

كازابلانكا ٠٠ جنة مراكش !

◆ **واذا** شبهنا (الرباط) بواشنطن ، فان (الدار البيضاء) – كازابلانكا – تشبه مدينة نيويورك ٠٠ اذ ان هذه المدينة التى تنمو باطراد سريع – والتى يبلغ عدد سكانها ٦٠٠ر٠٠٠ نسمة – هى القلب التجارى والمالى والصناعى للبلاد ٠ ولقد كانت الدار البيضاء منذ أربعين عاما مجموعة من أكواخ صيادى السمك ، أما اليوم فما أشبهها بريو دى جانيرو – عاصمة البرازيل – أو ميامى ، عروس شاطئ فلوريدا ، ببناياتها البيضاء ، التى يتلألأ الزجاج فيها ، وتبرز منها الشرفات الحديثة ٠٠ وقد يدهشك ان تعلم أنها أصبحت رابع الموانئ « الفرنسية! » ، وفاق مقدار الصادرات والواردات التى مرت بها فى العام الماضى ، ما مر بمرسيليا ! **وفى الدار البيضاء فنادق دولية ، ومشارب كبيرة ، ومطاعم تتبع كبرى المطاعم الباريسية ٠٠ وفى الوقت نفسه تجد فى ضواحيها مدينة فقيرة تعسة للبدو! ٠٠ ومن أبرز معالم الدار البيضاء منطقة (بوصبير) ، وهى مدينة داخل المدينة ، بل هى**

---

(١) الروائي الاسبانى الذى ألف رواية « دون كيشوت »

أكبر حي للبغاء فى العالم ، اذ تضم ١١٫٠٠٠ من البغايا المسجلات لدى الحكومة (اى يحملن تراخيص !) معظمهن مراكشيات ، وان كانت الباقيات يمثلن كل جنسية ، وكل عمر ٠٠ ومعظم الفتيات اللائى يفدن على (بوصبير) يعملن بعقد لمدة ستة أشهر ، ريثما يجمعن نفقات زواجهن ، ثم يعدن الى مواطنهن فى التلال !

ومراكش هى الدولة الوحيدة التى لا تزال الولايات المتحدة تحظى فيها بامتيازات اجنبية ، نص عليها فى معاهدة بين السلطان والرئيس الامريكى « اندرو جاكسون » فى سنة ١٨٣٦ ٠٠ وبمقتضاها لا يخضع الامريكى المقيم هناك للقضاء المحلى ٠ اما البريطانيون والاسبانيون فقد نزلوا عن امتيازاتهم منذ زمن بعيد ٠٠

وفى ديسمبر سنة ١٩٥٢ قامت اضطرابات فى الدار البيضاء بين المراكشيين والفرنسيين ٠ وانبعثت الشرارة من مصرع « فرحات حشاد » ـ الزعيم الوطنى التونسى ـ الذى أغتيل فى ٥ ديسمبر فى تونس ، فاذا مراكش تعلن الحداد والاضراب العام لمدة يوم ٠٠ وما كان الانفجار منتظرا لولا ان السلطات حاولت قمع الاضراب ، واعتقل البوليس فى ٧ ديسمبر الزعماء الوطنيين فى الحى العربى ، فدارت معركة كان سلاح العرب فيها الخناجر ٠٠ وقتل سبعة فرنسيين ، اما قتلى العرب فلم يعرف عددهم ، اذ اعتاد العرب أن يسارعوا الى اخفاء جثث قتلاهم لدفنها سرا ٠ وقد هز ذلك الحادث باريس ، واحتج اليساريون واليمينيون ، والقيت المسئولية على الفرنسيين المقيمين هناك ٠٠

٨ آلاف أسرة من اسبانيا

◆ **أما** (فزان) فهى مدينة تستهوى أصحاب الخيال ، وهواة الغموض ٠٠ ففيها يقيم ٢٠٢٫٠٠٠ شخص ، فى واد منعزل ٠ وهى العاصمة الفكرية والروحية والفنية لمراكش ، وتتخللها الأسوار العالية القاتمة ، كما ان أكثر شوارعها ضيقة لا تتسع

للسيارات ٠٠ بل ان شـــوارعها ردهات ودرجات تكونت من القاذورات ! ٠٠ وتضم سوقها الضيقة كل سلعة تخطر بالبال ٠٠ ومن اغرب معالمها : بوابة ذات قضبان مشرعة كانت رؤوس المجرمين تعلق عليها ٠٠ ومنطقة حرام لا يستطيع أحـــد ــ ولا السلطان نفســه ــ أن يتبع عدوه اليها ٠٠ ومسجد القيروان الذى تتصل به جامعة من أشهر جامعات العالم الاسلامى ٠٠ وليس بين طلبتها ــ وعددهم الفان ــ ســوى اربع أناث !

ولقد حدث فى العصور الوسطى أن هربت ثمانى آلاف أسرة أسبانية من (قرطبة) واستقرت فى (فزان) ، ومن ثم نرى فى المدينة آثار الطبائع الاندلسية واضحة ، كمـا نلمس نفـوذ اليهود الذين وفدوا هم الآخرون من اسبانيا ، والذين تجرى دماؤهم فى عروق كثير من الموسرين فى فزان ٠ وتعتبر المدينة موطن أرقى اسرات الطبقة الوسطى ، فهى لذلك مدينة غنية ٠٠ وهى من أهم معاقل الحركة الوطنيه ، حتى لقد اغلقت متاجرها واحتل المدينـــة ٢٥٠٠ جندى من الفرقه الاجنبيـــة ، عقب الاضطرابات التى حدثت فى اغسطس سنة ١٩٥٤ ٠٠ وقد قال لى ضابط فرنسى : « ان هذه المدينة لا تشبه مدينة (مراكش) ، فهنا تبدو الكراهية لنا ٠٠ حتى فى العيون ! »

مدينة مراكش ٠٠ (أشبيلية) افريقيا !

◆ **وفزان** قطعة من اوربا ، ولكنها مغلقة معزولة ، اما مدينة مراكش فقطعة من افريقيا مفتوحة ، مكشوفة ٠٠ وهى أعظـــم سوق لقبائل الصحراء الشمالية الغربية ، ثم هى ــ فى ظلال جبال اطلس ــ بستان زاهر ، فيه اشجار البرتقال ، وفيه الورود والنخيل ٠٠ **وهى اكبر مدن القطر المراكشى بعد (الدار البيضاء)، اذ يبلغ سكانها ٢٣٧ر٢٣٨ نسمة ٠ ويرجع تاريخها الى سنة ١٠٦٢ ٠ وهى تشبه (أشبيلية) ــ فى اسبانيا ــ وقد رسمهما مهندس واحد !٠٠ ومن ابرز معالمها قصر « الجلاوى » ٠ بيد ان**

اغرب ما استرعى انتباهى فيها ، هو انها ذكرتنى بروسيا ٠٠ كما أن بيوت العرب - او البربر - الخالية من الاثاث ، ذكرتنى باليابان ٠ على انها فى مجموعها ذات طابع افريقى ٠ وما رأيت قط اناسا تباينت الوان ازيائهم وتعددت ، مثل اهلها : فمن الطوارق ، باقنعتهم الزرقاء الكالحة ، الى السنغاليين الذين فى سواد الليل ، ومن جلود بلون خشب « الماهوجنى » ، الى اخرى بلون البرونز ، وغيرها بلون الشيكولاته ، أو لون اصفر مشوب بالسمرة الخ ٠٠ ويفد اليها رجال القبائل بالصوف والماعز ، ليعودوا منها بالسكر والتوابل والثياب ذات الالوان الزاهية ٠٠ وقد رأيت فيها جوادا ابيض يقفز متراقصا للاعلان عن أكوام - معدة للبيع - من لحم الابل ، ومن النعال (الشباشب) الجلدية الموشاة بخيوط من القصب وخيوط زرقاء ٠٠

ومن أروع المناظر هناك ، مساحة كبيرة تعرف باسم (جامع الفناء) ٠ وهى ليست موطنا للموت - كما يوحى الاسم - وانما هى تحفل بالحياة ، اذ هى سوق وساحة لعرض الابل والخيل والالعاب التى تسلى القوم ٠٠ وابدع وقت لزيارة هذه البقعة هو ما بعد غروب الشمس ، اذ تقام مشاعل صغيرة يعرض على أضوائها الحواة واكلة النار العابهم ، كما يكتب على نورها الكتبة العموميون ما يمليه عليهم اصحاب الحاجات ٠

ويسود مراكش جو شاعرى ، يغرى المرء بنسيان الذكريات الاليمة ، كالتيفوس الذى تفشى فى سنة ١٩٣٧ ففتك بحوالى ٢٥ر٠٠٠ نسمة ٠٠ وقد اقيم فيها أخيرا « كازينو » توفرت فيه احدث اسباب اللهو الباريسية ، لا سيما ألعاب الميسر ٠

ثروة معدنية ٠٠ وخصوبة فى النسل !

◆ **وقد** تتساءل : ما اسس الاقتصاد المراكشى ؟ كيف تعيش البلاد ؟

ان جزءا من الجواب يتمثل فى الثروة المعدنية ، فهناك حركة

مطردة الاتساع لاستغلال المناجم على مقربة من (اوجدا) — سادسة مدن مراكش — حيث تلعب رؤوس الاموال الامريكية دورا كبيرا فى استخراج الزنك والرصاص ۰۰ **ولقد ارتفع المستخرج من «المنجنيز» من ۸۰٫۰۰۰ طن فى سنة ۱۹۳۸ الى ۴۲٦٫۰۰۰ فى سنة ۱۹۵۲ ۰ ومن المعادن ما له قيمة حربية كالكوبالت ۰ ثم ان مراكش ثانية الموارد الكبرى للفوسفات فى العالم !۰۰ والميزان التجارى لمراكش يميل فى غير صالح البلاد، أى أن الواردات أكثر من الصادرات ۰ وفرنسا هى خير عميل للبلاد ، ولكن الولايات المتحدة تزداد أهمية عاما بعد آخر ۰ وقد بلغ نصيب مراكش من المعونة الامريكية فى آخر سنة لمشروع مارشال مبلغ ۷٦ مليونا من الدولارات !**

وللكهرباء المتولدة من مساقط المياه مستقبل عظيم فى مراكش ، اذ تقام فيها خزانات كبيرة ۰ وهناك سباق هائل على المياه ، فرجال الصناعة يريدونها لتوفير الكهرباء فى المدن ، ورجال الزراعة يبغونها للرى ۰۰ ولا تزال الزراعة المورد الاول للدخل القومى ۰

ومن المشكلات الملحة ، ارتفاع معدل المواليد ، وبالتالى تدبير الغذاء فى المستقبل للسكان المتزايدين ۰ وقد كان عدد سكان مراكش ۳٫٤۰۰٫۰۰۰ فى سنة ۱۹۲۱ ، فأصبحوا الآن يزيدون على ۸ ملايين ۰۰ وكأنما تحولت الخصوبة من الارض الى الناس !

القسوة ۰۰ والشذوذ الجنسى !

◆ **يعيش** ثلث عرب العالم فى شمال افريقيا ۰ وفى المناطق الفرنسية وحدها ۲۴۷ قبيلة عربية متباينة ۰۰ فلنتبين نواحى الشخصية العربية فيهم : لعل الجنود الامريكيين الذين خدموا فى شمال افريقيا خلال الحرب الماضية يذكرون الكتيبات التى كان الجيش يوزعها عليهم لتعرفهم بعادات اهالى تلك البلاد ۰۰ فمما جاء فيها : لا يحب صبية العرب أن يتصارعوا بالايدى ۰۰

والعرب سريعو الانفعال لرؤية الدم ، ولا يغتسلون قط فى ماء راكد ٠٠ ويجب على الجندى الامريكى الا يعاكس نساء العرب ، او يحاول ان يستشف ما وراء الحجب المسدلة على وجوههن ٠٠ ولا ان يدعو العرب الى الشراب ، أو يخلع ثيابه على مقربة من العرب ، الخ ٠!

والعرب يدخنون ، ومع ان المشروبات الروحية محرمة على المسلمين ، الا ان هذه القاعدة كثيرا ما تنتهك، سيما فى المدن ٠٠ والواقع ان عدم اقبال العرب على الخمور ،ادى الى رواج المشروبات المرطبه الامريكية ـ كالكوكا كولا ـ فى شمال أفريقيا

وأسوأ خلتين فى عرب مراكش هما : القسوة ، والشذوذ الجنسى ٠٠ ولهذا الشذوذ سبب قوى ، هو قلة النساء هناك : أولا، لان زواج المسلم بأربع أدى الى نقص عدد النساء(١) وثانيا: لان الاختلاط ممنوع بين الشبان وبنات الاوساط التى يعيشون فيها ٠٠ ومن ثم يلتمس الشاب العربى منفذا لعواطفه الجنسية لدى البغايا أو أفراد جنسه ٠

والعرب مولعون بالهوى والتشبيب ، ذهنيا وجسديا ٠٠ وقد صادرت السلطات فى (فزان) منذ عهد قريب تقويما فنيا ، لما ورد فيه من عبارات غزل عربية ، اخذت عن الشعر القديم ٠٠ حتى الامثلة والحكم العادية تحتوى على غزل ، ومن ذلك : « ما اخترع الحرير الا لتبدو النساء عرايا وهن كاسيات ! » ٠٠ حتى الفن العربى ـ الذى يعتبر من اسس الحضارة العربية ـ نجد وحدة الزخرفة فيه على شكل حوض الانثى المجوف (٢) !

واللباس الرئيسى للرجال هو «الجلابه» ـ وهى جلباب ذو

---

(١) تعليل غريب ، افترض فيه الكاتب أن من المحتوم على المسلم أن يتزوج من اربع ! أما الشذوذ الجنسى ، فحتى اذا صح ماقاله الكاتب ، فانه ظاهرة لاتقتصر على عرب المغرب ، والاحصاءات الأخيرة تثبت تفشيه فى أمريكا نفسها ، رغم اباحة اختلاط الجنسين !

(٢) مبالغة في التجني يستطيع القارىء أن يلمس فيها التحامل المفرض واضحا٠

قلنسوة – وتكون رطبة خفيفة اذا كان الجو دافئا ، ودافئة اذا كان الجو باردا ٠ كما انها تصد الغبار والرمل ، وتكون سترة ، وقبعة ، ورداء ، ومعطفا ، وغطاء ، و « بيجاما » فى آن واحد ! واحيانا يلبس فوقها « برنس » ٠٠ **ومن شكل عمامة الرجل تستطيع أن تعرف مكانته الاجتماعية ، وقبيلته ، ومهنته ٠٠وفى المدن – مثل طنجه والجـــزائر – كثيرا ما نرى تحت اللباس الخارجى للمرأة ، الذى يخفى كل جسمها تقريبا ، ثوبا من أحدث ما انتج « كريستيان ديور » !**

ومعظم العرب ديموقراطيون بفطرتهم وميولهم الشخصية ، ولهم ولاء متطرف نحو اصدقائهم وبنى جنسهم٠٠ وهمقدريون، ومن العبارات التى لاتنى تسمعها فى أحاديثهم : « ان شاء الله » و « باذن الله » ٠٠

والمراكشيون المحافظون على القـــديم فى المدن ، مغرمون بالتصوف ، ولكنهم قليلو الميل الى العلوم الغربيةوالتفكيرالمنظم، ولا يبدون من الشغف بالادب الاجنبى الا قليلا ٠٠ على انهم فى ميادينهم الفكرية ذوو عقول مرهفة ٠٠ ولا يقوم الاغنياء منهـم بعمل، بل يعيشون على الارض، ولا ينصرفون لغير شهواتهم!٠٠ ولقد انبأنا موظف فرنسى بان من المستحيل ان تعد مراكشـيا ليكون محاميا او مهندسا ٠٠ وهذا فى الواقع هراء ، فلئن كان عدد المحامين أو أصحاب المهن المراكشيين قليلا فى مراكش ، فما دلك الا لان التعليم هناك عانى مرارة « الجوع » الفظيع على أيدى الادارة الحاكمة الفرنسية !

سياسة « فرق تسد » !

◆ **وليست** حضارة العرب فى مراكش سوى قشرةعلى أساس بربرى ٠٠ فان البرابرة – أو البربر – هم السكان الاصـليون للبلاد ٠٠ وقد اختلط البربر بالعرب على مر القرون ٠٠ على أن فى مراكش ثلاثة ملايين من البربر الخالصين ، مقسمين على٣٧٥ قبيلة أو عشيرة ٠ وهم فى الغالب أبيض بشرة من العـــرب ،

ولبعضهم عيون زرقاء !٠٠ وهم مسلمون ، ولكنهم لا يتمسكون كثيرا باصول الدين ٠ ولهم لغتهم التى تختلف تماما عن العربية ـ وان كان بينهم من يعرفون هذه الاخيرة ـ بيد انها لا توجد فى شكل كتابى ، أى ليست لها حروف كتابية ، ومن ثم لا نجد للبربر سجلات تاريخية ولا أدبا !

والعرب عادة يقطنون المدن ، او يتنقلون بين ارجاء الريف ، اما البربر فيستقرون فى الجبال ٠ ومن ثم نجد العرب ـ عامة ـ أفضل تعلما ، وأحدث فكرا ، واكثر قومية من البربر ٠ وقد استطاع حزب الاستقلال ان يتغلغل ـ ولكن الى درجة غير كبيرة ـ بين بربر الجنوب ٠ ويتبادل العرب والبربر الكراهية ٠٠ وقد ظل البربر قرونا يقاومون حكم الاشراف من سلاطين (فزان) ٠٠ وكان تمردهم على العرب من أسباب تدخل فرنسا فى سنة ١٩١٢ ٠٠ **ويفضل الفرنسيون البربر على العرب تفضيلا مطلقا ٠٠ ولا تقل نسبة البربر بين الجنود المراكشيين فى الجيش الفرنسى عن ٨٠ فى المائة ٠ وقد ظلت سياسة فرنسا الاساسية فى مراكش منذ سنوات ، تقوم على اثارة العرب ضد البربر ، والبربر ضد العرب ٠٠ تنفيذا لمبدأ « فرق تسد » !**

وأصل البربر محوط بالغموض ٠٠ فهناك نظرية تقول انهم من « الكلت » الذين انحدروا الى افريقيا من اسبانيا من آلاف السنين ٠٠ ونظرية اخرى تقول انهم من الفينيقيين ٠٠ واسم « البربر » اغريقى معناه « الاجانب » ٠

وتوجد فى شمال افريقيا جالية يهودية تزيد على نصف مليون ، معظمهم فى مراكش ٠٠ والحى اليهودى فى أية مدينة مراكشية يسمى حى « الملة » (١)

ويتولى اليهود الاعمال المصرفية واقراض النقود ، وهى أعمال

---

(١) المعروف أن الاسلام يسمى المسيحيين واليهود أهل الملة ، ولكن « جنتر » يزعم أن كلمة « ملة » مشتقة من « ملح » لان اليهود كانوا يملحون رؤوس الأعداء الذين يقتلهم السلاطين !

لا يستطيع العرب القيام بها ، لان الاسلام يحرم عليهم الربا . أما من الناحية السياسية ، فان اغنياء اليهود موالون لفرنسا .. على انهم لم ينسوا قط ان حكومة فيشي – التى اقامها الالمان فى فرنسا اثناء الحرب – قست فى معاملتهم ، ومن ثم فهم يسعون لمزيد من الضمان لسلامتهم .. وقد عرفوا بانهم « محمية داخل المحمية » . على انهم لا يستمتعون بالرعوية فى مراكش ،ولذلك فهم مبعدون – فى الغالب – عن المناصب الحكومية .. على انهم يخضعون لاحكام الشريعة الاسلامية ، اللهم الا فى (طنجه) . ويرقب كثير من يهود مراكش قيام الحركة القومية العربية فى قلق ، وقد شرع كثير منهم فى الهجرة الى اسرائيل .

الغرام والزواج فى مراكش

◆ والعرب فى مراكش شديدو الغيرة ، فليس لاى ذكر – عدا الزوج – فى الاسرات المحافظة ان يرى وجه الزوجة .. وليس للتعارف الذى ينشأ بين الشاب والفتاة قبل الزواج وجود ، وانما تتولى اسرتاهما المفاوضات لزواج الاثنين ، قبل الزفاف بأمد طويل .. ووالد « العريس » هو الذى يقوم عادة بالتحرى عن الفتيات اللائى يلقن بابنه ، فاذا ما اهتدى الى واحدة ، اتصل بابيها .. وتدور بعد ذلك مباحثات مالية ، ثم تدفع اسرة الشاب لاسرة العروس الصداق المتفق عليه .. وقد تمتد فترة الخطبة شهورا ، تسعى العروس خلالها للحصول على أكبر قدر من السمنة !.. ولا يسمح لها بالابتسام اثناء الاجراءات السابقة على القران مباشرة ، والا فسر ابتهاجها بان ماضيها لم يكن نظيفا !.. وقبل الزفاف يغسل جسمها ويعطر ، وتصبغ يداها وقدماها بالحناء ، ويزال كل الشعر عن جسدها .. اما « العريس » فيحلق شعر رأسه !

واذا لم يحب « العريس » عروسه فى ليلة الزفاف ، فله ان يهجر مضجعها ، وفى هذه الحالة يسترد ابوه معظم « الثمن » .. والطلاق مباح ، لايكلف الزوج اكثر من ان يذهب الى محكمة « الباشا » فيلقى باليمين ، ويدفع ٧٠٠ فرنك ، اى حوالى ٧٠ قرشا .. كما ان فى وسعه ان يتخذ زوجات اخريات او جوارى .. اما الزوجة فلا تملك ان تطلقه .. انها دنيا يتحكم فيها الرجـــل !.. ويرحب القوم بانجاب الذكور ، اما اذ ولدت لرجل ابنة ، فان اصدقاءه يعمـــدون الى « تعزيته » ! .. فالمرأة هناك : لا شيء !.. كذلك للمسلم أن يتزوج من يهودية أو مسيحية ، اما المسلمة فليس لها ان تتزوج الا مسلما .. ويتبع الابناء دين ابيهم .

على أن تعدد الزوجات لم يعد شائعا فى شمال افريقيا ، أولا : لأن الزواج يكلف مالا ، والزوجات يتطلبن انفاقا ٠٠ وثانيا : بسبب الحب ، فالرجل قد يغرم بزوجته - وان لم يكن قد رآها قبل الزواج - فلا يعود راغبا فى الزواج من أخرى ٠٠ وثالثا : ان على المسلم أن يعدل بين زوجاته ، كما أن الغيرة بينهن تثير فى البيت مشاحنات ومعارك !

وعلى كل حال ، فان العوامل الحافزة على تحرير المرأة تقوى وتشتد ٠٠ وقد بدأت ربقة الحجاب فى الزوال ٠٠ وعدد البنات فى المدارس فى ازدياد !

ضربتان فى الرأس !

◆ فى غداة سقوط (ديان بيان فو) - فى الهند الصينية - اقيل الجنرال جيوم ، وعين فى منصب المقيم العام دبلوماسى مدنى يدعى «فرانسيس لاكوست»٠ على أن الاضطرابات كانت منذ خلع محمد الخامس فى اشتداد ، وازداد نشاط الحركة الوطنية ، ولم تؤد أعمال القمع الفرنسية الا الى استفحال الحال ، حتى غدت البلاد مهددة بحرب اهلية ٠٠ وكان تدهور موقف فرنسا فى الهند الصينية لا يسمح لها بمواجهة متاعب فى أى مكان آخر

و « جيوم » من أقوى الضباط الفرنسيين الكبار الذين عرفتهم ٠٠ وهو يكره الوطنيين المراكشيين الى درجة جعلته يرى ان اى شخص يتعامل معهم يصبح عدوا لفرنسا ٠٠ وكان هذا سبب فقدانه منصبه ، فقد كان على فرنسا - رضيت أو كرهت - أن تعامل الوطنيين كقوة شرعية فى البلاد

أما « لاكوست » - خليفة « جيوم » - فديبلوماسى عريق الخبرة ٠٠ وهو فى نهاية العقد الرابع من عمره ، وعلى معرفة طيبة بمراكش ، اذ قضى فيها ثلاث سنوات مندوبا لوزارة الخارجية الفرنسية لدى الجنرال « جوان » ، فكان بذلك كبير مستشاريه ٠٠ على أن « جوان » والفرنسيين الذين استوطنوا مراكش لم يكونوا عنه راضين ٠ وليس معنى هذا انه متحمس للحرية الى درجة انه سيبادر الى اتاحتها لمراكش ٠٠ وانما هو يدرك ان فرض القوة لن يكفى وحده لحل المشكلة المراكشية ٠ وهو عاشر مقيم عام لفرنسا ، ومنصبه أرقى مايطمع فى الوصول اليه اى دبلوماسى فرنسى ٠٠

الفرنسيون الذين استوطنوا مراكش

◆ ليست مشكلة «المستوطنين البيض» قاصرة على مراكش وحدها ، بل ان التوتر السياسى يشتد أينما اشتد نفوذهم ، كما فى (كينيا) ٠٠ والسبب بسيط ، فان الافريقيين يكرهون أن ينتزع منهم البيض أراضيهم ، مهما تكن التحسينات والاصلاحات العامة التى تترتب على وجودهم ٠٠ وفى مراكش يملك ٥ آلاف من المستوطنين ١٠ فى المائة من الاراضى الصالحة للزراعة ، ويملك عشرات الآلاف منهم أراضى أخرى ، فى حين ان مئات الآلاف من المراكشيين لا

يملكون أراضى على الاطلاق ! ٠٠ فاختلاط المستوطنين بالفلاحين المراكشيين واستغلالهم اياهم كفيلان باشعال النار !

وأصحاب الحرف والمهن من الفرنسيين يحتكرون الخدمات هناك ٠٠ كما ان الوظائف الحكومية وقف عليهم ٠٠ ومن المشكلات ان فرنسا تريد أن تمنح هؤلاء جميعا حق الانتخاب اذا سمحت بقيام دستور فى مراكش ، بينما يقوم الوطنيون هذه النية فى عنف !

وللمستوطنين نفوذ قوى فى باريس ، لا سيما فى الجمعية الوطنية ، وقد ظلوا على مر الأعوام يسيطرون على منصب المقيم العام بحكم مصالحهم المحلية ، وبالضغط السياسى على وزارة الخارجية الفرنسية ٠٠ ومن أغرب الأمور انهم يفكرون - خلال الأزمات - فى التمرد على حكومة باريس ، وانشاء جمهورية لهم فى مراكش !! ٠٠ وقد قال لى واحد منهم: « اذا ترك جنودنا مراكش يوما ، فلن يطلع اليوم التالى على أية أسرة فرنسية هنا الا وأفرادها جميعا قتلى » !

فارق اللون فى مراكش

◆ ولا يوجد فى مراكش تفريق فى المعاملة بسبب اللون - من الوجهة الرسمية - لسببين : أولهما ان العرب والبربر بيض اللون ، والسبب الثانى مبدأ المساواة ٠٠ على ان كافة الاضطهادات الشنيعة تمارس - بصفة « غير رسمية » - ضد المراكشيين ، لا سيما فى الميادين الاقتصادية وفى التعليم ٠٠ أما فى الميدان الاجتماعى ، فيقول الفرنسيون انهم يقيمون وزنا للفارق الثقافى، فاذا كان المراكشى غنيا ، ذا مكانة ،وعلى درجة ثقافية مقبولة ، سمح له بالاختلاط بالمجتمع الفرنسى ٠٠ على ان الأمر يختلف فى باريس ، فان اختلاط الطلبة الملونين بالفرنسيين يلقى تشجيعا ٠ بل ان الطالب المراكشى الذى يقتصر على صحبة مواطنيه يعتبر خطرا ! ٠٠ ذلك لأن الفرنسيين يأملون أن يجعلوا من كل متعلم مراكشى فرنسيا ! ٠٠ والفرنسيون يصفون المراكشيين على العموم ، بأنهم أبناء « العنصر القذر »

مطالب الحركة الوطنية المراكشية

◆ من أهم المسائل التى تثير السخائم فى نفوس المراكشيين ضد فرنسا :

أولا : ان لا وجود فى مراكش لحكومة مسئولة ، أى وزارة وهيئة تشريعية مسئولتان بكيفية ما امام الشعب ٠٠ على العكس مما هو حادث فى المستعمرات والمحميات البريطانية فى أفريقيا ٠ وليس لمراكش مندوبون فى الجمعية الوطنية الفرنسية بباريس - كما هو حال المناطق الفرنسية الأخرى فى افريقيا وغيرها، عدا تونس - كذلك ينقم المراكشيون على فرنسا انها لم تحدد مدى للحماية ، على العكس مما فعلت بريطانيا فى (نيجيريا) و (ساحل الذهب) ، وما فعلت

أمريكا في (الفيلبين) ٠٠ وان المراكشيين لا يحظون بنصيب في ادارة بلادهم ، ولا في أقل المناصب الحكومية شأنا !

ثانيا : لا وجود للحريات المدنية ، فليست هناك حرية صحافة ، ولا حرية قول ، ولا حرية اجتماع ، فالبلاد ترزح تحت ما يشبه الأحكام العرفية منذ أكثر من أربعين عاما ٠٠ وليس هناك قانون جنائي ولا قانون مدني ٠ وقد حدث أثناء وجودنا في مدينة مراكش ، أن سألت احدى المدرسات تلميذاتها عن الهدية المفضلة التي تحب أن تتلقاها في عيد الميلاد ، فهتفت احداهن مازحة : « مدفع رشاش ! » ، واذا بأبيها يعتقل في اليوم التالي !

ثالثا : التعليم ٠ قال لي شخص من احدى الأسرات المراكشية الكبيرة : «هناك أمران تستطيع أن تتأكد منهما ، وهما انه ليس في هذه البلاد عدالة ، ولا تعليم » ! ٠٠ ذلك لأن الفرنسيين يعتقدون ان الطفل بمجرد تعلمه الكتابة والقراءة ، يتجه الى الحرية ٠٠ ومن ثم فهم يستبقون خضوع الناس بابقائهم أميين !

رابعا : الخدمة العسكرية ٠ ينكر الفرنسيون ان المراكشيين يجندون في الجيش الفرنسي قسرا ، وانما هم يتطوعون٠٠ويقول الوطنيون انه بالرغم من ان القانون يمنع تجنيدهم ، فان قواد المناطق يجبرون أبناء العرب والبربر على «التطوع !» ، تقربا من هؤلاء القواد لادارة المقيم العام !

خامسا : المسائل الاقتصادية ٠ يقول الوطنيون ان نسبة هائلة من الميزانية تنفق على مرتبات الموظفين الفرنسيين ، وان الفرنسيين لا يدفعون نصيبا عدلا من الضرائب ، ويستأثرون في الوقت نفسه بمعظم المنافع !

سادسا : النقابات ٠ كانت هذه من مصادر النزاع بين دار المقيم العام وحزب الاستقلال قبل خلع السلطان ، فالفرنسيون يبغون أن يحولوا بين العمال المراكشيين وبين اتحادهم على نطاق عام ، حتى لا يصبحوا اداة للاضطرابات السياسية والاقتصادية ٠٠ فكل المسموح به هو أن ينضم المراكشيون الى نقابات أوربية ! ٠٠ وقد خلق هذا موقفا غريبا ، اذ ان النقابات الفرنسية الرئيسية في مراكش تابعة للاتحاد العام للعمل الذي يسيطر عليه الشيوعيون في باريس !٠٠ فكأن الفرنسيين بهذه الطريقة يدفعون العمال المراكشيين الى الشيوعية ٠٠ وهي نتيجة عكسية تماما لما أرادوا ! ٠٠ على انها من ناحية أخرى ساعدت الفرنسيين على أن يصموا أعضاء حزب الاستقلال بالشيوعية ، اذ أن بينهم عمالا من أعضاء الاتحاد العام للعمال !

بقيت كلمة عن حزب الاستقلال ذاته : فهو قد انشىء في سنة ١٩٤٣ ، نتيجة اتحاد عدد من الاحزاب الصغيرة وهيئات الشباب والجمعيات الثقافية ٠ وقد سلك نهجا هادئا حتى قدر له أن يصطدم بالجنرال جوان٠٠وليس للحزب اليوم وجود

قانونى ، بل هو يمارس أعماله سرا ـ منذ اضطرابات الدار البيضاء فى سنة ١٩٥٢ ـ ويعقد أعضاؤه اجتماعاتهم فى (طنجه) ٠ وله زعيمان وعاصمتان عدا طنجه : ففى نيويورك ، يعمل الحاج « احمد بلفرج » بالتعاون مع مكتب الاستعلامات المراكشى ، وكان هذا الزعيم من مؤسسى الحزب وقد نفى من مراكش الاسبانية فى سنة ١٩٣٧ ٠٠ وفى القاهرة ، يوجد « علال الفاسى » الذى يعتبره الفرنسيون أخطر الزعماء وأكثرهم الهابا للمشاعر ٠ وقد كان مدرسا ، ونفاه الفرنسيون قبل الحرب الى افريقيا الاستوائية الفرنسية ٠٠ وهو عنيف فى خصومته للشيوعية ، وقد كتب الشعر الملتهب مذ كان فى الخامسة عشرة ، وكان اذ ذاك زعيما للطلبة

ويظن بعض المراقبين ان مراكش ستتحرر خلال خمس سنوات ٠ ويرى البعض انها لن تتحرر قبل خمس وعشرين سنة ٠ وشعورى الخاص هو ان الاستقلال لن يتسنى بسرعة ما لم يكن نتيجة غير مباشرة لحادث كبير ، كقيام حرب عامة ٠٠ على ان الحركة الوطنية تزداد سيطرة على الناس يوما بعد يوم !

المشكلة الشيوعية فى مراكش

◆ الحزب الشيوعى حزب قانونى فى فرنسا ، ولكنه غير مشروع فى مراكش منذ اضطرابات الدار البيضاء فى سنة ١٩٥٢ ٠ ويصر الفرنسيون على انه مستمر فى نشاط سرى قوى ، وان الشيوعية قد تغلغلت فى حزب الاستقلال ٠ ولقد بادر الفرنسيون خلال العام أو العامين الأخيرين الى استغلال خوف الامريكيين من الشيوعية وكراهيتهم لها ، بالمبالغة فى ربط العناصر الشيوعية بحزب الاستقلال ، كى يبرروا قمعهم للحركة الوطنية ! على ان الحزب ينكر متحمسا أية علاقة بالشيوعية ، ويقول أعضاؤه انه خليق بفرنسا أن تقاوم الشيوعية فى بلادها أولا !

والسياسة السوفييتية بوجه عام تسعى الى مهاجمة الاستعمار ، والتنديد بالغرب ، والتغلغل فى الأحزاب الوطنية ـ اذا استطاعت ـ فى البلاد العربية ٠ على ان كسبها فى افريقيا ليس كبيرا فى الوقت الحاضر ، وان كان من المحتمل أن يزداد فى الغد ٠٠ وخير رد على التغلغل الشيوعى أو أعمال التحريض الشيوعية فى افريقيا المستعمرة ، هو الاصلاح ٠٠ اذ ان أسهل الطرق لدفع دولة الى أحضان موسكو ، هى : اساءة معاملة أهلها !

القواعد الجوية الأمريكية !

◆ هذه القواعد ـ من الناحية الفنية ـ فرنسية ، وان كان الامريكيون هم الذين شيدوها ، لتخدم أغراضا لهم ، وتدار برجال منهم ٠٠ ولم يستشر المراكشيون أو يبلغوا بالمفاوضات التى دارت بصددها ٠٠ وما اختيرت مراكش بالذات ، الا لأن لها سواحل على المحيط الأطلسى !

ويبلغ مجموع القوات الامريكية فى مراكش ٧٥٠٠ • وقد رغب السلاح الجوى فى أن يكون له ٣٢٫٠٠٠ رجل على الاقل ، ليتسنى ادارة أعمال الدفاع الجوى ، ولكن فرنسا رفضت السماح بمثل هذا العدد • ويقتصر النفوذ الامريكى حاليا على تدريب العمال المراكشيين على الأعمال الفنية ، وعلى اذاعة برنامج أمريكى - على راديو مراكش - للجنود الأمريكيين ، ينصت اليه آلاف من المراكشيين•• وقد يكون لهذا أثر سياسى وثقافى على مر الزمن ••

وقد لا يحب الفرنسيون أن يعترفوا بأن الامريكيين قد وطدوا مركزهم فى مراكش بدرجة كبيرة ، ولكن هذا عين الذى حدث•وقد قال لى أحد الفرنسيين : « ان القواعد المراكشية ستخلق توترا بين الولايات المتحدة وفرنسا يوما ما » •

ورأى الوطنيين يتأرجح بين وجهتين متطرفتين : احداهما ان الولايات المتحدة شريك مباشر فى انتهاك الفرنسيين لحرمة مراكش •• والاخرى ان وجود الامريكيين خير للمراكشيين ، لأنهم سيؤثرون على الفرنسيين ويحملونهم على الاعتدال !

سيد جبال أطلس !

◆ ونعود مرة أخرى الى « الجلاوى » ، باشا مدينة (مراكش) ، فهو من أبرز زعماء القبائل الذين قبلتهم •• خاض فى شبابه ١٢١ معركة ، وجرح ٣٢ مرة ، ويفخر بعدد الرجال الذين قتلهم بيده ! •• ثم انه أوتى دهاء قاتما ، يغلب عليه الخبث ، حتى لقد سمى بـ « مترنيخ مراكش » ! كذلك من اسمائه : « سيد جبال الأطلس » ، و «السلطان الأسود» و «غزال سوس» • • و (سوس) واد خصب ، غنى ، جنوبى مدينة (مراكش) ، بين جبال أطلس •• أما اسمه الحقيقى فهو : « الحاج التهامى جلاوى المزوارى » •• ولقبه « باشا مراكش » •• وتشغل أملاكه عدة آلاف من الاميال المربعة ، يقيم عليها مليون فرد من البربر ، على الأقل ! •• وله جيش خاص من المحاربين البربر ، يصل عددهم الى ٣٠٠٫٠٠٠ تقريبا • ولعله آخر اقطاعى على الأرض يسيطر على مثل هذا العدد من الرجال المسلحين •• ثم انه - بوصفه « باشا » - يتولى شئون قسم كبير من مراكش الجنوبية ، باسم الفرنسيين !

ويعزى نفوذه السياسى الى انه اعتاد دائما أن يكون فى صف فرنسا • ولكنه ينكر فى حرارة انه « ذنب » أو « ألعوبة » لهم ! •• والواقع انه ليس « ذنبا » بدرجة السلطان « ابن عرفة » ، وانما هو شريك وحليف لهم ، فهو يحب



الفرنسيين وهم يحبونه • وقد كان الجلاوى العنصر البارز فى مؤامرة خلع محمد الخامس ، اذ كان يكرهه دائما • ولعله كان يرى فى خلعه نصرا له ، بيد ان الامر قد ينقلب ، اذ فقد الجلاوى بخلع السلطان السابق بعض القوة التى كان يساوم بها الفرنسيين(١)

يعجب بتشرشل لأنه شديد النهم !

◆ والجلاوى مسلم، لاتقل مرات حجه الى مكة عن خمس ، ولم يشرب الخمر قط ، وان كان لايمانع فى تقديمها لضيوفه الاوربيين !•• وهو يجيد رياضة « الجولف » ، وقد أقام لنفسه ساحة للعب – بالقرب من مراكش – تعتبر أحسن الساحات فى شمال افريقيا • وقد اشتهر بجرأته ، وجسارته ، وقدرته على التصرف بسرعة •• ومن أعظم الشخصيات التى يعجب بها شخصية « ونستن تشرشل » ، الذى زاره فى مراكش عدة مرات وحظى بضيافته • وأكثر ما يعجبه فى تشرشل قدرته على استيعاب أكبر قدر من الطعام والشراب !

ويستمد الجلاوى ثروته من الشعب بالطبع ! •• وتقول الشائعات ان كل صاحب متجر فى مدينة مراكش يمنحه ايراد يوم فى كل أسبوع •• كما انه يمتلك أراضى زراعية واسعة ، ومناجم للمنجنيز ، والكوبالت ، والاسبستوس ، والرصاص ، والاورانيوم ، والذهب • ويقول الكاتب الفرنسى المعروف « كلود بورديه » – وهو ينتقده فى غير مودة – انه يسحق عبيده فى العمل كما كان يفعل بارونات العصور القديمة ، وانه استغلالى لا يرحم ! •• فالفلاحون يقسرون على تقديم الهدايا له كلما رحل أو آب ، وفى الاعياد والمواسم •• كما انه يحتكر

---

(١) بل ان الأمر ذهب الى أبعد من هذا ، اذ اضطرت فرنسا تحت ضغط الشعب المراكشى وضغط الدول العربية الى أن تعيد السلطان الى عرشه ، وأن تضطر الجلاوى الى استغفاره !•• ولعل القهر والحسرة هما اللذان أورثا الأخير المرض الذى قضى عليه فى ٢٣ يناير الماضى !

انتاج الكركم ، واللوز ، والزيتون ، ولا يدفع لزارعيها الفلاحين غير نصف الأسعار التى يبيعها بها في السوق ! ٠٠ كما لا يسمح لأحد ببيع محصوله من النعناع حتى يفرغ الباشا أولا من بيع محصوله !

يرث أخاه فى مؤامرة خلع السلاطين !

◆ ولقد ظل آباؤه يفرضون نفوذهم فى منطقتهم أكثر من مائة سنة ٠ وحدث عند مطلع القرن العشرين ، أن تقاتلت ثلاث أسرات للسيطرة على ممرات جبال أطلس ، فقاد الجلاوى أسرته للفوز ٠٠ ولعب أخوه « سى مدنى » ـ وكان باشا (سوس) ـ فى سنة ١٩٠٧ دورا فى خلع السلطان عبد العزيز ، يشبه الدور الذى لعبه الجلاوى فى خلع محمد الخامس ٠٠ وقد أصبح «الجلاوى» باشا مدينة (مراكش) فى سنة ١٩٠٨ ، وكان من أعظم القرارات الحاسمة فى حياته ، أن قرر مع أخيه الترحيب بالفرنسيين حين احتلوا البلاد فى سنة ١٩١٢ ، وحارب الاثنان فى صفوفهم لتمكينهم من السيطرة على مدينة (مراكش) ٠ وتولى الجلاوى قمع كل معارضة أو تمرد حين اضطر « ليوتى » فى الحرب العالمية الأولى الى نقل الحامية الفرنسية التى كانت ترابط فى مراكش الى أوربا ، للقتال ضد الالمان !

وغدا الجلاوى بعد ذلك اداة رئيسية فى أيدى الفرنسيين لتهدئة الأحوال فى مراكش ٠ وقد حارب بلاده وعمل على اخضاعها للفرنسيين ، وعمل جاهدا خلال الحرب العالمية الثانية لحساب الحلفاء ، ورفض أن يتعامل مع حكومة (فيشى) ، واحتفظ برجاله مسلحين فى الجبال ، حتى اذا انزلت أمريكا قواتها فى الدار البيضاء سارع للترحيب بها ، تمهيدا لاعادة السلطة الى الفرنسيين ! ٠ ٠ والواقع ان علاقات اسرته تمتد فى كل نواحى المجتمع الرسمى المراكشى ٠٠ فقد كان أخوه « المدنى » الوزير الأكبر يوما ، كما ان زوج ابنته « المقرى » هو الوزير الأكبر الحالى !

يؤمن بفرنسا ٠٠ ويتشبث ببقائها !

◆ والمعتقد ان للجلاوى الآن اربع زوجات ، وأربع محظيات ـ وربما كانت له عشرون أو ثلاثون ، فليس هناك من يعرف عددهن ! ـ على ان الجلاوى يسيطر ، بيده المكتهلة المعروقة ، على أزمة أسرته ، حتى انه يدرى بكل ما يجرى فى داره ٠ وقد ألحق أولاده بالمدارس الفرنسية الراقية ، وعلمهم الفرنسية منذ حداثتهم ، حتى ان من المحرم عليهم أن يتحدثوا بغيرها فيما بينهم فى البيت ! ٠٠ وهو طموح من أجل أولاده ، وأقصى أمانيه أن يصبح أحدهم وزيرا أكبر للبلاد ! ٠٠

وأكبرهم سنا « سى ابراهيم » قائد المنطقة (تلويت) ، رغم انه فى باكورة العقد الثالث من عمره ٠٠ وتعتبر (تلويت) معقل عشيرة الجلاوى ، ولذلك فمن المتوقع لابراهيم أن يخلف أباه كباشا لمراكش ٠٠

ومن أولاد الجلاوى قاض ، ورسام مبدع ٠٠ وكان له ابن ضابط فى الجيش الفرنسى ، لقى مصرعه فى ايطاليا فى الحرب العالمية الثانية ٠٠ ولا يبدو على «الباشا» أى مظهر للسن ، بل انه يلوح كزهرة من أزهار « التوليب » السوداء» صيغت من فولاذ ٠٠ وكان أهم ما ذكره لنا حين زرناه ، ان انسحاب الفرنسيين من مراكش يسلم البلاد للفوضى والخراب ، وانه لا يؤيد فرنسا الا لايمانه بأن الحكم الفرنسى هو خير ألوان الحكم !!

عزيزى القارىء :

قرات معى فى الاعداد الماضية قصص: • اموك : لستيفان زفايج • قلب عذراء : جون جالزورثى • مرتفعات وذرنج : اميلى برونتى • التلميذ : بول بورجيه • أحدب نوتردام : فيكتور هوجو • جريمة حب : بول بورجيه • جين اير : شارلوت برونتى • أيام بومباى الأخيرة : لورد ليتون • مانون ليسكو : الاب بريفو • حديقة الله : روبرت هتشنز • عندما تحقد المرأة : جورج أونيه • آسيا : ايفان تورجنيف • الشيطان على الارض : برتراند رسل • رسالة من مجهولة : ستيفان زفايج • الحب الاول : تورجنيف • تاييس : اناتول فرانس • بلاد العميان : هـ•ج• ويلز • نادى الانتحار : روبرت لويس ستيفنسون • كوخ العم توم • هارييت بيتشر ستو • الزوج والعشيق : سومرست موم • البوهيمية : هنرى مرجيه • فتاة لها ماض : بول بورجيه • شيرى : كوليت • الجريمة والعقاب : دستويفسكى • لحن كرويتزر : تولستوى • اميرة مصر : جورج ايبرز • الامطار : سومرست موم • افروديت : بيير لويس • جيجى : كوليت • الشيطان فى الجسد : ريمون راديجيه • ليبوريللا : ستيفان زفايج • كانديد : فولتير • اشجان فرتر : جيته • فرانتسكا : موباسان • لوريت • المعطف • يوميات زوجة • الافق المفقود • النار الخالدة • الوحل • أبناء وعشاق • « اليهودى التائه» • وهاك اليوم: «صباح الخير•• أيها الحزن ! »

الحياة قصة



روائع القصص العالمى





القصة التى أثارت ضجة كبرى !

صباح الخير أيها الحزن !

للروائية الفرنسية اليافعة
فرانسواز ساجان



تلخيص : محمد بدر الدين خليل

نجاح .. مستمد من الفشل !

♦ لم تحدث رواية من الضجيج فى الفترة الاخيرة ، قدر ما أحدثت هذه الرواية .. فان كاتبتها - فرانسواز ساجان - لم تكن قد تجاوزت السادسة عشرة من عمرها حين شرعت فى كتابتها . وكان وحيها والهامها مستمدين من رسوبها فى امتحانها بعد العام الأول - والأخير أيضا - فى جامعة « السوربون » ! .. وما ان ظهرت الرواية ، حتى استقبلتها الأوساط الأدبية فى فرنسا خير استقبال ، وبلغ ما بيع منها ٣٠٠ ألف نسخة . وسرعان ما ترجمت الى الانجليزية ، فأثارت ضجة جديدة ،وبيع منها فى أمريكا ١٠٠ ألف نسخة . ونالت الكاتبة الناشئة جائزة النقاد الكبرى - وهى من الجوائز الأدبية المرموقة فى فرنسا - عن روايتها الاولى هذه : « صباح الخير أيها الحزن ! » .. ولعل خير تقدير للرواية وكاتبتها، ان صحف انجلترا الأدبية - المعروفة بتزمتها ووقارها - لم تقل عن صحف فرنسا اشادة بروعة الرواية ، وتوفيق الكاتبة !

بقى أن أذكر لك ان الاسم الحقيقى للمؤلفة هو : «فرانسواز كواريز» ، وانها ابنة رجل ثرى من رجال الصناعة فى باريس ، ينحدر من أصل اسبانى ، و .. انها تكره الدراسة والاستذكار ، وتحب كتابة القصص !

- ١ -

♦ **يستولى** على اكتئاب غريب ، أتردد قبل أن أخلع عليه هذا الاسم الجميل .. اسم «الحزن» ! .. فقد عرفت السأم ، والندم ، والحسرة ، ولكنى لم أعرف الحزن مطلقا ! .. على أن ثمة شيئا يلفنى اليوم ، وكأنه غلالة من حرير خفيف ، فيثير أساى ، ويعزلنى عن الدنيا !

كنت فى صيف العام السابع عشر من عمرى ، مكتملة السعادة ، أعيش مع أبى ، و «ايلسا» .. خليلته فى ذلك الحين ! .. كان أبى فى الاربعين من عمره ، وقد قضى فى الترمل خمسة عشر عاما . وكان مفعما بالنشاط والحيوية ، حتى ليبدو أصغر من عمره . وكنت قد بارحت المدرسة الداخلية - قبل ذلك



فرانسواز ساجان

بعامين – بعد أن أتممت دراستي الثانوية ، وأصبحت أعيش مع أبي في بيت واحد ، فلم ألبث أن لاحظت أنه يعاشر النساء ، وانه يغير عشيقاته مرة كل ستة أشهر !٠٠ وحملني لطفه ، ورفاهية عيشته ، وحياة المرح والتحرر التي كان يحياها ، على أن أتقبل هذا الوضع!٠٠ **والحق أن أبي كان لبقا ، ماهرا في حياته العملية ، محبا للتبديل سريع الملل ٠ وكان فاتنا يسحر النساء ، فكان من السهل أن يكون محبوبا ٠٠ وما كنت لأعثر على صديق أفضل منه ٠** فقد كان كريما ، سخيا ، مرحا ، مفعم القلب بحبي ٠ ولقد سألني في بداية ذلك الصيف عما اذا كنت أعارض في أن ترافقنا «ايلسا» الى المصيف ، فلم أر مانعا ، اذ كانت فتاة طويلة ، حمراء الشعر ، ملتهبة العواطف ، تأخذ حياتها على علاتها دون ما تصنع

واستأجر لنا أبي بيتا أنيقا ، في بقعة منعزلة على شاطيء البحر الابيض ، يشرف على البحر مباشرة ، ويستتر عن الطريق خلف أشجار غابة صنوبرية ، فكانت أيامنا الأولى هناك من أروع الأيام ٠ ثم التقيت بسيريل في اليوم السادس ٠٠ كان في قارب شراعي صغير ، انقلب به أمام البوغاز الضيق القائم أمام بيتنا ٠ وبينما كان منهمكا في معالجة وضع القارب ، أنبأني باسمه ، وبأنه يدرس القانون ويقضي الصيف مع أمه في «فيلا» مجاورة ٠ وكان –مثل أبناء الشعوب اللاتينية– شديد السمرة ، يوحي شكله بأنه أهل للثقة ٠ **وأحببت فيه لفوري شيئا يوحي**

بامكان الركون الى حمايته ! ٠٠ مع أنني كنت ـ عادة ـ أتفادى الطلبة الجامعيين ، وأوثر عليهم صحبة أبناء الاربعين من أصدقاء والدى ، الذين كانوا يسبغون على عطفا أبويا ! ٠٠ على أن «سيريل» كان يبدو على النقيض من الجامعيين ٠ وكان طويل القامة، يلوح فى بعض الأحيان جميلا ، وتوحى أساريره بالطمأنينة ٠ وقد عرض على أن يعلمنى كيف أنطلق فى البحر بقارب شراعى!

وشغلت بالتفكير فيه حين عدت الى البيت، وحين استلقينا على مقعدين طويلين فى الشرفة بعد العشاء ، وقد شملنا سكون مريح ٠ وفجأة ، سعل أبى ، وقال ان ثمة ضيفا لن يلبث أن يصل ٠ ولم أصدق أذنى حين علمت أنها ضيفة ، وانها « آن لارسن » بالذات ٠ وكانت « آن » صديقة لأمى ، فلما ماتت هذه ، لم تعد تتصل بأبى الا لماما ، ولشئون عملية ، اذ كانت تملك دارا للأزياء ، وكان أبى يملك دارا للاعلان ٠ حتى اذا غادرت المدرسة الداخلية ـ منذ عامين ـ أسلمنى أبى الى « آن » لتدربنى على الظهور فى المجتمع، فأغدقت على من الحنان ماجعلنى أتعلق بها

كانت فى الثانية والاربعين ، ولكنها جذابة ، مشتهاة ، يقترن حسن وجهها بكبرياء ، وضجر ، وعدم اكتراث ! ٠٠ وكان كل ما يحيط بها ينم عن عزيمة قوية ، ووقار فطرى ٠ ومع أنها كانت مطلقة ، الا أن علاقاتها بالرجال كانت تبدو قاصرة على الصداقة ٠٠ وكانت تنتقى أصدقاءها من الأذكياء ، الناجحين ، المحتشمين، بينما كان أبى ينشد فى أصدقائه حسن المنظر ،ولطف المعشر ، والصخب، وحب الطعام والشراب ٠٠ وما احسبها الا كانت تستهجن منا هذه الصحبة !

وما أن صعدت «ايلسا» الى مخدعها ـ بعد أن أسرفت فى التحرى عن مركز « آن » الاجتماعى ـ حتى أنحيت على أبى باللوم اذ دعا « آن » ، رغم أنه لم يكن من النوع الذى يروق لها من الرجال ، فقال في بساطة : « انها رغبت في أن ترى أباك

الشيخ ! » ٠٠ قلت : « ولكن ، ألم تفكر فى « ايلسا » ؟ ٠٠ ألم تتصور أى نوع من الحديث يمكن أن يدور بين الاثنتين ؟ » ٠٠ واعترف بأنه لم يفكر فى ذلك ٠ ثم تحولنا نتحدث عن الحب وملابساته ٠٠ **كان الحب فى نظر أبى أمرا خياليا ٠٠ وكان ينكر كل وفاء أو تقيد عاطفى ! ٠٠ ولو ان آراءه صدرت عن انسان سواه لاستنكرتها ، أما منه هو ، فكان لها وقع آخر ٠٠وما كنت اذ ذاك أعرف الكثير عن الحب ٠٠ اللهم الا حب أبى !**

* * *

◆ **كانت** « آن » تخلع على الامور أشكالا ، وعلى الكلمات معانى اعتدت وأبى أن نتغاضى عنها ونتجاهلها ٠ ولكنها كانت مثالا للذوق السليم ، وللتصرف السليم ، تكاد حركتها تكون محسوبة ومرسومة فى دقة عجيبة ، وان كان فى أسلوبها لون من السخرية والاستعلاء يضايقنى !

وفى اليوم المحدد لمقدمها ، اقتطف أبى أجمل زهور الحديقة ، وصحب «ايلسا» الى المحطة لاستقبالها ٠ وكانت الساعة الثالثة بعد الظهر ، والحر يخنق الأنفاس ، فاستلقيت على رمال الشاطىء ٠ وعندما أوشكت أن أغفو ، أقبل « سيريل » ، فلم أرد تحيته ، اذ شعرت بأننى مسمرة الى الرمال بكل قواى ٠٠ **وتسارعت خفقات قلبى وهو يجلس الى جوارى ، اذ مست يده كتفى ٠ وكم من مرة اشتبكت سيقاننا وأذرعنا ـ وهو يعلمنى قيادة القارب خلال الأسبوع السابق ـ فلم تهتز جارحة فى جسمى ٠ أما اليوم ، فقد تعاون الحر ، والنعاس الذى خدرنى ، وتلك اللمسة غير المقصودة ، على تحطيم دفاعى !** ٠٠ وأخذ كل منا يحدق فى الآخر ٠٠ كان أكثر احتشاما ورزانة من ابناء سنه ، ومن ثم كانت نظراته الى أبى توحى باستنكاره لعلاقته بعشيقته ، ولسماحه بأن يجمع بينى وبينها !

وانحنى فوقى ، فتذكرت ما كان يفعم نفسى من طمأنينة فى

الأيام القلائل السالفة ٠٠ وقبلنى ٠٠ ودام دفء القبلة الأولى ، ونشوتها ، ومفعولها المخدر ، لحظات طويلة ٠ ثم تناهى الينا صوت محرك سيارة ، واذا « آن » قد أقبلت فى سيارتها ـ بدلا من القطار ـ فهرعت لاستقبالها

وجلست « آن » على حافة الفراش فى الغرفة التى خصصت لها ٠ واسترعت نظرى هالات سمراء حول عينيها ٠ وما أن أنبأتها بأن أبى صحب «ايلسا» الى المحطة لاستقبالها ، حتى غشيها وجوم ظاهر ، وارتجفت شفتاها ، وقالت : « ايلسا ماكنبورج ؟ ٠٠ هل اصطحبها الى هنا ؟ » ٠٠ وحملقت فيها مشدوهة ، اذ عهدتها دائما مسيطرة على مشاعرها ٠ على أنها ما لبثت أن تمالكت نفسها قائلة : «**كان حريا بى أن أطلعك على الأمر من قبل ٠٠ ولكننى كنت مرهقة ، متعبة !** » ٠٠ ثم عاد عدم الاكتراث يعلو أساريرها ، وكأن شيئا لم يحدث !

وتركتها الى الطابق الارضى ، والأفكار تضطرب فى رأسى ٠ ترى ما سبب التغير الذى اعترى أسارير « آن » وصوتها ؟ ٠٠ هل أحبت أبى ؟ ٠٠ بل هل يحتمل أن تقع « آن » الرزينة ، الوقور ، اللاذعة السخرية ، فى الحب ؟ ٠٠ ثم ان أبى لم يكن من الطراز الذى يستهويها ٠٠ كان ضعيفا فى مشاعره ، متقلبا لايمكن الركون الى عواطفه أحيانا !

★ ★ ★

◆ **وعاد** أبى و « ايلسا » فى الساعة الخامسة ٠ وما أن رأيته يغادر السيارة ، حتى شعرت بأن من المحتمل حقا أن تقع «آن» ، بل وأية امرأة أخرى فى حبه ٠٠ فقد كان فاتنا ! ٠٠ وهتف اذ علم بوصولها : «جميل! ٠٠ اذن احملى اليها الزهور فى غرفتها!» ٠٠ واذا صوت « آن » ينبعث قائلا : « هل ابتعت لى زهورا ؟ ٠٠ ما أبدع صنيعك ! » ٠٠ وأقبلت تهبط السلم فى هدوء ، وابتسام ٠ وحمدت لها أنها لم تبرح غرفتها الا حين سمعت

صوت السيارة ، فقد كان من المحتمل أن تسألنى عن نتيجة امتحانى فى الجامعة ٠٠ وكنت قد رسبت !

واندفع أبى نحوها ، فلثم يدها ، وقال : « أتعرفين ايلسا ماكنبورج ؟ » ٠٠ وأشحت ببصرى كى لا أشهد الموقف ، ولكن « آن » قالت فى لطف : « لا بد أننا تقابلنا من قبل ٠٠ كان جميلا منك أن تدعونى ! »

وكان أبى مسرف اللطف طيلة الأمسية ، بينما رحت أتمثل وجه «سيريل» الذى يفصح عن عواطف مشبوبة ،فلم أتمالك أن أقارنه بوجه «آن» ٠٠ كان كل من الوجهين يحمل سيماء العنف!

وكانت جلستنا الى العشاء ممتعة ٠٠ وأخذت «آن» تتحدث مع أبي عن معارفهما المشتركين ، فكنت أطرب لكلماتها المنتقاة فى دقة ووضوح ٠٠ كانت «آن» لطيفة ، عذبة الحديث اذا ما غابت عنها نزعة النقد الساخر ! ٠٠ **ولم يبد على «آن» ـ فى تلك الليلة ـ أنها لاحظت كيف تعمدت «ايلسا» أن تسير الى مخدع أبى فى علانية مفضوحة !**

وقبل أن أغمض عينى فى تلك الليلة ، أخذت استعرض حياتى مع والدى خلال العامين اللذين أعقبا مبارحتى المدرسة الداخلية ، والتحاقى بالجامعة ٠ كنت مثل فتاة تتعرف الى الحياة للمرة الاولى ! ٠٠ ولعل ذلك راجع الى أنى لم أقرأ كثيرا ، اذ أن كتب الدراسة لا تعلمنا شيئا عن الحياة ، كما انى لم أجد فى باريس وقتا للقراءة ٠٠ فقد كنت أتردد مع زملائى ـ بعد محاضراتنا فى الجامعة ـ على دور السينما ، والمقاهى ٠ **وكنت أشعر بمتعة بالغة حين يأخذ أحد زملائى فى التحديق فى عينى ، وهو يضغط يدى ، ثم يرافقنى الى دارى ، حتى اذا وقفنا فى ظلال بابها ، خطف منى قبلة !٠٠ وتعلمت كيف استعذب القبلات !٠٠** اما فى الأمسيات ، فكنت أعيش فوق مستوى عمرى ، اذ كنت اختلط بأصدقاء والدى وأحضر حفلاتهم ٠ وكان أبى فى نهاية السهرة **يقلنى الى البيت مع احدى صديقاته ، فاذا بلغنا منزلنا ،**

استأذن منى ليرافق الصديقة الى مسكنها · وكنت عادة لا أشعر بعودته خلال ما تبقى من الليل !·· ولست أحب أن أوحى بأنه كان متبذلافى غرامياته،ولكنه كان لا يحاول أن يخفيها عنى!·· وكنت خليقة ـ على أية حال ـ بأن اكتشف حقيقة علاقاته بصديقاته اللاتى كان يستضيفهن ، فشاء أن يصارحنى بها ، بدلا من أن يعرضنى لصدمة قاسية حين أكتشفها بنفسى !

وكانت غلطته الوحيدة ، انه بث فى نفسى فكرة متشائمة عن الحب ، فلم أتعلق به كسبيل للسعادة ونشوة الحياة ، كما تفعل الفتيات اللائى فى سنى · وكنت لا افتأ أردد فى استعذاب عبارة أخذتها عن أوسكار وايلد : « الخطيئة هى اللمسة الوحيدة البهيجة اللون فى لوحة الحياة الحديثة ! »

★ ★ ★

◆ **استيقظت** فى الساعة العاشرة من الصباح التالى على شمس مشرقة ، فهبطت الى الشرفة وانا فى «بيجامتى» ، فاذا «آن» تقرأ الصحف · ولاحظت أن زينتها خفيفة ، وان كانت كاملة صحيحة · ولم تولنى اهتماما ، فجلست على درجات السلم أمتص برتقالة ، وأرتشف جرعات من القهوة تباعا ، والشمس تشيع دفئا فى شعرى · وقفزت على قدمى اذ سمعت « آن » تسألنى فجأة : «سيسيل··كيف لا تأكلين شيئا فى الفطور؟·· يجب أن تزيدى وزنك ستة أرطال ، اذا شئت أن تروقى للانظار ··ان خديك غائران ، ويكاد المرء أن يعد ضلوعك لفرط نحافتك!»

وأقبل أبى اذ ذاك ،فهتف : «يا للمنظر!··فتاتان صغيرتان تتشمسان !» ، فضحكت آن قائلة : «اننى أناهزك سنا ياعزيزى ريمون ! » ·· واختلج جفناها ، كما لو كانت قد تعرضت لغزل غير مرتقب· وتسللت أنا الى داخل الدار ، دون أن يشعرا بى·· **والتقيت فى طريقى بايلسا ، فوددت أن أنبهها الى أن « آن » مع والدى ، بل وددت أن أحذرها ، ولكننى أشفقت·· كانت تصغر « آن » بثلاث عشرة سنة ، ومن ثم كانت تعتقد أن هذه ميزة**

تكفل لها الغلبة !

وتأبطت ثوب السباحة ، وأسرعت الى البوغاز الصغير . ولشد ما دهشت حين ألفيت « سيريل » قد سبقنى . وبادرنى معتذرا عما صدر منه أمس ، اذ قبلنى !.. وتلقيت اعتذاره باستخفاف ، وأنا أقفز الى القارب . ولكنه ظل واقفا فى الماء حتى ركبتيه ، مصرا على أن لا يلحق بى الا اذا غفرت له .. وقال : « لا تسخرى .. ما كان ثمة ما يحميك منى .. ألا ترين العلاقة بين أبيك وتلك المرأة ؟ » .. ووجدتنى أطوق عنقه ، وألصق خدى بخده ، وغمغمت : **« ما أطيبك وأجملك يا سيريل ؟.. ستكون بمثابة أخ لى ! » .. وطوانى بين ذراعيه ، ورفعنى من القارب ، وضمنى اليه .. وأحسست فى تلك اللحظة باننى أحبه .. وبأننى فى حمايته ورعايته !.. ومست شفتاه شفتى ، فبدأنا نرتجف . وأخيرا ، أفلت منه ، واندفعت سابحة نحو القارب ، وقد تولانى شعور بسعادة غامرة !**

وانصرف « سيريل » فى منتصف الساعة الثانية عشرة . وما لبث أن أقبل أبى ، يتوسط « آن » و « ايلسا » ، فى لطف وفتنة !.. وخلعت « آن » الازار الذى كان يحيط بجسمها فوق ثوب السباحة ، فاذا بخصر نحيل ، وساقين بديعتى التكوين ، وجمال هو خلاصة عناية ورعاية خلال عمر طويل . واتجه بصرى – على الرغم منى – الى أبى ، فاذا هو مستغرق فى التأمل . أما « ايلسا » المسكينة فكانت فى حال يرثى لها !

وقالت لى «آن» : «كنت فى باريس لاتستيقظين قبل الظهر»

ولم تبتسم حين أجبت بعبارة مازحة .. كانت لا تبتسم الا حين يروق لها الابتسام ، غير حافلة بقواعد المجاملة .. وانما سألتنى : « وامتحانك ؟.. يجب أن تنجحى فى أكتوبر ! » .. فقاطعها أبى فى شىء من التعاظم : « وما الداعى ؟.. اننى لم أحصل قط على شهادة عالية ، ومع ذلك فانى أنعم بحياة رغدة !» .. وبدأت « ايلسا » تضحك ، ولكن «آن» أغمضت عينيها ، وقالت

في لهجة حازمة : « لسوف تجتهد سيسيل فى عطلة الصيف » .. ونظرت أنا الى أبى أستنجد به ، وقد افزعنى أن أهجر « سيريل » لافرغ الى فلسفة« بيرجسن » ..وزحفت نحو «آن» ، ورحت أضرع اليها أن تشفق على من الاستذكار فى الحر القائظ ، ولكنها قالت : « سأعلمك كيف تفعلين ذلك .. لسوف تحقدين على يوما أو يومين ، ولكنك ستجتازين الامتحان بنجاح ! » .. وأشحت عنها فى حنق . وكان أبى يرقب وجه « آن » بنظرة كنت خبيرة بها ، وقد أخذت يده تقبض على الرمل وترسله.. وجريت الى البحر ، فغصت فيه ، وأنا أرثى لحالى !

* * *

• **كانت** « آن » فى الايام القلائل التالية ، لطيفة كريمة مع « ايلسا » الى درجة غير مألوفة منها ، مما أثار دهشتى ، وجعلنى أعجب بقدرتها على ضبط النفس ، وبكرم طباعها ، دون أن أفطن الى مدى دهائها . وافعم والدى ــ الذى كان يكره الاساليب القاسية ــ عرفانا بصنيعها هذا ، فأخذ يدمجها فى وسطنا العائلى ، اظهارا لتقديره لها ، قائلا انه قد عهد بى الى رعايتها.. **على اننى كنت ألمح فى كل اشارة أو نظرة منه اليها ، رغبة قوية .. كان يشتهيها !.. كنت أدرك هذه الرغبة خلال وميض عينيه .. الوميض الذى كنت كلما لمحت مثيله فى عينى « سيريل » أحار : أأمضى فى معابثته ، أم أفر منه ؟**

على أن مسلك « آن » نحو أبى كان يتسم بعدم اكتراث ، وبصداقة هادئة ، مما طمأننى ، فبدأت أرى اننى اخطأت حين خلت منذ اليوم الاول انها تحبه ، وما خطر لى ان هذا الازورار أو عدم الاكتراث ، كان خطة مدبرة لاستثارة أبى واذكاء رغبته! .. ولا خالج «ايلسا» المسكينة أى ارتياب أو توجس ! ..بيد انها لم تلبث ذات يوم ان فطنت الى نظرات أبى ، فمالت ــ قبل الغداء ــ على أذنه هامسة . وبدا على أبى شىء من الحرج ، ثم هز رأسه وابتسم . فلما فرغنا من الغداء ، سارت « ايلسا » الى

الباب ، ثم استدارت فى حركة مثيرة ، وقالت بصوت يفيض بالاغراء : « ألست قادما يا ريمون ؟ » ٠٠ ونهض أبى متمتما ببضع كلمات عن القيلولة ٠ ولم تحرك « آن » ساكنا ، وقد أوشكت سيجارتها أن تحرق اصبعيها ، فقلت : « يزعم بعض الناس أن القيلولة تكسب الجسم راحة ، ولكنى أراها على العكس ! »

ولم أتم حديثى ، اذ قالت « آن » فى خشونة : « كفى ! »٠٠ وخيل الى أنها أحست بغيرة من « ايلسا » ، وان لم يظهر على وجهها شيء ٠٠ ولم أتمالك أن قلت : « ما أرى هذه القيلولة تثير فى كيانهما شيئا ، لا سيما وان جلد ايلسا ملتهب من أثر الشمس ! » ٠٠ فقالت فى حزم : « اننى اكره منك مثل هذا الحديث ، فهو لا يتناسب وسنك ! » ٠٠ وأحنقتنى لهجتها ، فقلت مغيظة : « انما كنت أمزح ، فالواقع انهما سعيدان معا ! » ٠٠ والتفتت نحوى مغضبة ، فاعتذرت ٠ واذ ذاك أغمضت عينيها ، وقالت بصوت خافت ، متئد : « **ان أفكارك عن الحب بدائية ٠٠ فهو ليس مجرد سلسلة من الفورات والانفعالات الحسية ، كل انفعال منها مستقل عن الاخر ، وانما الحب يختلف عن ذلك ٠٠ انه احساسات عميقة ، باقية ٠٠ كالحنان ، واللطف ٠٠ انه شعور يوحى للمرء بانه حائر ، تائه !** »

وشعرت ـ بالرغم منى ـ بانها كانت على حق ، وباننى كنت تحت سيطرة غرائزى ، أترنح يمنة ويسرة ، بفعل التأثيرات التى يتركها الغير فى نفسى ! ٠٠ **ما من مرة أحببت فيها ، الا وتمثل حبى فى انفعال مفاجىء ، يثيره وجه ما ، أو حركة ، أو قبلة ٠٠ كنت ضحلة العواطف، ضعيفة الشخصية !**٠٠وصعدت الى غرفتى ، فاستلقيت على فراشى ، وكلمات « آن » تتردد فى أذنى : « انه يختلف عن ذلك ٠٠ انه شعور يوحى للمرء بانه حائر تائه ! »

وانقضى اسبوعان آخران لا احتفظ لهما بغير ذكريات مبهمة ٠

أما بقية فترة الصيف فأذكرها بوضوح ، نظرا للـدور الذى اخترت لنفسى القيام به

* * *

◆ **وكانت** تلك الاسابيع الثلاثة الاولى ـ التى قضيناها فى المصيف ـ من أسعد الاسابيع فى حياتى ٠٠ ولست أذكر تماما متى بدأ أبى يعامل « آن » بنوع جديد من الالفة ٠٠ فقد كانت تطغى على بصيرتى فكرة غبية توحى الى بأنهما ظلا على تعارف خمس عشرة سنة ، فلو انهما شاءا ان يتحابا ، لما انتظرا كل هذا العمر !٠٠ وكنت أحسب انهما لو كانا قد ارتبطا بالحب خلال تلك السنين ، لما دام حبهما اكثر من ثلاثة أشهر ، ثم لهجر أبى « آن » وتركها فى غمرة الذكريات ، والشعور بالهوان ٠٠ ولكننى كنت أعود فأرى ان « آن » لم تكن بالمرأة التى يسهل على أى رجل از ينبذها !

على اننى شغلت خلال هذه الاسابيع بسيريل ٠٠ كنا نخال أحيانا ان كلا منا متيم بالاخر ، ثم لا نلبث فى الصباح التالى ان ننسى كل شىء ٠ وكان أبى يصحبنا احيانا فى القارب ، أو فى السباحة ، اذ كان قد أعجب بسيريل ٠ وكنت أحيانا أسائل نفسى ـ لفرط رزانة سيريل واحتشامه ـ أيهما الرجل الناضج ٠٠ أبى أم هو ؟!

ثم توالت التطورات السريعة ٠٠ فقد دعانا أبى ذات يوم الى ان نذهب الى (كان) ، فنقضى السهرة فى الرقص ، وفى المقامرة٠ وتحمست « ايلسا » فرحة ، فقد كانت تحب جو « الكازينو » ، والظهور فى المجتمعات ٠ ولم تعارض « آن » كما كنت أتوقع ٠٠ بل انها بدت ـ حين تأهبنا للرحيل ـ فى أناقة وزينة تبهران الانظار ! ٠٠ أما « ايلسا » فكان جلدها قدأصابه التسلخ من أثر الشمس وماء البحر الملح ، وحاولت أن تمسحه بالبودرة ،فاذا « البودرة » تزيد من تشويه منظره !٠٠ **ولم يقو أبى عـلى أن يخفى اعجابه المشبوب بآن ، فهتف : « ما أروعك يا آن ! »** ٠٠

ولكنها تجاهلته مبتسمة ، واقترحت عليه أن يصطحب «ايلسا» فى سيارته ، وان أرافقها انا فى سيارتها ، ثم نلتقى فى « الكازينو » • وظلت « آن » صامتة وهى تقود السيارة • وتعرض لها أبى بسيارته معاكسا فى الطريق ، فتفادته دون أن تهتز فى جسمها جارحة !•• وشعرت باننى أشهد مسرحية لم يعد بوسعى أن أقحم نفسى فيها !

وفى « الكازينو » ، قام ابى بلعبة ماكرة ، فاذا بكل منا يضل عن رفاقه • والتقيت بايلسا اخيرا عند « البار » ، وكانت تقف مع شاب اسمر من أمريكا الجنوبية ، ثم تركتنا معا وانصرفت • ووقفت أشرب ، دون أن أعى شيئا مما كنت أفعل • وما لبثت « ايلسا » أن عادت تعلن انها لم تعثر على أثر لأبى و « آن » ، فانطلقت ابحث عنهما فى كل مكان • وخطرت السيارة ببالى أخيرا ، فسعيت اليها • ومن خلال الزجاج الخلفى ، رأيتهما يجلسان جنبا الى جنب ، ويد ابى على ذراع « آن » ، وشفاههما تتحرك ، مما نم عن انهماكهما فى حديث خافت • واقتربت ، ثم قلت متأدبة : « هل استمتعتما بوقتكما ؟ » •• فصاح أبى منزعجا : « ماذا جرى ؟ » •• واذ اجبته بان « ايلسا » تبحث عنه ، التفتت « آن » نحوى ببطء ، وقالت : « اننا عائدان الى البيت ، فقولى لها اننى متعبة ، وان أباك أقلنى فى سيارته ، وعندما تفكران فى العودة ، استقلا سيارتى »

وهتفت : « ولكن هذا شىء معيب ! » •• وتساءل أبى مأخوذا : « وما هو هذا الشىء المعيب ؟ » •• فقلت : **« ان تصحب فتاة حمراء الشعر الى المصيف ، وتعرضها للشمس حتى تتسلخ بشرتها ، ثم تهجرها •• ماذا أقول لايلسا ؟•• أأقول لها ان أبى وجد امرأة أخرى يضاجعها ؟ »**

وصاح أبى مبهوتا •• وهوت يد « آن » على صدغى !•• واسرعت ابعد وجهى عن السيارة وقد آلمتنى الصفعة • وامرنى أبى بالاعتذار ، ولكننى سمرت فى مكانى ، وقد راحت الأفكار

تدور فى رأسى كالاعصار • وما لبثت « آن » أن تحسست خدى فى لطف ، وقالت : « لا تكونى رعناء •• اننى جد آسفة من أجل « ايلسا » ولكنك من اللباقة بحيث تجيدين تدبير كل شىء!» •• وشيعتهما بنظرى ، وقد انطلقت بهما السيارة ، ثم سرت الى « الكازينو » ، ورويت لايلسا قصة مبتكرة عن مرض أصاب « آن » ، وجعلها تتقايأ وتفسد ثوبها !•• ولم تنطل الحيلة على « ايلسا » ، فراحت تنتحب فى خفوت ، وحزن ••ثم غمغمت: « أواه يا سيسيل ••لقد كنا هانئين! »•وشعرت أنا بالكراهية نحو «آن» وأبى •• وما كنت لأضن بشىء كى تكف « ايلسا » عن البكاء • وأبت المسكينة ان تعود معى الى البيت ، قائلة انها ستأتى فيما بعد لتأخذ ثيابها • وأضافت باكية : « وداعا يا سيسيل •• لقد كنا معا على وئام ! »

* * *

◆ **استيقظت** فى الصباح التالى متعبة لافراطى فى الشراب فى الليلة السابقة • ولم اشعر بميل الى ترك الفراش، بل رحت أفكر فيما يكون عليه موقف أبى و « آن » اذا جاءت « ايلسا » فى هذا الصباح لتنقل ثيابها • ونهضت أخيرا ، فوقفت أمام المرآة أتأمل نفسى •• وخيل الى أن الوجه الذى انعكس على المرآة كان وجها غريبا عنى •• **وجها تبدى فى أساريره الضعف والجبن !•• وطاب لى أن أزدرى شكلى ، وأن أكره وجهى الذى بدا كوجه الذئب •• ولذ لى أن أصفه بأن «التبذل» أرهقه !•• وفجأة ، رأيتنى أبتسم لهذا الوصف •• يا للتبذل !•• بضع كؤوس من الشراب ، وصفعة ، وبعض الدموع !**

وكان أبى و « آن » يجلسان فى الشرفة حين هبطت ، وهما يتناولان الفطور ، فجلست أمامهما فى صمت•وكانا يبتسمان فى هناء ، وقد سادهما صمت غريب ، غامض ، مشحون بالتساؤل والانتظار ، مما حملنى على أن اسألهما عن سببه • وأشعل ابى سيجارة ، بينما بدت معالم الارتباك على وجه «آن»

للمرة الاولى منذ عرفتها ٠٠ وأخيراً قالت : « **اننى واباك نبغى الزواج !** »٠٠ وحملقت فيها ، ثم فيه٠٠ وتوقعت منه أية اشارة، ولو غمزة من عينه ، ولكنه راح ينظر الى يديه ٠٠ وقلت أخيرا ، ريثما استجمع شتات فكرى : « فكرة طيبة ! »

لم أفهم كيف قرر أبى الزواج من «آن» ، بعد ليلة واحدة قضاها معها ، وهو الذى كان يعارض الزواج وقيوده فى عناد واصرار ٠ كان معنى ذلك اننى واياه سنفقد استقلالنا٠ وتمثلت حياتنا العائلية وقد سادها الوقار والاحتشام فجأة ، لوجود « آن » ٠٠ وتمثلت أصدقاء الاسرة ، وكيف سيصبحون من ذوى اللباقة ، والذوق ، والرصانة ٠٠ ووجدتنى أشعر بكراهية لحفلاتنا الصاخبة ، والغانيات السمراوات من أمثال « ايلسا » ٠٠ شعرت باننا اسمى من هذا منزلة وقدرا ، فعدت اكرر مبتسمة : « انها فكرة طيبة جدا »

واطمأن أبى ، واغتبط ٠٠ وازداد اشراق وجه « آن » ، فبدت اكثر تأثيرا على النفس من ذى قبل ٠ وجرنى أبى، فركعت بينهما ، وراح الاثنان يتخللان شعرى بأصابعهما وهما يرمقاننى بحنان ٠ وشعرت باننى لا أزيد عن قطة صغيرة وادعة بينهما ٠ ودار بخلدى أن ماضيا ومستقبلا قد جمعاهما بروابط لم أكن أعرفها ، ولن تمتد قط الى !٠٠ وأحسست باننى سعيدة ، فما كنت لاجد عيبا فى « آن » ٠ وكانت هى أهلا لان ترشدنى فى حياتي ، ولأن تحمل عنى المسئوليات ، وتكون خير عون لى عند الحاجة ٠ وذهب أبى ليحضر زجاجة من الشمبانيا ، فقالت « آن » :

ـ كنت خائفة منك! ٠٠ كنت خائفة من أن ترهبى وجودى !

وضحكت لقولها ٠٠ فلقد أرادت أن تشعرنى بانها عرفت اننى أوجست منها فى البداية ، وان لا داعى لهذا التوجس ٠ وما لبث أن عاد أبى بالزجاجة ، فى خطى مرحة ، فجلس الى جوار « آن » ، وطوقها بذراعه ، فالتصقت به ٠ وأشحت انا بوجهى

محرجة ٠٠ كانت ولابد مقبلة على الزواج منه بسبب ضحكته السعيدة هذه ، وبسبب الطمأنينة التى توحى بها ذراعه التى طوقتها !٠٠ **فالمرء فى سن الاربعين يتعرض للشعور بالوحدة ، ولفورة أخيرة تنتاب أحاسيسه وعواطفه !٠٠ ما فكرت قط فى « آن » كامرأة ، من قبل !٠٠ لقد اعتدت أن أراهامعتدة بنفسها، رشيقة ، بارعة ، ولكنها لم تكن قط عاطفية ، ضعيفة !٠٠ترى هل أحبها أبى ، والى متى سيظل مقيما على حبها ؟!**

ورحنا نرسم المشروعات لاعادة تأثيث بيتنا ، وللنظام الذى ستسير عليه الحياة فيه ٠ ترى هل اعتقد أبى حقا أن فى مقدوره أن يتبع نظاما معينا ، مرسوما ، فى حياته ؟٠٠ لقد كان ـ على أية حال ـ مغتبطا ، مستعدا لان ينزل عن بوهيميته !

لشد ما أذكر ذلك الاسبوع ٠٠ كانت « آن » قد تحللت من تحفظها ، فبدت مطمئنة ، وديعة ٠ وبدا أبى مدلها فى حبها ٠ وكان الناس يرون فينا ـ أينما ذهبنا ـ أسرة سعيدة ، هانئة ٠ ولكم دهش « سيريل » للتطور الذى ألم بنا ٠٠ على انه ارتاح حين عرف ان علاقة أبى بامرأته الجديدة ستكون علاقة شرعية!٠٠ وكنت اخرج معه فى القارب ، ونتبادل القبلات وانا اتمثل الاشراق الذى انبثق من وجه «آن» ، والبهاء الذى خلعه الحب على جسمها وحركاتها !٠٠ **ولو لم يكن « سيريل » صادقا فى حبى ، لغدوت خليلته فى ذلك الاسبوع !٠٠ كنا اذا عدنا من البحر فى الساعة السادسة ، نجرى فى الغابة متسابقين حتى تتقطع انفاسنا، ولا يلبث ان يمسك بى، فينقض على، ويطرحنى أرضا ، ويقبلنى ٠ ما زلت أذكر قبلاته تلك ، وأنفاسه المبهورة، وقلبه وهو يخفق فوق قلبى ،وحفيف الامواج وهى تلثم الرمال ٠٠ ثم يتمالك أنفاسه ، فتتسارع قبلاته ، ويخفت خرير البحر ، ويشتد خرير الدم الذى يجرى فى عروقى !**

* * *

◆ **وفى** ذات مساء ، فوجئنا بصوت « آن » ونحن على هذا



الوضع ! ٠٠ ونادتنى بحدة ، فقفز « سيريل » على قدميه وقد تولاه الخجل ٠ أما أنا ، فقد ظللت أحدق فى « آن » ، ثم نهضت فى تباطؤ ٠ وقالت لسيريل فى صوت هادىء : « لا أحب أن أراك ثانية ! » ٠٠ فلم يجب الشاب ، بل انحنى وقبل كتفى ، ثم انصرف ٠ وظلت « آن » ترمقنى بنظرة شاردة ، وكأنها تفكر فى أمر آخر ٠ وغاظنى مسلكها ، فسعيت اليها ، واذ ذاك بدا عليها أنها انتبهت لوجودى ٠ ورأيت وجهها يسترد قناعه الجميل ٠٠ قناع الاستياء ، والاستهجان ، وقالت : « **خليق بك أن تعرفى ان هذا العبث ينتهى عادة فى بيوت الحضانة !** » ٠٠ وحدجتنى بنظرة جامدة ، فشعرت باستحياء وخزى ٠ كانت من تلك النساء اللائى يحتفظن بشباتهن فى أحرج المواقف !

وقلت مبتسمة : « لا تبالغى ٠٠ انما كنت أتبادل بضع قبلات مع سيريل ، وليس هذا بالشىء الذى يؤدى الى دور الحضانة ! » ٠٠ فقالت : « أرجو أن لا تقابليه ثانية ٠٠ انك فى السابعة عشرة ، وأنا اشعر الآن باننى مسئولة عنك ، ولن أتركك تفسدين حياتك ! »

وتحولت عنى عائدة الى البيت ، وقد عاودها مظهر عدم المبالاة ٠ وسمرت في مكانى وقد دهمنى شعور بشر مرتقب ٠٠ كانت تعنى كل كلمة من قولها ، ولن يجدى الجدال ٠٠ فسوف تتلقى حججى فى غير اكتراث ، كعهدى بها ، وكأننى حشرة ضئيلة ! ٠٠ وعلقت كل املى على أبى ، وعلى ما ألفته منه من تسامح واستهانة !

ولم تحاول « آن » قبل العشاء أن تعدنى بان لا تفضى لابى بشيء ، اذا انا وعدتها بان انصرف الى الاستذكار ٠٠ فما كان من أخلاقها أن تساوم !٠٠ **وساءنى انها حرمتنى الفرصة كى ازدريها ، وانها تجنبت كل حركه فيها تظاهر واصطناع !٠٠** وكان العشاء فى تلك الليلة كابوسا ٠ وما أن فرغنا من الحساء، حتى قالت : « أحب أن توجه لابنتك بعض النصح يا ريمون ، فقد وجدتها مع سيريل فى الغابة ، وقد تجاوزا حدودهما ! »

وحاول أبى أن يتفادى الموقف بدعابة ، ولكنى قلت : « كنت أقبله ، فظننت آن ٠٠ » ٠ ولكنها قاطعتنى قائلة : « ما ظننت شيئا ، ولكنى رأيت من الخير أن تكفى عن مقابلته ، وان تنصرفى لاستذكار الفلسفة!» ٠٠فغمغم أبى : «يا للمسكينة الصغيرة!٠٠ ثم ان سيريل لطيف ! » ٠ واذ ذاك قالت : « **وسيسيل لطيفة٠٠ ولهذا فسوف يدمى قلبى ان يصيبها ضر ٠٠ ولكن يبدو لى أن لا مفر من هذا ، اذا ظلت على حريتها المطلقة ، ولقاءاتهما المستمرة!** »٠٠وتطلعت الى أبى فرأيته يضطرب منزعجا ٠ وما لبث أن قال : « ربما كنت على حق ٠٠ ومهما يكن من الامر ، فخليق بك يا سيسيل ان تنصرفى الى الاستذكار ، فما أظنك راغبة فى أن ترسبى فى الفلسفة ثانية ، وان تعيدى العام ! » ٠٠ فصحت : « وماذا يهمنى ؟ » ٠٠ فتأملنى مليا ، ثم حول بصره ٠٠ واذ ذاك أيقنت أن التسويف قد يجدى !

* * *

◆ **وفى** الصباح التالى ، جلست استذكر فلسفة « بيرجسن »، واذا بهذه الفقرة تصادفنى : « **مهما يبدو للمرء ـ فى البداية ـ من انقطاع العلاقة بين السبب والنتيجة ، ومهما تعز القاعدة التى تهدى الى الحكم على أصول الامور ومنابتها ، فان المرء لا يستمد القدرة على حب الانسانية ، الا من احتكاكه بالقوة المولدة للحياة !** » ٠٠ ووجدتنى اكرر هذه العبارة ، ثم أعتمد رأسى

بين راحتى ، واطيل النظر الى الكتاب • وفهمت العبارة أخيرا ، فسرت فى أوصـــالى برودة !•• ولم أقو على الاستمرار فى الاستذكار ، فنهضت وارتميت على الفراش

وتمثلت «سيريل» ينتظرنى عند البوغاز الصغير••واستعدت لذة قبلاتنا •• ثم وجدتنى افكر فى « آن » على نحـــو جعلنى أستوى جالسة ، وقد تسارعت دقات قلبى • ورحت أتهم نفسى بالطيش والحماقة ، وبأننى مدللة مفسودة ، كسول ! •• **ومع ذلك ، فقد مضيت فى تفكيرى على الرغم منى ، فتمثلت خطورتها، وجال بخاطرى ان لابد لى من التخلص منها !•• كانت توحى الى بشـــعور يجعلنى أزدرى نفسى وأحتقرهـــا •• أنا التى خلقت للسعادة والمرح ، كنت مجبرة ـ بفضل تأثيرها ـ على أن أنقب عن عيوب نفسى ونقائصها لأنتقدها !** •• ثم ، ما الذى أفدت منها ؟•• لقد رغبت فى أبى ، فنالته ، ولن تلبث شخصيتها أن تطغى على شخصيتينا معا ، فتهذبنا ، وتسعدنا •• أجل ، كانت قادرة على أن تسعدنا ، ولكن •• بان تخضـــعنا للنظام الذى ترتضيه لحياتنا !•• وتبادرت الدموع الى عينى وانا اذكر حياتنا المرحة ، وفكاهات ابى وضحكاتنا ونحن ننطلق فى شـــوارع باريس الحالية فى أواخر الليل !•• لقد انتهى كل هذا • ولن تلبث مقاومتى ان تركد خلال ســـتة أشهر ، فاستسلم لآن تشكلنى كيفما تشاء !

ولكن ، قبل أن استسلم ، يجب ان آبذل كل ما فى وسعى لاسترد أبى وحياتنا السابقة • حقيقة اننى كنت لا أزال عجينة رخوة ، ولكن ينبغى أن أرفض أن يتحكم أحد فى تشكيلى !•• ومهما تكن العقد النفسية لدى ، فان الاسباب الحقيقية لتفكيرى هذا ، كانت تتمثل فى الحر ، وفلسفة «بيرجسن» ، و «سيريل» •• أو غياب «سيريل» على الارجح !•• وظللت طيلة الاصـــيل مستغرقة فى التفكير ، أشعر باننا غدونا تحت رحمة « آن » !•• ولم أنبس ببنت شفة حين جلسنا للعشاء فى ذلك المساء ، ولا

أثناء الفطور فى الصباح التالى • وحاول ابى ان يداعبنى ،ولكنى كنت أنتفض حنقا •• كان يحبنى صادقا من قبل ، ولكنه اليوم يتخلى عنى ، وقد أصبح هـو الآخر أعزل ، مستضعفا !•• وتطلعت اليه ، قائلة فى نفسى : « انك لم تعد تحبنى •• لقد خنت عهدى » !•• وجزع لوجومى ، وأحس بأن علاقتنا مهددة• وقالت « آن » فجأة : « انك لست على ما يرام •• لكم أنا آسفة اذ حملتك على الاستذكار ! »

ولم أجب ، فقد غاظنى من نفسى ان انسقت طواعية الى موقف لا سيطرة لى عليه • وجلسنا فى الشرفة بعد العشاء •• ولمحت يد « آن » تمسك بيد أبى فى انفعال ، فهفا فكرى الى «سيريل»، وتقت الى أن أرتمى فى أحضانه فى ضوء القمر الذى غمر الشرفة!•• وشعرت بحنين الى من يدللنى ، ويواسينى ، ويهدىء من نفسى • وجال بخاطرى ان ابى و « آن » يتأهبان لليلة حافلة بالهوى ، أما أنا •• فأتأهب لفلسفة «بيرجسن» !•• وحاولت أن أبكى ، وان أرثى لنفسى ولكن دون جدوى ، اذ أحسست بان آن هى الجديرة بالرثاء •• وكأنما ضمنت الانتصار عليها !

- ٢ -

◆ لكم يدهشنى ان أذكر الآن كل شىء بوضوح ! •• كنت قبل ذاك اليوم لا أحمل هما ، ولكننى أصبحت مضطرة الى ان أفكر ، وأنا أتأمل نفسى بعين ناقدة •• وكم حدثت نفسى بأن مشاعرى نحو « آن » مهينة ، حمقاء ، وان رغبتى فى أن أفرق بينها وبين أبى رغبة دنيئة !•• ولكننى كنت لا ألبث أن ألتمس المبررات • وهكذا شعرت - وللمرة الاولى - بأننى انقسم على نفسى!•• وكثيرا ماكنت أخلو فى غرفتى ساعات طوال أناقش نفسى • وأخذ الهزال يستولى على يوما بعد يوم• ولزمت حول المائدة صمتا واجما ، لم يلبث ان أقلق الآخرين • وكنت طيلة الوقت أرمق « آن » ، وأسائل نفسى : « ألا تنطق كل حركة من حركاتها بحبها له ؟•• وكيف أحقد عليها ، وهى تبتسم لى وترمقنى فى قلق ؟ » •• ثم أذكر انها ستقاسمنا حياتنا ، وتتدخل فى شئوننا ، فيثور حنقى ، وأروح أقارن بينها وبينى وأبى :

كانت باردة العواطف ، وكنا مشبوبى القلب • كانت تميل الى السيطرة ، وكنا محبين للاستقلال • كانت تبدى عدم المبالاة بالغير ، وكنا نحب الناس • كانت رصينة ، وكنا مرحين ! •• لسوف تدفىء عواطفها على نار قلبينا ، فتسلبنا رويدا حرارتنا العاطفية •• لسوف تتسلل بيننا - مثل حية جميلة ! - فتسلبنا كل شىء ! •• وما ألبث ان أرتد الى تعقلى ، فأقول لنفسى : « هذا جنون !•• أليست هذه « آن » الصديقة التى كانت بارة بك ؟ » •• وأروح أبرر كل اختلاف بدا لى بينها وبيننا • وأشعر بالخزى ، فأتطلع اليها مستغفرة • وكانت تنتبه الى نظرتى أحيانا ، فيكفهر وجهها فى دهشة وحيرة ، ويغشاها الاضطراب - ثم تنظر الى عينى أبى ، ولكنها لم تكن تجد فيهما سوى الاعجاب ، والشهوة !•• لم يكن يدرى سرا لقلقها !•• على ان جو البيت ما لبث ان توتر بدرجة لا تطاق ، فكرهت نفسى لذلك !

وكان أبى - فى شغفه الجنونى بآن - لا يكاد يشعر بهذا الجو • ولكنه ذات يوم ، أطال تاملى وانا مستلقية على رمال الشاطىء ، ثم صاح بآن : « ألا انظرى الى هذه المخلوقة العجفاء •• اذا كانت هذه نتيجة الاستذكار ، فيجب ان تتخلى عنه ! » •• وخيل اليه ان فى هذا ترضية لى ، ولكنى كنت قد ذهبت بعيدا فى خلواتى بغرفتى • وقالت « آن » : « من المؤكد ان الاستذكار لا يروق لها •• ولكن ، ليتها كانت تستذكر ، بدلا من ان تذرع غرفتها ! » •• وعجبت فى نفسى: كيف عرفت اننى لم أكن أستذكر ؟ •• أكانت تقرأ أفكارى ؟! •• وسألنى أبى : « هل أنت حزينة لفراق الفتى ؟ » •• وأجبت بالنفى ، فاننى لم أكن أجد وقتا للتفكير فيه ، وأنا منهمكة فى تدبير خطتى

واستطردت آن بعد قليل : « ألا اجتهـــدى يا عزيزتى •• ان النجاح فى الامتحان •• » ، فصحت فيها : « لست أحفل بالامتحان •• ألا تفهمين ؟! » •• ورمقتها بنظرة ثابتة •• ووددت لو تسألنى عما أحفل به •• لو تقسرنى على ان أفضى اليها بما كان يدور فى نفسى ورأسى ، فان الافضاء يريحنى من العذاب •• ولكنها تأملتنى طويلا فى اهتمام ، ثم تحسست عنقى بيد هادئة ، رزينة ،وقالت: «لا تعقدى الحياة لنفسك •• ان التفكير والحزن لا يلائمانك !» • ونهضنا للغداء • وكان أبى قد ابتعد عنا ، اذ كان يكره النقاش المفعم بالتحدى • وفى الطريق الى البيت ، أمسك بذراعى ، فشعرت براحة وطمأنينة •• وضغطت يده فى قوة ، فالتفت وابتسم لى !

★★★

◆ وانقضى يومان ، وأنا لا أقوى على التخلص من الفكرة التى أوحت الى بأن «آن» توشك أن تهدم حياتنا !•• ولم أر « سيريل » ، اذ لم أكن راغبة فيمن

يسرى على افكارى ، بل اننى كنت أجد متعة فى ان استرجع ذكريات الأيام الماضية ، وان اصور لنفسى بشاعة الأيام القادمة ! ٠٠ وكان الجو حارا ، وأنا مستلقية على فراشى ، وقد أغلقت مصاريع النوافذ فسادت العتمة فى الحجرة ٠ ورحت أتطلع الى السقف ، لا أكاد أحير حراكا ٠ وعند طرف السرير ، كنت أضع « الجراموفون » ، وأدير عليه اسطوانات اختارها من الألحان الخافتة ، البطيئة ، وأسرف فى التدخين ٠٠ كنت حزينة ، حائرة !

واقبلت « ايلسا » بعد ظهر ذات يوم تنشد ثيابها ، فصحبتها الى غرفتى لأجنبها مقابلة أبى و « آن » ٠ ودهشت اذ رايتها اكتسبت جمالا جديدا ٠٠ كانت البشرة الملتهبة قد سقطت ، وحلت محلها سمرة متناسقة ، جميلة ، زادت شبابها نضارة

وقالت « ايلسا » : « جئت أنشد ثيابى ٠٠ لقد ابتاع لى جوان بضعة أثواب، ولكنها لا تكفى ! » ٠٠ ولم أسألها عن « جوان » هذا ، ولكنى لاحظت ان جو « البارات » والسهرات المرحة يحوطها ٠٠ ولاحظت كذلك انها كانت لا تزال تحب أبى !٠٠ وأنصت اليهـــا وهى تشرح لى فى أســـلوب براق حياتها فى (الريفييرا) ، بينما اصطخبت فى رأسى أفواج من الأفكار المتضاربة ٠وسألتنى فجأة عما اذا كان « ريمون » سعيدا ٠ وفى تلك اللحظة ، واتانى الالهام ، فقلت : « ان كلمة « سعيد » تنطوى على كثير من المبالغة ٠٠ على ان « آن » لا تدع له فرصة للتفكير فى حاله ٠٠ انها ماهرة جدا ! » ٠٠ فرددت كلمة «جدا» وهى تتنهد ٠ وقلت : « لن تصدقى ما استدرجته اليه ٠٠ لسوف تتزوج منه ! »

والتفتت « ايلسا » فى استنكار وجزع ، وهتفت : « تتزوج منه ؟ ٠٠ وهل يرضى « ريمون » بالزواج ؟! » ٠٠ وغشيتنى رغبة طارئة فى ان أقهقه ، وراحت يداى ترتجفان ، وأنا أرقب « ايلسا » المذهولة ٠ ورأيت ان لا أدع لها فرصة كى تتذكر ان أبى بلغ السن التى يحق له فيها ان يتزوج وان يستقر ، فملت عليها فجأة ، وقلت بصوت خافت : « يجب ان لا يتم هذا يا ايلسا ٠٠ انه يتعذب من الآن ، فان أحوالنا لا تطاق ٠٠ وأنت الشخص الوحيد الذى كنت أرتقبه ، لأنك الوحيدة التى تستطيع ان تقف أمام « آن » ، وان توقفها عند حدها ! » ٠٠ واطمأننت الى انها بدأت تنزلق فى الشباك ، فمضيت أقول : « اننى أعرف ان أبى لم يحب أحدا سواك يا ايلسا ! » ٠٠ ورأيت جفنيها يختلجان ٠ وأشاحت بوجهها تخفى الابتهاج والأمل اللذين بعثتهما كلماتى فى نفسها ، بينما استأنفت أنا حديثى : « لقد ظلت تحبب اليه الزواج ، ولكن حياتنا ستغدو ـ اذا ما تزوجا ـ خرابا ٠ يجب ان ننقذ أبى يا ايلسا ، فهو ليس أكثر من طفل كبير ! » ٠٠ ورحت اكرر كلمتى « طفل كبير » ، حتى فاضت

عيناها الخضراوان الجميلتان بالعطف والرثاء ، واذ ذاك هتفت في ضراعة : « ألا ساعديني يا ايلسا ! .. لمصلحتك ولمصلحة أبي .. ولأجل الحب الذي يجمع بين قلبيكما ! »

فتساءلت : « وماذا أفعل ؟ » .. ثم تمتمت مغيظة : « يا للفاجرة ! » ، فقلت : « أصبت الوصف ! » .. وأدركت انني وفقت الى استثارة حماسها ، والى اذكاء الرغبة في نزال غريمتها .. فقد كانت تحب ابي ، وكانت تعرف انه يحبها ، وهي لم تثقل عليه قط بطلب الزواج ، بل لم تفكر يوما في ان تذكرله كلمة « الزواج » ! .. واقترحت عليها ان تذهب الى « سيريل » وان تسأله باسمي ان يستضيفها ، ريثما اوافيها في داره غدا ، فنبحث الأمر . وقلت لها مازحة وهي تنصرف : « انك تناضلين من أجل مستقبلك ياايلسا ! »

وأخذت أرقبهاوهي تنصرف .وكانت الساعة الثالثة والنصف. وتخيلت أبي في أحضان «آن» في تلك الاثناء ، فرحت أذرع غرفتي ، وانا أفكر في خطة ..وأحسب حساب المخاطر ، والاحتمالات ، واجد لكل عقبة ما يذللها . وشعرت أخيرا بذكائي وقد أصبح خطرا ، فبدأت أزهو بمواهبي !

على ان كل هذا انهار ، حين هبطت الى الشاطىء للسباحه ، ورأيت أبي و « آن » . فقد غشيتني نوبة من الندم ، وتقت الى ان أكفر عن مسلكي ، فرحت أحمل عن « آن » حقيبتها ، وأضفي عليها ألوانا من الرعاية والمجاملة ! .. وكان من الطبيعي ان يدهشها هذا التحول الذي طرأ علي ! أما أبي فقد أغتبط كثيرا . وتذكرت ما قلته عن « آن » لايلسا ، فعجبت : كيف استطعت ان أقوله ! .. وقررت ان أتخلص في غدي من « ايلسا » وان أعكف على الاستذكار .. وقلت لآن : « ألا ترين ان البكالوريوس شهادة نافعة لي ؟ » .. فأطالت النظر الي ، ثم ضحكت قائلة : « انك عجيبة حقا ! »

وكنت عجيبة حقا .. ولو أنها عرفت بما دار في رأسي من مشروعات ، لازداد عجبها مني ! .. واستبد بي الشوق الى ان أطلعها على مدى غرابة تفكيري ، وان أقول لها : « هل يمكن ان تتخيلي انني كنت سأحمل « ايلسا » على التظاهر بحب « سيريل » ، فتقيم في بيته ، وتمر معه في قاربه أمامنا ، ويحومان معا في الغابة وحول دارنا ! .. لقد استردت « ايلسا » حسنها ، بل انها ازدادت نضارة ، وأضحى جمالها من النوع المتأجج الذي يكوي قلوب الرجال .. وما كان أبي ليقوى على مقاومته طويلا ، لا سيما حين يرى « ايلسا » تظهر مع شاب يصغره في السن .. أتفهمين ؟ .. انه لن يلبث ان يشتهيها ، ولو كان يحبك .. فهو متقلب العاطفة ، وما كنت لتحتملي أن يتصل بسواك وأنت معه .. فلست من النساء اللاتي يقبلن ان تشاركهن غيرهن في رجالهن ! .. ومن ثم ، فانك كنت خليقة بأن تهجريه .. وهذا ما كنت أبغيه ! .. وهي خطة رعناء ،

غبية ، ولكنني كنت محنقة اذ أجبرتني على الاستذكار ‥ أما الآن ، فقد آمنت بأن شهادة البكالوريوس مفيدة لى ! »

وجريت وراء أبى ، وقفزنا فى الماء نتصارع ، ونضحك، وقد عاد الينا ابتهاجنا القديم • وقررت أن أبدأ التحول من اليوم التالى ، فأنبذ خطتى الشريرة ، وأعكف على الاستذكار ، وأغدو مثقفة ، رزينة مثل « آن » !‥ وتذكرت جهل « ايلسا » ‥ الجهل الذى جعلها تنساق لى فى دقائق معدودات ، فشعرت بلذة فرض تأثيرى على الغير ! ‥ كانت تجربة جديدة ، أرشدتنى الى شىء كنت أجهله ‥ الى سير النوازع النفسية ، والى سلطان الكلام على النفوس !

★ ★ ★

◆ وتسللت الى دار « سيريل » فى الصباح التالى ، وأنا مترددة • وكنت قد أفرطت فى الشراب أثناء العشاء ، فى الليلة الماضية، حتى اضطر أبى و «آن» الى ان يحملانى الى الفراش • واستيقظت فى منتصف الليل لأتقايأ • فلما جاء الصباح ، كنت شاحبة الوجه ، بادية التعب ، مما ضاعف من حنان «سيريل» ، وجعله يظن اننى ألاقى من « آن » أسوأ معاملة • لذلك لم يثر كثيرا من الاعتراض حين أخذت أشرح له ولايلسا خطتى ، وأعرض كل ما قد يبدو فيها من ضعف • وكنت أحدق فى وجه « سيريل » الأسمر ، وقد طفح بالاهتمام • وداخلنى شعور غريب وأنا افكر فى ان « سيريل » يحبنى ويريد أن يتزوج منى !‥ وحين تبادلت معه بعض القبلات ، شعرت بأننى خلقت للقبلات لاللشهادات !‥ وكانت قبلاتى أقوى معول هدم اعتراضاته ، واستنكاره الاشتراك فى المؤامرة !

وعندما غادرت شريكى ، كان ضميرى لا يزال قلقا ، ولكنى رحت أتعلل بأن الخطة لا يمكن ان تنجح ، لأن أبى مولع بآن • ثم ان فى وسعى ان أقطع استرسال المؤامرة ، اذا ما شعرت بأن أبى يوشك ان يقع فى الشرك • ولم ألبث ان نسيت كل شىء ، اذ رحت أفكر فى حب « سيريل » ورغبته فى الزواج منى • ورحت أتمثله وهو يعيش معى ، وينام الى جوارى ، ولا يفارقنى مطلقا !

والتقيت بآن فى الشرفة ، فابتسمت فى رثاء ساخر ، وكأنها ترثى لحالى اذ أفرطت فى الشراب فى الليلة السالفة • وهبطنا مع أبى الى الشاطىء ، فرحنا نسبح ، ثم استلقينا على بطوننا فوق الرمال ، وسادنا هدوء شامل • وبعد لحظات ، مر قارب « سيريل » أمامنا ، فهتف أبى ضاحكا : « كأنى بسيريل لم يقو على البعاد ‥ أنصفح عنه يا آن ؟! » ‥ ورفعت رأسى وأنا أشعر بالخطر • وعاد أبى يقول : « ولكنه ليس قادما الى هنا ‥ وليس وحيدا » ‥ ونظرت « آن » الى القارب ، فتمنيت لو أنه غاب عن أبصارنا سريعا ! ‥ وما لبث أبى ان هتف : « يا لله ! ‥ انها ايلسا ! ‥ ان هذه الفتاة عجيبة ‥ لا بد انها

انشبت مخالبها فى الفتى ! » ٠٠ ولكن « آن » لم تكن مصغية اليه ، اذ راحت تتأملنى ٠ وأخفيت رأسى فى الرمال ، لأسترخزيى وخجلى ، فربتت عنقى وقالت: « انظرى الى ٠٠ هل تحقدين على ؟ » ٠٠ وانحنت فوقى فى قلق ورجاء ، فأرسلت انينا خافتا ٠ وتمتمت آن : « يا للطفلة المسكينة !٠٠ كانت غلطتى ٠٠ ذنبى !٠٠ ما أردت ان أسىء اليك ! » ٠٠ وظللت ساكنة ، وقد خامرنى عين الشعور الذى كنت احس به حين تلعق الأمواج الرمال من تحت قدمى ! ٠٠ ما تولانى – فى حياتى – احساس أقوى من الرغبة فى الفشل التى راودتنى اذ ذاك ٠٠ تمنيت ان أخفق فى خطتى ، وان أستسلم لآن بقية عمرى !

★ ★ ★

◆ لم يبد أبى حتى تلك اللحظة أى شعور ، اللهم الا الدهشة ٠ واخذ ، هو و «آن» ، يسرفان فى الترفق بى ليسترضيانى ، حتى لم أعد احتمل كرمهما ٠ وما لبثت ان وجدتنى مضطرة الى ان أعدل عن خطتى ٠٠ فاننى لم أعد أطيق ان أرى « سيريل » و « ايلسا » يسيران وقد تأبط كل منهما ذراع الآخر ، رغم اننى صاحبة الخطة ! ٠٠ وكنت اذا صادفتهما ، أو رأيتهما فى القارب ، أتظاهر بعدم الاكتراث ، فترمقنى « آن » بنظرة عطف ، وتحاول ان تلهينى بالحديث وتربت كتفى فى مواساة !٠٠ ولست أدرى هل كان عطفها هذا من ايحاء شعورها بأنها حرمتنى فتاى ، أو لما اعتادته من الشعور بأننى أصغر منها واضعف ؟! ٠٠ ولكن ، سواء أكان هذا أو ذاك ، فاننى ما كنت أجد رعاية افضل من رعايتها ، لو كنت تعيسة حقا ! ٠٠ ولما لم يبد أبى شيئا من الغيرة ، فان وخز ضميرى لم يلبث ان خف ، وتركت الامور تجرى فى أعنتها ٠ على اننى فى الوقت ذاته شعرت بالغيظ لخيبة تقديرى ، لاسيما وان مسلكه أكد لى ولعه بآن!

وكنت أسير معه ذات يوم ، حين مررنا بايلسا ٠ وتجاهلتنا ، ولكن أبى التفت خلفه يتأملها ، ثم أرسل صفيرا ينم عن دهشة ، وقال : « ألا ترين أنها ازدادت حسنا ؟ » ٠٠ فقلت : « يبدو انها سعيدة بحبها الجديد ! » ٠٠ فتطلع الى مندهشا ، وقال : « أرى انك لا تحقدين عليها لأنها فزت بسيريل ٠٠ ولكن ٠٠ لولا آن ٠٠ ما أظنك تعتقدين اننى كنت اسمح لولد بأن يختطف منى امرأة بدون رضاى ؟! »٠٠ فقلت : « ان للسن حكما ! »

ولاحظت – ونحن عائدان – انه كان مهموما ، يفكر ٠ ولعل سهمى أصاب مرماه ، ففطن الى أن « سيريل » و « ايلسا » شابان ، وانه بزواجه من امرأة فى مثل عمره ، قد نقل نفسه من ذلك الفريق من الرجال الذين لا حساب للعمر لديهم ! ٠٠ وخالجنى شعور بالفوز ، ولكنى لم البث ان خجلت من نفسى حين رأيت التجعدات الخفيفة التى كانت تحيط بعينى « آن » وفمها !

ومر أسبوع • ولما كنت أخشى ان أذهب الى دار « سيريل » حتى لا أنساق الى متابعة خطتى ، فقد أخذت أعتكف فى غرفتى بعد ظهر كل يوم ، أحاول ان استذكر •• ولكننى لم أكن أفتح كتابا ما ، اللهم الا كتابا فى « اليوجا » ، رحت أقرأه وأدرب نفسى على تعاليم هذا المذهب من مذاهب الرياضـــة العقلية لدى الهنود ! •• وفاجأتنى « آن » مرة وأنا أقوم بهذه التمرينات ، فسمرت لحظة فى مكانها ، ثم ابتسمت ، فقلت : « انها فلسفة الهنود ! » •• ولكنها سارت الى المنضدة ، وتناولت الكتاب مهمومة ، ثم قالت : « لن يعنى سواك بأن تلعبى بدلا من ان تجتهدى •• ولكن الأمر يختلف حين تكذبين على أبيك وعلى ! »

وغادرت الحجرة ، وتركتنى مبهوتة • ولم أدر لم اختارت ان تستعمل كلمة « تكذبين » ! •• على ان ازدراءها جعلنى أشعر بالهوان والغيظ !

* * *

◆ وأسرعت أرتدى « بنطلونا » وقميصا قديما ، ثم اندفعت مغادرة البيت ، وظللت أجرى ـ مدفوعة بقوة الغضب المشوب بالخزى ـ حتى بلغت دار «سيريل» • وتسللت صاعدة الى غرفته مباشرة • وكان مستلقيا على سريره ، وهو مستغرق فى النوم • ولأول مرة بدا أمامى ضعيفا ، أعزل ، كطفل صغير ! •• وناديته ، فما ان فتح عينيه ، حتى هتف يسألنى عما جرى ، فأشرت اليه بأن لا يتكلم حتى لا تسمعنا أمه ، فلو انها اقبلت لظنت •• بل ان اى امرىء كان خليقا بان يظن بنا الظنون ، اذا ما رآنا فى ذلك الموقف ! •• وانتابنى جزع مباغت ، فاتجهت الى الباب ، ولكنه اسرع فامسك بذراعى ضاحكا • والتفت اليه ،فرايت وجهه يشحب •• ولا بد ان وجهى كان شاحبا ايضا • وضمنى بين ذراعيه ، وجرنى الى سريره • وأومضت فى راسى المضطرب فكرة أوحت الى بأن هذا كان خليقا بان يحدث يوما ما !

ومكثنا ساعة ، كنت خلالها ســـعيدة وحائرة ! •• الآن عرفت الشىء الذى طالما تحدثت عنه دون ان أعرفه ! •• واضطرب « سيريل » لصمتى ، فراح يؤكد لى انه لن يلبث ان يتزوج منى ، فقبلت عنقـــه ، واخذت ألقبه بحبيبى وعشيقى ، مع أننى لم أكن واثقة من ان ما شعرت به نحوه اذ ذاك كان حبا حقيقيا ! •• غير اننى ـ على أية حال ـ خلت اذ ذاك اننى أحببته أكثر مما أحببت نفسى ، وما كنت لأتورع عن ان أضحى بنفسى فى سبيله ! •• ثم شرعت فى العودة الى بيتنا فى تباطؤ ، وقد تملكنى الخوف من ان يشى وجهى أو مسلكى بما جرى !

ووجدت « آن » مستلقية فى مقعد بالشرفة ، وهى منهمكة فى القراءة •وكنت قد اعددت قصة تبرر غيابى ، ولكنها لم تسألنى عن ذلك • وظللنا جالستين فى

صمت • وكنت أشعر بأنفاسي تنبعث متهدجة ، وبأصابعي ترتعش • وتناولت سيجارة ، ثم هممت بأن أشعلها ، ولكن يدى راحتا تهتزان بقوة •• وانطفأ عود الثقاب • وانطفأ عود ثان •• وثالث !•• وشعرت بأن « آن » كانت تراقبني ، ثم شعرت فجأة بأن كل شيء حولي يذوب ويتلاشى ، فلم يبق سوى عود الثقاب، والعلبة ، وعيني « آن » اللتين تنفذان الى أغوار نفسي ! •• وأخذ قلبي يدق جوانب صدرى في عنف • وشددت أصابعي حول عود الثقاب وأشعلته ، ثم انحنيت أقرب السيجارة من اللهب ، ولكن أنفاسي أطفأته • ووقعت علبة الثقاب على الأرض •• وشعرت بنظرات « آن » المستطلعة تنقب عن سر ما بي •• ثم وضعت يديها تحت ذقني ، ورفعت وجهي ، فأغمضت عيني بقوة خشية ان تقرأ سرى • وتدافعت دموعي ، فربتت خدي ، ثم دست بين شفتي سيجارة مشتعلة ، وعادت الى كتابها !

★ ★ ★

◆ اذا كانت « آن » قد تركتني - في ذاك الحادث - دون ان تحاول معرفة أمرى ، فان هذا لم يكن يتفق مع مبادئها •• فهي ولا بد قد حدست ان في الأمر سرا ، وكان في وسعها ان تنتزعه مني ، ولكنها في اللحظة الأخيرة تحولت اشفاقا علي ، أو عدم مبالاة بالأمر ! •• كانت في معاملتها لي مدفوعة بشعورها بالواجب ، اذ كانت ترى انها بزواجها من أبي تصبح مسئولة عني • ولقد كان يسهل على ان أتقبل انتقادها المستمر ، لو أنها أظهرت سخطا أو ضيقا ! •• ثم ان المرء لا يلبث ان يألف عيوب الغير ، اذا لم يشعر بأن من واجبه ان يصلحها • ولكن « آن » كانت تشعر نحو اخطائي بشعور أعمق •• كان ادراكها للمسئولية عميقا ، وكانت تخشى علي من صغر سني ونزقي ، وتشعر بالغضب من نفسها اذ ترى أنها أخفقت في علاج عيوبي !

وحدث بعد أيام أن أثير موضوع الاستذكار ، على مائدة الغداء ، فأطلقت لغضبي العنان حتى أن أبي أبدى حنقه ، واضطرت « آن » الى أن تحبسني في غرفتي ، وان كانت لم تنفعل أو ترفع صوتها أثناء الجدال ! •• وكدت أجن حين تبينت ان باب الغرفة أغلق من الخارج • وكانت النافذة مرتفعة عن الأرض ، فرحت أدفع الباب بعنف وأنا أصر على أسناني • وحاولت أن أحطم القفل دون جدوى ! •• ووقفت في وسط الغرفة برهة ، ريثما هدأت نفسي ، فبدأت أستجمع شتات فكرى • كانت تلك أولى تجارب العقاب القاسي معي ، فراحت تتبلور في نفسي حتى غدت نقطة ارتكاز لمقاومتي، فجلست على السرير ، وأخذت أرسم خطة الانتقام!

وأقبل أبي في الساعة السادسة ، فنهضت لاستقباله وأنا ابتسم • وتنفس الصعداء ، ثم قال : « ألا حاولي ان تكوني أكثر لطفا وصبرا مع آن ! » •• واستولى علي الذهول وأعربت عن استعدادى للاعتذار اليهـا ، قائلة : « على كل حال ،

فانني لن ألبث ان اقبل الزواج فى أقرب الفرص ، اذا رأيت اننا سنظل على شقاق ! » •• وهتف : « لا تغالى فى شعورك •• أتقوين على ان تهجريني بمثل هذه السرعة ؟! » •• وكانت الفكرة أقسى من ان أطيقها ، فلم أشأ ان أتمادى ، بل قلت : « انني و « آن » خليقتان بأن نكون على وئام ، اذا ابدى كل منا بعض التساهل ! » •• ولعله أدرك من لهجتى ان التساهل لن يكون الا من جانب واحد •• جانبى !

وعدت أقول : « انني أدرك ان « آن » خير منا دائما •• ان حياتها أكثر توفيقا من حياتنا ، الى حد كبير ! » •• وحاول ان يعترض ، فمضيت أقول : « ولن ألبث بعد شهر أو اثنين ان استوعب آراءها ، فلا يعود ثمة مجال لجدال بيننا ! » •• وبدا عليه الجزع •• انه لن يفقد مجرد زميلة مرحة – اذا ما أصبحت فى رزانة «آن» – وانما سيفقد أيضا قطعة من ماضيه !•• وقال : « لا تبالغى !»، فقلت : « بل ان علينا ان نعدل عن طريقتنا السابقة فى الحياة ، لنألف طريقتها ! » •• وتمتم المسكين وهو يغادرنى : « أظنك على صواب ! » •• واعتذرت الى « آن » ، دون ان أشعر بحرج •• ثم أحسست بأننى تخففت مما كان بى ، ولم أعد ابالى بما يحدث !

وعندما التقيت بسيريل فى الغابة ، شرحت له الخطوة التالية فى خطتى • واصغى الى وهو موزع بين الاستنكار والاعجاب ، ثم احتوانى بين ذراعيه • ولم يكن فى وسعى أن أبقى معه طويلا ، ومع ذلك فقد أدهشنى ما تبينته من أننى لاأريد أن أفارقه !•• من المؤكد أنه وجد الشيء الذى يربطنى به !•• وقبلته فى عنف ، وأنا أحاول أن أؤلمه ، ليظل طوال ليله يحلم بى !

واصطحبت والدى فى الصباح التالى ، مقترحة عليه أن نتمشى فى الغابة ، حيث كان مسرح الخطوة التالية من خطتى • وتقدمنى فى درب ضيق فى الغابة ، وهو يزيل الاشواك من طريقى ، ثم جمد فى مكانه فجأة !•• وأدركت انه رأى المنظر • كان « سيريل » و « ايلسا » يتظاهران بالنوم على أوراق الشجر ، وكأنهما عاشقان حقا ! •• ومع اننى كنت أعرف انهما غير متحابين ، الا اننى لم أتمالك نفسى ، فشعرت بوخز الغيرة ! •• كان كل منهما شابا ، وجميلا !•• ولاحظت ان وجه أبى امتقع الى درجة غير عادية ، فجررته من المكان • وألقى نظرة أخرى على « ايلسا » التى بدت فى أبهى فتنة •• وسمعته يتمتم : « يا لها من عاهرة ! •• فاجرة ! » •• فقلت له : « أو ليست حرة ؟ » •• فقال : « هل راق لك أن تريها فى أحضان سيريل ؟ » •• قلت : « اننى لم أعد أحبه ! » ، فاجاب فى غيظ : « ولا أنا أحبها •• ومع ذلك فالأمر يؤذى مشاعرى ! » •• وأدركت ما كان يعنى •• كان يحس بأنها شيء من مقتنياته يغتصب منه ! •• وتعمدت أن اذكى شعوره ، فذكرته بآن ، وكيف يؤذى شعورها أن تسمع ما قال،

فصاح : « انك لاتفهمين ٠٠ قد تستاء هى لأنها لاتفهم نفسيتى ، أما أنت ٠٠ ! »

قلت : « يجب أن تأخذ الأمور كما هى ٠٠ لقد راق سيريل لايلسا ، فما شأنك أنت ٠٠ لا سيما وانك عاملتها معاملة لا تغتفر ؟! » ٠٠ فقال : « لو اننى رغبت فيها ٠٠ ! » ٠٠ وكان هذا ما سعيت اليه ٠ ورحت أذكى فيه هذه الرغبة بالتحدى ٠ ولكن ما ان عدنا الى البيت ، حتى ضم اليه «آن» بعنف !

وفى الساعة الثانية بعد الظهر ، لحقت بسيريل على الشاطىء ، فانطلقنا بالقارب ٠ حتى اذا صرنا فى عرض البحر ، خفض الشراع ، ثم جذبنى الى القاع ، فأحسسنا بالقارب يتمايل تحتنا ٠ كنا ننعم بالشمس والبحر ، والضحك ، والحب ٠٠ وان توارى خلف اغتباطى شعور من الخوف والندم ! ٠٠ على اننى ما لبثت أن نسيت « آن » وأبى و « ايلسا » ٠٠ لقد نقلنى الحب الى عالم آخر ! ٠٠ ولعلنى ما أسلمت نفسى لسيريل بسهولة الا لأننى كنت أدرك انه يقدر المسئولية ، وانه لن يتخلى عنى اذا أثمرت علاقتنا !

على ان صبر « ايلسا » بدأ ينفد فى الأيام التالية ٠ وبدأ أبى ـ من ناحيته ـ يشغل بأمرها شيئا فشيئا ٠ وأزعجنى ازدياد وجده ، فبدأ ضميرى يتململ ٠ على أننى كنت أطمئن نفسى الى اننا لن نلبث أن نعود الى باريس بعد ثلاثة أسابيع ، فيتم زواج أبى من « آن » ، ونبتعد عن « ايلسا » ، ويخلو لى الجو مع «سيريل» ، اذ كانت له فى باريس غرفة بعيدة عن بيت أمه !

★ ★ ★

◆ وتلقى والدى بعد أيام دعوة من صديق له يدعى « شارل ويب » ، الى جلسة فى مقهى « سان رفاييل» ٠ وابتهج أبى بهذه الفرصة التى تخرجنا فترة من العزلة التى التزمناها ، تمشيا مع النظام الذى فرضته « آن » على حياتنا ! ٠٠ وأسرعت بدورى الى « سيريل » و « ايلسا » ، لأشرح لهما الخطوة الجديدة ٠

وفى الساعة السادسة ، انطلقنا فى سيارة « آن » ٠٠ وتولت هى القيادة ، بينما جلسنا ـ أبى وأنا ـ الى جوارها ٠٠ وكأنما أصبحت مهمتها قيادة حياتنا كلها !

وكان « شارل ويب » زميلا لوالدى ، ومن طرازه ٠ أما زوجته ، فكانت من الصنف الخبيث ٠ وكان لكل منهما الحرية فى حياته ، وفى اختيار أصدقائه !

وبهت « ويب » حين عرف بعزم أبى على الزواج ٠٠ ثم انطلق يهنئهما فى صخب ، ويطلب شرابا للاحتفال بالمناسبة ٠ وكانت « آن » تبتسم فى عدم اكتراث ٠ وفجأة ، أشرق وجه « ويب » وهتف : « يا لله ! ٠٠ اليست هذه ايلسا ماكنبورج ؟ ٠٠ الا ترى يا ريمون كيف ازدادت جمالا ؟! » ٠٠ فقال أبى فى اعجاب : « أجل ! » ، ثم تذكر « آن » فوجم ! ٠٠ ولم يكن فى وسع « آن » أن تتجاهل ، فأشاحت بوجهها فى حركة سريعة ٠ واذ ذاك قلت فى صوت تعمدت

أن يسمعه أبى : « آن ‥ أرى انك تبهرين الأنظار ‥ الا ترين الرجل الجالس هناك لا يكاد يحول بصره عنك ؟! » ‥ والتفت أبى نحو الرجل ، ثم أمسك بيد « آن » ! ‥ وحاولت مدام « ويب » فى تلك الاثناء ان تمازحنى بأسلوب ثقيل أثار غيظى ‥ الا ان « آن » كانت تهمس لى كى لا أفقد اتزانى وهدوئى !

وأسرفت فى الشراب على مائدة العشاء ٠ وكانت « آن » لا نكاد تشترك معنا فى الحديث ، وقد بدا عليها الامتعاض من هذا الجو ٠ وانتقلنا بعد العشاء الى مشرب آخر ، فاذا بسيريل و « ايلسا » يظهران هناك ! ‥ وأعجبت بآن ، اذ لم تبد أنفه حركة تنم عن غيرة أو احتقار ، فهمست لها ـ وقد لعبت الخمر برأسى ـ بأنها أجمل وأذكى من « ايلسا » ! ‥ فقالت وهى ترمقنى فى فضول : « أحقا ترين ذلك ؟ ‥ ولكنك تسرفين فى الشراب ‥ اعطنى كأسك ‥ أرجو أن لا يكون قد ساءك أن ترى سيريل ‥ على أننى احسبه يضيق بصحبتها ! » ‥ فقلت فى مرح ماجن : « انه خليلى ! » ‥ واذ ذاك قالت : « أرى انك ثملت ! » ‥ ومن ثم انصرفنا ٠ ونمت فى السيارة ، ولكننى ما لبثت أن انتبهت الى صوت أبى يقول : « آن ‥ اننى أحبك ‥ أحبك وحدك ، فهل تصدقيننى ؟ » ‥ ولم أشأ أن أتحرك ٠ كنت ثملة ‥ وكان عطر « آن » ونسيم البحر يخدرانى ! ‥ وأفسحت « آن » لى مكانا كى أسند رأسى الى كتفها ، وهى تقول : « نامى » ٠ وبالفعل استغرقت فى النوم !

★ ★ ★

◆ **عندما** استيقظت فى الصباح التالى ، كانت الشمس تغمر سريرى ، فانكفأت على وجهى معرضة ظهرى لها ٠ ورحت أفكر فى سهرة الأمس ‥ فقد كان الجو المرح الصاخب يستهوينى ! ‥ وبدا لى هدوء « آن » ووقارها فى هذا الجو شيئا سخيفا ، لا يروق لأصدقاء أبى ، اذ كانوا جميعا على شاكلته !‥فكانوا ـ اذا ما اجتمعوا ـ يتحدثون عن الفتيات ، وعن المغامرات ، كتلاميذ المدارس الثانوية ! ‥ فى حين كان أصدقاء « آن » مهذبين ، يراعون أصول السلوك العام ! ‥ وتصورت كيف اننا سنضطر الى أن نهجر أصدقاءنا السابقين ، لنرتضى أصدقاء من طراز أصدقاء « آن » !

وما كان أبى بالرجل المغرور ، أو الأحمق ، الأنانى ‥ كل ما هنالك انه كان محبا للهو والعبث ، ولا سبيل الى شفائه

منهما. ولا أستطيع أن أقول انه كان لا يعرف العواطف العميقة، بدليل حبه لى ! .. كان حبا متبادلا ، قويا ، ولذلك كدت أجن يوم تحول وكأنه يوشك أن يتخلى عنى ! .. كنت دائما أهم عنده من كل عشيقاته ! .. **وكان ماديا ، اذا اشتهى امرأة معينة، عمل على أن ينالها ، بدلا من أن يكبت شعوره فى نفسه . ولقد عاد يشتهى « ايلسا » ، ولكن بطريقة تخالف ما قد يخطر بالبال .. لم ير انه يخون « آن » اذا أرضى رغبته ، وانما رأى أن هذه الرغبة تزعجه ، فيجب التخلص منها بارضائها بسرعة ، قبل أن تفسد ما بينه وبين « آن » !** .. فقد كان يحب « آن » .. كانت ترضى غروره ، وشهوته ، وأحاسيسه ، اذ كانت تفهمه وتقدم لارضائه ذكاءها وخبرتها ! .. وكان يرى فيها عشيقة ممتازة له ، وأما مثالية لى ، ولكنى لا أحسبه قد تبين فيها زوجة مثالية ، بكل ما للزوجية من مطالب !

وما فكرت فيه حين وضعت خطتى لأقصى « آن » عن حياتنا .. فقد كنت أعرف انه لن يلبث أن يجد عزاء ، على مألوف عادته ، ومن ثم قدرت ان اقصاءها سيكون أقل ايلاما من اضطراره الى أن يعيش الحياة المنظمة التى تبغيها ! .. فما كان من شيء يقضى عليه ، قدر التزام عادات منتظمة .. كان فى ذلك مثلى تماما ! .. وكان ما يغيظه ـ مذ عادت « ايلسا » تراود أفكاره ـ انها كانت رمزا لحياته الماضية . **وما أحسبه الا كان يود لو استطاع أن يقول لآن : « ألا اسمحى لى يا حبيبتى بأن أبرهن لنفسى ـ بمساعدة ايلسا ـ على اننى لم أكتهل ! »** .. ولكن هذا كان مستحيلا ، لا لأن « آن » كانت تغار ، ولكن ، لأنها كانت قد عقدت العزم على أن تعيش معه الحياة التى تريدها هى ، وأن تضع حدا لحياة العبث والتبذل التى كان يعيشها ! .. كانت تربط حياتها ومستقبلها به ، ومن ثم يجب أن لا يظل عبدا لنزواته. ولكن هذا لم يكن ليمنعه من أن يشتهى «ايلسا»، ومن أن يعنف هذا الاشتهاء كلما حاول أن يكبته ! .. **وفى**

ضوء هذه الحقيقة ، كان من السهل أن أوجه خطتى · ولكننى لم أفعل شيئا ، ولا قلت لايلسا شيئا ، اذ شئت أن تكون شهوة والدى هى التى توجهه ! ·· ولم أكن لأطيق احتقار « آن » لحياتنا وسعادتنا السابقة ، ولا كنت راغبة فى أن أذلها ، وانما أردت أن أجبرها على قبول طريقتنا فى الحياة ، وذلك بأن تكتشف بنفسها خيانته ، وأن ترى فى هذه الخيانة نزوة عابرة ، لا اهانة لكرامتها الشخصية !

وعلى هذا رتبت الأمور ، ثم تركتها تسير وحدها !

★ ★ ★

◆ **وللقدر** ـ أحيانا ـ أساليب غريبة · فقد لاحظت ان لضحكة « ايلسا » أثرا قويا على والدى ، ومن ثم أوحيت اليها بأن تستغل هذه الضحكة كلما كان على مقربة منها · وكنت أقوده الى حيث يمثل «سيريل» و «ايلسا» المواقف التى دبرتها ، ومع ذلك فقد كانت الغيرة تفرى قلبى كلما رأيتهما متعانقين !

وفى ذات يوم ، ذكرت لى « ايلسا » أنها استطاعت أن تتحدث الى أبى خلسة ، وأنه أطرى جمالها ، واعتذر لما بدر منه ، وللطريقة التى هجرها بها · ولكى يثبت لها صدق شعوره نحوها ، دعاها الى تناول الشاى فى القرية الواقعة خلف الغابة · وسألتنى « ايلسا » عما اذا كانت تذهب · وتبينت انها ترانى صاحبة الفضل فى نجاحها ، واذا بهذه الحقيقة تزعجنى ، فقلت لها : « لست أدرى يا ايلسا ما اذا كنت تذهبين أو لا تذهبين ، فهذا شأنك وحدك ! » ·· فهتفت : « ولكن ·· أليست الخطة كلها خطتك يا سيسيل ؟ »

وتهربت منها ، ثم أسرعت الى لقاء « سيريل » · كنت أنسى ـ فى أحضانه ، وفى خلواتنا ـ كل شىء ! ·· وعندما فارقته ، ظلت كلماته تتردد فى أذنى : « لشدما أحبك ! » ·· ولعل ترددها هو الذى شغلنى ، فلم أكد أفطن الى شىء أثناء الغداء ·

وما أن انفضضنا عن المائدة ، حتى أعلن أبى انه ذاهب الى القرية ليبتاع بعض الحاجات . ولم أحفل .. كنت قد مللت الأمر كله ، وكان كل ما اشتهيته اذ ذاك ، أن أسرع الى البحر، فأرتمى بين أحضانه ، وأظل طيلة الوقت أسبح !

وكانت الساعة السادسة ، حين اتخذت طريقى عائدة الى البيت . وجلست فى الشرفة أقرأ احدى الصحف . وفجأة ، أقبلت « آن » من ناحية الغابة تجرى فى خطى مضطربة ، ثقيلة. ورأيتها تغيب وراء البيت ، فى اتجاه حظيرة السيارات . وأومضت فى ذهنى الحقيقة ، وأدركت ما حدث ، فأسرعت لألحق بها .. وكانت قد استقلت سيارتها ، وأدارت المحرك ، فتشبثت بالباب ، وصحت : « **آن .. لا تذهبى .. كان الذنب ذنبى !** » **.. ولم تحفل بى ، فعدت أصيح : « آن .. لاغنى لنا عنك! » .. واعتدلت اذ ذاك ، فرأيت وجهها مبللا بالدموع .. وتبينت اننى قد آذيت انسانة حساسة ، لا مجرد مثال للوقار والرزانة! .. امرأة فى الأربعين من عمرها ، كانت تعيش فى وحدة ، ثم أحبت رجلا ، فخالجها الأمل فى أن تعيش معه السنوات الباقية من عمرها فى هناءة !**

ورحت أرتجف وأنا أميل على باب السيارة ، فتمتمت : «انك لست بحاجة الى أحد .. ولاهو بحاجة الى! » .. وتحركت السيارة ، فصرخت : « ألا اغفرى لى ! »

وكانت الدموع تجرى على وجهها ، دون أن تفطن اليها .. وقالت : « وما الذى أغفره يا صغيرتى المسكينة ! » .. وربتت خدى ، ثم انطلقت !

وسمعت خطوات ورائى .. **ورأيت أبى يمحو آثار شفتى «ايلسا» عن وجهه ، فارتميت عليه وأنا أصيح : «أيها الوحش !» .. ثم انفجرت باكية !**

* * *

• **لم نلتق الا عند العشاء ، فاذا الوجوم يشملنا ، واذا بنا**

نتحقق من اننا لسنا فى غنى عن « آن » ، وان لابد لنا من أن نستعيدها ! ٠٠ وحدسنا انها رحلت الى باريس ٠ وروى لى أبى انها فاجأته وهو يقبل « ايلسا » فى الغابة ٠ واقترحت أن نكتب لآن نسترضيها ، فحبذ أبى الفكرة ٠ ورحنا نكتب ونمزق ، حتى انتهينا الى رسالتين من أروع التحف الأدبية التى تثير أجمد القلوب !٠٠ وفجأة ، انبعث رنين التليفون٠٠**وأحسست نذيرا بشر رهيب ٠٠ وصح حدسى ، فقد انقلبت السيارة بآن فى الطريق ! ٠٠ وأسرعنا الى المستشفى الذى نقلت اليه ، فقضينا بقية الليل هناك ٠ على ان أبى لم يسمح لى بأن أراها !**

وماتت « آن » ! ٠٠ وخطر لى انها أثبتت اختلافها عنا ، حتى فى موتها ! ٠٠ فلو ان أحدنا وجد الجرأة على الانتحار ، لعمد الى الرصاص ، تاركا وراءه رسالة تقض راحة من كانوا سببا فى حمله على الانتحار ٠ أما هى ، فقد منحتنا أروع هدية ، اذ جعلت انتحارها يبدو كحادث من فعل القدر ، فان المكان الذى انقلبت فيه سيارتها كان من أخطر البقاع فى الطريق المفضية الى باريس ٠٠ ومع ذلك ، فربما كانت فكرة الانتحار من وحى خيالى ، اذ منذا الذى يفكر فى الانتحار من أجل مخلوقين مثل أبى ومثلى ؟! ٠٠ مخلوقان لا يحسان بحاجة الى أحد من الأحياء أو الأموات ؟

ووجدنا « ايلسا » و « سيريل » يجلسان على درجات السلم فى انتظارنا ، عندما عدنا الى البيت فى النهار التالى ٠ ولاحا لى كألعوبتين منسيتين ! ٠٠ وتقدم « سيريل » ووضع يده على ذراعى ، فنظرت اليه ٠ وتبينت اننى ما أحببته يوما ، وانما كنت أحب المتعة التى أتاحها لى ! ٠٠ وشعرت بأننى فى غير حاجة اليه !

وأمسك أبى بذراعى،وقادنى الى داخل البيت٠٠ووجدنا سترة « آن » ، وزهورها ، وغرفتها ، وعبيرها ! ٠٠ وأغلق أبى مصاريع النوافذ ، وأحضر زجاجة شراب ، وكأسين ٠٠ كان هذا هو العلاج الوحيد !

* * *

◆ **ودفنت** « آن » فى باريس، فى صباح يوم صحو • ولمحت « سيريل » ينتظرنى بعد الصلاة على جثمانها ، فتفاديته • كان نفورى منه ظالما ، لا مبرر له ، ولكننى لم أقو على كبحه !

وما أن انطلقت وأبى فى السيارة عائدين ، حتى أمسك بيدى، وشد قبضته عليها • وأحسست ان كلا منا عاد للآخر ، ولكنا أصبحنا وحيدين ، شقيين ! •• وللمرة الأولى ، وجدتنى أبكى •• ووجدت فى الدموع راحة •• وناولنى أبى منديله ، وقد اكفهر وجهه !

وعشنا شهرا كأرمل ويتيمة ، لا نبرح البيت ، ولا نفتأ نسترجع ذكرى « آن » ، وكل منا يختار كلماته فى حرص ، ويتفادى نظرات الآخر ، خشية أن ينكأ جراح قلبه ! •• وما لبثنا أن أصبحنا نتكلم عن « آن » كشخص عزيز علينا ، كان من الممكن أن نسعد معه ، لولا ان اختاره الله •• الله الذى لم نكن نؤمن به !! •• ثم قابلت يوما شابا مال الى وملت اليه ، فظللت أسبوعا أخرج معه • واذ ألفى أبى نفسه وحيدا ، حذا حذوى ، واتخذ لنفسه عشيقة • وهكذا أخذت الحياة تعود بنا الى مجراها المألوف • وكنت اذا خلوت الى أبى ، تبادلنا النكات، وتحدثنا عن مغامراتنا : **كان يرى ان غرامى بفيليب بعيد عن الحب العذرى ، وكنت أرى ان عشيقته الجديدة تكبده نفقات باهظة !**

ولكننا سعيدان •• اللهم الا فى سويعات الفجر ، حين آوى الى فراشى ، وأنصت الى أصوات السيارات فى شوارع باريس، فاذ ذاك تعاودنى الذكريات •• وأهتف فى الظلام بصوت خافت، ناعم: «آن ••آن !»••اذ ذاك ،ينبثق فى نفسى شعور أحييه وأنا أغمض عينى هاتفة : « **صباح الخير •• أيها الحزن !** »

ثقافة الأديان



أصحاب العقائد والرسالات

عزيزى القارىء :

لما كانت رسالة « كتابى » تستهدف تعميم الثقافة الرفيعة بجميع الوانها ، وفى جميع مجالاتها وميادينها .. ولما كانت الثقافة الدينيـــة من أول أسس الحضارة البشرية والتاريخ الانسانى ، فقد رأيت أن أقدم لك فى هذا الباب الجديد ، دراسات شاملة لسير أصحاب الوحى من دعاة العقائد والاديان ، ثم لسير أنبياء الصف الثانى فى الديانات السماوية الثلاث .. على أن أتبعها فى فرصة قريبة بمجموعة مكملة لهـا من القصص الانسانية التى وردت فى كتب الاديان نفسها ، أى من قصص التوراة والانجيل والقرآن ..

وقد قدمت لك فى هذا الباب ، فى الاعداد السابقة ، قصة حياة موسى ، ثم قصـــة حياة المسيح ، وقصـــة حيـــاة محمد . واليوم أقـدم لك قصة حياة أبى بكر الصديق ، على أن أوافيك فى الاعداد القادمة بسير الانبياء والرسل : ابراهيم،اسحاق ، اسماعيل، يعقوب ، يوسف ، شعيب ، داود ، سليمان ، أيوب ، يونس ، زكـريا ، يحيى ، أشـــعياء ، يوحنـــا ، بولس ، عمر بن الخطاب ، عثمان ابن عفـــان ، على بن أبى طالب .. ثم من الأئمة والمصلحين الدينيين : أبى حنيفة ، ابن حنبل ، مالك ، الشافعى .. مارتن لوثر ، كالفن .. الخ .



ابو بكر الصّديق

أول الخلفاء الراشدين
وواضع أسس الامبراطورية الإسلامية

جمع سيرته ولخصها عن أدق المصادر
عبد الوارث الكبير

أول الخلفاء الراشدين

◆ يحتفل العالم الاسلامى فى اوائل هذا الشهر ببداية شهر رمضان المبارك . وبهذه المناسبة ، يقدم لك « كتابى » فيما يلى هذه السيرة لأول الخلفاء الراشدين . واذا كان « محمد » ـ عليه الصلاة والسلام ـ قد أبلغ رسالة ربه ، وأرسى قواعد الدين الاسلامى ، فان « أبا بكر » اضطلع بعبء نشر الرسالة من بعده ، وأرسى دعائم « الدولة » الاسلامية ، ووضع خطوط الامبراطورية التى امتدت شرقا وغربا بعد ذلك . ولم يكن ثمة من يفضل « أبا بكر » فى هذه المهمة ، فقد كان الأول ، حيث لا يتقدم الرسول : أول من أسلم من الاشراف ، وأول من صدق « محمدا » ورسالته ، وأول من ضحى فى سبيل الله ، والدين ، ورسول هذا الدين ، وأتباعه .. وكان ثانى اثنين حيث يكون الرسول : ثانى اثنين فى قيادة المسلمين ، وفى صحبة الرسول فى هجرته ، وفى الحروب بين المسلمين والمشركين ..

وفيما يلى قائمة المصادر التى استقى منها « كتابى » البحث الذى يقدمه اليك اليوم ، عن أول الخلفاء الراشدين : أبو بكر الصديق

سيرة سيدنا محمد رسول الله (سيرة ابن هشام)	لأبى محمد بن عبد الملك
الطبقات الكبرى	محمد بن سعد الواقدى
دائرة معارف القرن العشرين	محمد فريد وجدى
بيت الصديق	محمد توفيق البكرى
الصديق أبو بكر	الدكتور محمد حسين هيكل
عبقرية الصديق	عباس محمود العقاد

« الا تنصروه فقد نصره الله ، اذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين ، اذ هما فى الغار ، اذ يقول لصاحبه لاتحزن ، ان الله معنا »

« قرآن كريم »

« ما لأحد عندنا يد الا وقد كافيناه بها ، ما خلا ابا بكر ، فان له عندنا يدا يكافيه الله بها يوم القيامة »

« حديث شريف »

- ١ -

• **لا** يستطيع كاتب أو مؤرخ أو متحدث أن يكتب عن الاسلام أو يتحدث عنه، دون أن يعرض لسيرة نبى الله، محمد بن عبدالله، الذى اختاره ربه وأرسله الى الناس كافة، هاديا ومبشرا ونذيرا

كذلك لا يستطيع كاتب أو مؤرخ أو متحدث أن يكتب عن النبى العربى - صلوات الله عليه - أو يتحدث عنه، دون أن يجد نفسه مضطرا الى أن يتحدث عن « أبى بكر الصديق »، صاحبه وصفيه، وأحب الناس اليه، حتى لقد قال فيه: « **لو كنت متخذا من العباد خليلا، لاتخذت أبا بكر خليلا، ولكن صحبة واخاء وايمان، حتى يجمع الله بيننا عنده** »

وهل يمكن أن يتحدث متحدث عن الاسلام دون أن يذكر هذا الحادث العظيم، الذى اتخذ - فيما بعد - مبدأ للتاريخ الاسلامى لأنه كان مبدأ نصر الله لرسوله على الذين حاربوا دعـوته فى البلد الحرام، ثم مكروا به ليقتلوه .. ونعنى حادث الهجرة، الذى كان « أبو بكر » - وحده - هو صاحب رسول الله فيه، ورفيقه الذى عناه الله سبحانه، فى قوله: « **ثانى اثنين، اذ هما فى الغار، اذ يقول (لصاحبه) لا تحزن ان الله معنا** » ؟

وهل يعقل أن يتحدث متحدث عن الاسلام أو نبى الاسـلام دون أن يتحدث عن « أبى بكر »، أول من أرسى حجر الأساس فى صرح الأمبراطورية الاسلامية التى امتدت من بعد - وبفضل السياسة الحكيمة التى رسمها هو - فى الشرق والغـرب، من الهند والصين فى آسيا، الى مراكش والأندلس فى أفريقيا ؟

سئل النبى صلى الله عليه وسلم يوما: « يا رسـول الله .. أى الناس أحب اليك ؟ »، قال: « عائشة » .. قالوا: « انما نقصد من الرجال ؟ »، قال: « أبوها » !

وكان عليه الصلاة والسلام يقول: « ما لأحد عندنا يد الا وقد كافيناه بها، ما خلا أبا بكر، فان له عندنا يدا يكافيه الله بها يوم القيامة »

الثانى بعد الرسول .. دائما !

◆ **فماذا** فعل « أبو بكر » حتى استحق من رسول الله كل هذا التكريم الذى لم ينله أحد من صحابة الرسول ؟!

ماذا فعل «أبو بكر» حتى يصر الرسول على ألا يصلى بالناس سواه عندما اشتد مرضه الأخير ، فلما ترددت « عائشة » زوج الرسول ـ وهى ابنة أبى بكر ـ فى أن تبلغ أمره ، صاح عليه الصلاة والسلام للمرة الثانية : «مروا أبا بكر فليصل بالناس» . فلما عاودها التردد من جديد ، راحت تستعين على الرسول بحفصة بنت عمر بن الخطاب ـ وكانت من زوجاته ـ بحجة أن أبا بكر «رجل أسيف ، متى يقم مقامك لا يسمع الناس صوته» ، عاد الرسول يقول فى ضجر ، وللمرة الثالثة : « مروا أبا بكر فليصل بالناس » ! فلما سمع ذات مرة صوت عمر بن الخطاب ، وهو يكبر للصلاة بالناس سأل : « **فأين أبو بكر ؟ يأبى الله ذلك والمسلمون .. يأبى الله ذلك والمسلمون** » !!

ماذا فعل « أبو بكر » حتى يصر الرسول على ألا يصلى بالناس مكانه غيره ، وكأنه يستخلفه فى حياته على أمور المسلمين ؟!

فعل ما لم يفعله أحد من قبله ولا من بعده ، حتى قال رسول الله عنه : « ما دعوت أحدا الى الاسلام الا كانت عنده فيه كبرة ونظر وتردد ، الا ما كان من أبى بكر بن أبى قحافة ، ما عكم (ما تردد) حين ذكرته له وما تردد فيه » .. **فقد كان أول رجل من أشراف العرب آمن بالاسلام ، وآمن بالله ورسوله ، وكأنما كتب له أن يكون فى كل شيء « ثانى اثنين » ـ كما ورد فى القرآن ـ حين يكون النبى أول الاثنين !**

فكان « ثانى اثنين » فى الايمان بالله وبالاسلام ، و « ثانى اثنين » فى غار حراء يوم الهجرة ، و « ثانى اثنين » فى الظلة التى أوى اليها النبى صلى الله عليه وسلم يوم معركة « بدر » ـ الذى لا يوم مثله ـ و «ثانى اثنين» فى كل واقعة من الوقعات بين المسلمين والمشركين ، وأقرب صاحب الى النبى فى الشدة

والرخاء على السواء ، حتى قال فيه عمر بن الخطاب رضى الله عنه : « أبو بكر سيدنا ، وخيرنا ، وأحبنا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم » !

فعل ما لم يفعله أحد قبله ولا بعده فى الاسلام ٠٠ فمنذ اللحظة الأولى التى دعاه النبى الى الاسلام ، صدقه وآمن به ٠٠ ومنذ اللحظة الأولى التى آمن فيها وصدق ، وهب للاسلام نفسه ، وماله ، وكل ما يملك انسان أن يهب من نفس ومال ، وأصبح الاسلام عنده شيئا يقابل الدنيا بما وسعت من خيرات وطيبات ، وغنيمة يفتديها بكل ما فى الدنيا من خيرات وطيبات!

ولقد احتمل « أبو بكر » فى سبيل ايمانه هذا كثيرا مما احتمله « المصطفى » عليه الصلاة والسلام ٠٠ فكان « ثانى اثنين » ، حتى فى العناء وتحمل الاضطهاد والايذاء !

وقف المسلمون ذات مرة فى المسجد حول الرسول ـ وهم يومئذ قلة تعد على أصابع اليدين ـ فوثب عليهم المشركون والكفار يوسعونهم اهانة وايذاء وضربا ٠٠ وتصدى «عتبة بن أبى ربيعة» لأبى بكر وراح يضربه خصفا بنعليه ، حتى ورم وجهه وكاد يهلك ، لولا أن خف اليه نفر من أهله وقومه ، حملوه فى ثوب الى بيته ، وهم لا يشكون يومئذ فى انه ميت فى ليلته ٠٠ ثم أحاطوا به يرشونه بالماء ، ويكلمونه ، حتى أفاق من غشيته ، فكان أول ما فاه به وهو فى تلك الحال : « كيف فعل رسول الله ؟! »

وجاءته أمه تريد أن تطعمه وتسقيه شيئا يرد اليه نفسه ، فأبى أن يأكل أو يشرب حتى يعلم ماذا فعل المشركون برسول الله !! ٠٠ وطلب اليها أن تذهب الى بنت الخطاب تسألها عنه ، فلما جاءت معها وطمأنته الى سلامة الرسول من كل أذى ، لم يقتنع ، ولم يكفه ذلك الا أن يراه بنفسه ، فمانعت أمه فى أن يذهب وهو على هذه الحال قبل أن يتبلغ بشىء يقويه أو شراب

يرويه ، فأقسم أن لا يذوق طعاما ولا شرابا حتى يرى رسول الله !!

وها هو ذا بين الحياة والموت ٠٠ وها هو ذا بين المرأتين العطوفتين ـ أمه وبنت الخطاب ـ وقد خرجتا به تسندانه ويتكيء عليهما ، لأنه لم يكن قادرا على أن يحمل نفسه ٠ فلما دخلتا به على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو على تلك الحالة ، انكب الرسول عليه يقبله فى عطف وحنان ، فقال له أبو بكر : « بأبى أنت وأمى يا رسول الله ، ما بى من شيء الا ما نال الفاسق من وجهى » !

ثم أنظر اليه فيم يفكر وهو بين الحياة والموت!! ٠٠ كان أول ما فكر فيه بعد أن اطمأن الى سلامة رسول الله ، أن أخذ بيد أمه يقدمها الى النبى وهو يقول : « هذه أمى يا رسول الله ، بارة بوالديها ، فادعها الى الله ، وادع لها عسى أن يستنقذها بك من النار » !!

أى بر بالوالدين أعظم من هذا البر ؟! لقد ظن « أبو بكر » ساعتها انه مفارق الدنيا ، فخشى أن يموت قبل أن تسلم أمه ، وتؤمن بالله ورسوله ، فطلب الى الرسول أن يدعو لها حتى يستنقذها من النار !

يصفع اله أبيه على قفاه !

◆ **لكن** « أبا بكر » لم يمت كما كان يظن المشركون ، وكما كان يظن أهله المقربون ٠٠ بل مد الله فى أجله ليشيد أعظم امبراطورية دينية عرفها التاريخ !

فمنذ اليوم الأول ، شارك « أبو بكر » رسول الله فى الدعوة لدين الله ٠ وعلى الرغم من انه كان ـ كما تقول ابنته « عائشة » فى وصفه ـ « رجلا أسيفا » ، وبالرغم من أنه كان رضى النفس، وديع الخلق ، رقيق الطباع ، سريع التأثر ، حتى لتطفر الدموع من عينيه لرؤية غيره يتألم ٠٠ بالرغم من كل هذا ، فانه كان

قوة هائلة ، لا تعرف التردد ولا الاحجام ٠ وكان ايمانه بالدين الجديد ، وبالرسول الذى جاء به ، لا يدانيه ايمان !

ولقد تجلى هذا فى كثير من المواقف ، فهو ايمان لم يأت عن جهالة أو مجاملة ٠٠ ولكنه كان نتيجة تجربة ووليد حكمة وتفكير ٠٠ فلو أن « أبا بكر » لم يكن مقتنعا بتنزه أعمال الرسول ـ الذى آمن به وصدقه ـ عن كل شبهة ، لما رضى لنفسه أن يؤمن به ٠٠

اذ أنه كان من حكماء مكة الذين يعتبرون عبادة الاصنام حماقة وجهلا ، حتى ليروى أن أباه قاده ذات مرة ـ وهو طفل ـ الى الصنم الذى كان يعبده ، ثم تركه معه كى يباركه ، ومضى ، فتقدم « أبو بكر » الى الصنم وقال : « أنا جائع ٠٠ فاطعمنى ! » فلم يجبه ٠٠ فقال : « أنا عريان ٠٠ فاكسنى ! » ، فلم يجبه ٠٠ وعندئذ صفعه « أبو بكر » على قفاه ، ثم تركه ومضى !!

وكان ـ فوق ذلك ـ يعرف من أمر « محمد » ، وصدقه ، وأمانته ، ورجحان عقله ، ما لا يدع فى نفسه مكانا للريبة فى ما يقول ٠ فلما بدأ « محمد » يبلغ رسالته فى المسجد الحرام ، اتصل خبرها بأبى بكر فجاءه يسأله : « يا أبا القاسم ٠٠ ما الذى بلغنى عنك ؟ » ، قال : « وما بلغك عنى يا أبا بكر ؟ » ، قال : « بلغنى أنك تدعو الى عبادة الله ، وترك عبادة الأوثان ، وتقول أنك رسول الله » ٠٠ قال « نعم يا أبا بكر ٠٠ ان الله قد جعلنى بشيرا ونذيرا ، وأرسلنى الى الناس كافة بدعوة



ابراهيم »٠٠قال أبو بكر : « **والله ما جربت عليك كذبا ، وانك لخليق بالرسالة لعظم أمانتك ، وصلتك رحمك ، وحسن فعالك ٠٠ مد يدك فانى مبايعك » !**

وبايعه دون أن يناقشه أو يسأله دليلا أو برهانا ، أو معجزة! ٠٠ ومنذ تلك اللحظة وهب للاسلام كل ما يملك انسان من نفسه وماله ٠٠ وانك لتقرأ تاريخه فاذا سلسلة متصلة الحلقات من دلائل العظمة النفسية التى تثير الدهشة ، وتحمل الانسان على أن يحنى هامته اجلالا له واكبارا ، ولا أكون مغاليا اذا ما قلت « وتقديسا » أيضا !

بين الايمان والتجارة

◆ **وأخذ** « أبو بكر » بعد ذلك يدافع عن النبى ، ويحتمل من ضروب الايذاء فى سبيله ما لا يحتمله الا من أوتى ايمانا كايمانه ، وقوة روح كقوة روحه ٠٠ كان يستهين بالخطر على نفسه ، ولا يستهين بخطر يصيب النبى أو يتعرض له ٠ وحادثة « عتبة بن أبى ربيعة » ليست الا واحدة من عشرات من أمثالها ، عرض « أبو بكر » فيها نفسه لخطر الموت ، ليدفع الأذى عن الرسول صلوات الله عليه ٠٠فكان اذاما رأى المشركين قد أخذوا بتلابيبه ، أو حاولوا الاعتداء عليه ، خف اليهم ، وتصدى لهم ، وهو يصيح : « ويلكم ! أتقتلون رجلا ان يقول ربى الله ؟! » ، فكان المعتدون ينصرفون عن النبى ثم يتجهون الى « أبى بكر » ، يضربونه ، ويجذبونه من شعره ، ويوقعون به ما استطاعوا من ضر وايذاء

وكان « أبو بكر » يشتغل بالتجارة ، ولم يكن له غنى عن أن يكد لرزقه ٠ فكان هذا يقتضيه أن يحسب حساب علاقاته بالناس ، والا قاطعوه وبارت تجارته ٠ لكنه أبى أن يكون منافقا، بل كان منذ اللحظة الاولى مؤمنا صادق الايمان ، يجهر بالاسلام ويدعو اليه ، غير مكترث بما يصيبه من أذى أو يلحق بتجارته من بوار !

ذلك لأن ايمانه بالله ورسوله كان فوق هذه الاعتبارات التى تدخل فى حساب الناس من منافع الحياة .. بل لقد كان ايمانا صغر معه شأن الدنيا بأسرها ، لأنه كان قويا راسخا لا تزعزعه الأحداث ولا تنال منه الأيام

ولعل هذا الايمان القوى هو الذى وقى الاسلام أن ينصرف عنه الناس ، عندما حدثهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بحديث الاسراء ، فراح المشركون يسخرون منه ، وساور الريب طائفة ممن كانوا قد أسلموا ، وقال بعضهم ان هذا مستحيل ! فاذا كانت البعير تقطع المسافة ما بين (مكة) و (الشام) فى شهر فى الذهاب ، وشهر فى الاياب ، أفيعقل أن يقطعها «محمد» فى ليلة واحدة ؟!

وذهب آخرون الى أنه كاذب أو مجنون !

وارتد كثيرون ممن كانوا قد أسلموا من قبل ..

وذهب قوم من المشركين الى « أبى بكر » ، وهم يقولون ساخرين عابثين شامتين : « هل لك الى صاحبك ؟ انه يزعم انه أسرى به الى بيت المقدس ؟! »

قال « أبو بكر » وقد تولاه الدهش : « انكم تكذبون عليه » !

قالوا : « كلا .. ها هو ذا فى المسجد يحدث الناس عن هذا الاسراء المزعوم » !

قال أبو بكر : « والله لئن كان قد قاله لقد صدق .. ! انه ليخبرنى ان الخبر ليأتيه من السماء الى الأرض فى ساعة من ليل أو من نهار فأصدقه .. فهذا أبعد مما تعجبون منه ! »

ثم ذهب « أبو بكر » الى النبى - صلى الله عليه وسلم - فطفق يسمع منه وهو يصف (بيت المقدس) .. **وكان « أبو بكر » قد زار (بيت المقدس) والمسجد الاقصى من قبل ، فلما أتم النبى وصفه قال أبو بكر : « صدقت .. وأشهد انك رسول الله » !**

الشرف المحفوف بالأخطار !

◆ **ان** موقف أبى بكر من الاسراء ليدل دلالة واضحة على أن الرسول لم يختره صديقا هكذا عبثا ·· وهو فى الوقت نفسه يرينا حكمة الله فى أن يختار الرسول « أبا بكر » صفيا له يوم اصطفاه الله ، وخليفة له يصلى بالناس مكانه ، يوم اشتد به المرض ، وعرف أنه ذاهب الى جوار الله !

ترى ماذا كان يحدث لو ان « أبا بكر » لم يصدق حديث الاسراء والمعراج ، وارتاب فيه كما ارتاب الكثيرون ممن كانوا يومئذ مسلمين ؟!

ان الانسان لا يستطيع الا أن يقف عند هذه العبارة القصيرة التى فاه بها أبو بكر : « صدقت ·· وأشهد انك رسول الله ! »

·· انها ـ على بساطتها ـ كانت بعض مظاهر عناية الله بدينه، ونصرته لرسوله ، وتأييده لدعوته ·· بل انها كانت ـ فى بساطتها ، بل فى قوتها ـ لا تقل أثرا عن أية غزوة من الغزوات التى أقدم عليها المسلمون فيما بعد ، ففتحوا بها الأمصار وأخضعوا فيها المشركين والكفار

ولما اشتد ايذاء قريش للرسول وصحبه فى (مكة) ، وبدأ بعض المسلمين يهاجرون الى (الحبشة) فرارا بدينهم من أعداء الله ، لم يفكر « أبو بكر » فى أن يهاجر مع من هاجر ، وانما بقى الى جانب الرسول ، يتلقى عنه ما يوحى اليه كى يذيعه فى الناس ، ويبذل من ماله ما يستطيع أن يبذل لخير من أسلم ولهداية من لم يسلم · حتى اذا ما أذن محمد لأصحابه أن يهاجروا الى (يثرب) ، استأذن « أبو بكر » فى الهجرة ، كى يمهد الطريق فى (يثرب) لرسول الله ، فلم يزد عليه الصلاة والسلام على أن قال له : « لا تعجل ·· لعل الله أن يجعل لك صاحبا » ! ·· عندئذ شاعت الغبطة فى نفس « أبى بكر » ، وأيقن انه مهاجر مع الرسول ، وأن الله سيسبغ عليه بذلك شرفا لا يعدله شرف !

.. اغتبط أبو بكر لهذه الصحبة ، وهو يعلم انه قد يدفع حياته ثمنا لها ! فقد كان يعلم أن قريشا أجمعت أمرها على قتل « محمد » ، كما كانت تتربص بكل من يريد الهجرة من المسلمين .. فان هو صحبه فى هجرته وأقدمت قريش على قتل محمد فيسقتل هو معه لا محالة . وكان ذلك فى رأيه شرفا يفوق كل شرف ، وتضحية تسمو على كل تضحية ، لأنه الاستشهاد الذى يضمن له الجنة بغير حساب !

محرر العبيد !

• **ولم** تقف تضحيات « أبى بكر » فى سبيل الله ورسوله عند حد تعريض حياته للخطر ، وتجارته للبوار ، وانما كان يعين الفقراء ، ويعتق الموالى الذين كان سادتهم يسومونهم سوء العذاب . كما كان يحمل المغارم عن المسلمين ، ويهيىء الوسائل لمن أراد الهجرة منهم ، حتى لقد أنفق فى سبيل ذلك أكثر من أربعين ألف درهم .. فضلا عما كان ينفق من ماله فى شراء الثياب والأطعمة ويوزعها على الفقراء من المسلمين

ومن العبيد الذين اشتراهم « أبو بكر » وأعتقهم : « بلال ابن رباح » ، مؤذن الرسول فيما بعد . **كان سيده يخرجه فى شدة القيظ الى الصحراء ، ويطرحه على ظهره فوق الرمال الساخنة ، ثم يلقى صخرة ضخمة فوقه ، ويظل يضربه وهو يقول : « لا أدعك حتى تموت ، أو تكفر بمحمد » ! .. فلا يزيد « بلال » على أن يقولها كلمة واحدة لا تتغير : « أحد .. أحد » ! ويظل يرددها حتى يغيب عن وعيه من ألم العذاب ! .. وقد اشتراه « أبو بكر » بما يساوى خمس أوقيات ذهبا .. فقيل له يومئذ : « لو أبيت الا أوقية واحدة لبعناك اياه » ! .. فكان جوابه : « لو أبيتم الا مائة أوقية لما تخليت عنه » !**

وهكذا مضى « أبو بكر » فى شراء العبيد والموالى بما يطلب سادتهم المشركون من ثمن يغالون فيه كى يعجزوه أو يفقروه !

وهو لا يبالى ما يبذل فى سبيل أولئك المساكين وانقاذهم من أيدى المشركين ، وما يذيقونهم من عذاب أليم ، ثم يعتقهم لوجه الله ! .. وكان كسبه لقلوب الضعفاء أربح للاسلام وأجدر بسمعته ، من كسبه قلوب علية القوم وأعلامهم الذين أسلموا على يديه ، بل كان أبلغ فى التدين من كل صلاة وقيام !

قال له أبوه ـ « أبو قحافة » ـ ذات مرة ، وقد علم بما كان يبذل فى شراء العبيد والموالى والأرقاء الذين عذبهم المشركون كى يعتقهم : « لو انك اذ فعلت ما فعلت ، أعتقت رجالا جلدا يمنعونك ويقومون دونك ! » .. (أى ليتك تحرر من العبيد الاشداء الذين يناصرونك ويدافعون عنك) .. فكان جوابه الذى يغنى عن كل تعليق ، وينم عن صدق ايمان : « يا أبت .. انما أريد ما عند الله » !!

معجزة .. قبل الهجرة !

● **ومنذ** أن عرف « أبو بكر » أنه مهاجر مع الرسول ، أعد راحلتين ، ولبث ينتظر مصيره ومصير صاحبه . حتى اذا ما كان فى بيته ذات مساء ، أقبل الرسول كعادته ، وأخبره أن الله قد أذن له فى الهجرة الى (المدينة) .. وعندئذ طلب «أبو بكر» الى الرسول أن يكون له فى هذه الهجرة رفيقا ، فأجابه الى ما طلب . وعاد « محمد » الى بيته ، الذى كان فتيان قريش يحاصرونه مخافة أن يفر .. فلما كان الثلث الأخير من الليل، خرج النبى صلى الله عليه وسلم الى دار « أبى بكر » فى غفلة من فتيان قريش ، فاذا « أبو بكر » ساهر ينتظر .. ومن ثم انطلق الاثنان الى غار (ثور) ، فاتخذا منه مخبأ أمينا

لكن قريشا أحست بما صنع « محمد » فراحت تبحث عنه فى كل مكان ، وأطلقت فتيانها فى اثره ليقتلوه أو ليعيدوه الى (مكة) . فلما بلغوا غار (ثور) ، صعد اليه بعضهم عسى أن يكون « محمد » مختبئا فيه .. ورأى « أبو بكر » فتيان قريش

وسمعهم يتنادون مع أصحابهم ، فتصبب العـرق البارد من جبينه ، وأمسك أنفاسه ، والتصق بالنبى كأنما يريد أن يدفع عنه أذى المهاجمين ! اما « محمد » فقد ظل فيما كان مستغرقا فيه من ذكر الله ، ولم يزد على أن همس فى أذن صاحبه : « **لا تحزن ٠٠ ان الله معنا** » !

وكانت المعجزة التى جعلها الله آية من آيات نبيه الدالة على انه حقا من عند الله ٠٠ فقد تلفت مطاردوهما من فتيان قريش ، فرأوا العنكبوت مخيما على باب الغـار ، واليمامة قد باضت عنده ، فانصرفوا عنه ، وهم يقولون بعضهم لبعض : « ان هذا الغار لم يطرقه أحد من قبل أن يولد محمد ! » ٠٠ ولما أن بعدوا نادى النبى صلى الله عليه وسلم : « الحمد لله ٠٠ والله أكبر » !

وازداد « أبو بكر » ايمانا وتثبيتا

ولم يكن جزع « أبى بكر » ساعة أحس بفتيان قريش ، لما قد يصيبه هو من مكروه، انما كان جزعه لما قد يصيب الرسول، وما كان ليحجم عن أن يفديه بنفسه ٠٠ وتلك لعمرى آية من آيات ايمانه القوى بالله ورسوله ٠٠ الايمان الصادق الذى ملك عليه كل مشاعره ، فى كل أطوار حياته ٠٠

- ٢ -

• **وهنا** تبدأ صفحة جديدة من تاريخ الاسلام ٠٠

فقد أذن الله لدينه أن ينتصر بقوة أهل (يثرب) ٠ وكان لأبى بكر فى هذه المرحلة الجديدة من حياة الاسلام دور لا يقل خطرا عن دوره فى (مكة) ٠٠ فعندما تم النصر للمسلمين فى غزوة (بدر) ، ورجعوا الى (المدينة) ومعهم مئات الأسرى من قريش ، كان هؤلاء يخشون أن ينتقم « محمد » منهم بعد الذى أذاقوه وصحبه أيام مقامه بينهم فى مكة ، فقال أحدهم : « لو بعثنا الى أبى بكر ٠٠ فليس أحد آثر عند محمد ولا أقرب اليه

منه » ٠٠ فلم يخيب «أبو بكر» رجاءهم ، وراح يستعطف النبى من أجلهم ، **بينما كان « عمر بن الخطاب » يثيره ضدهم ، ويوغر صدره عليهم ، ويطالب بعقابهم أشد العقاب ! ٠٠ ذلك أن « أبا بكر » كان بطبعه ميالا الى الرحمة ، مفطورا على طيبة القلب ، وان تكن طيبة لا تخلو من كياسة ، وحنكة ، ودهاء ، ظهر أثرها واضحا جليا فى سياسته عندما ولى أمور المسلمين ، وكان أول خليفة للرسول**

ولقد اجتمع لأبى بكر من أخلاق الصديقين والقديسين ما لم يجتمع لغيره من أصحاب رسول الله ٠ ولعل هذه الصفات كانت من بين ما أهله لأن ينيبه الرسول عنه فى الصلاة بالناس فى مرضه الأخير ، فكان ذلك آية صريحة فى استخلافه اياه

وفى مقدمة هذه الأخلاق ، بره بوالديه ٠ كان بصر أبيه قد كف قبل أن يلى ابنه الخلافة ، فلما سمع « أبو قحافة » بوفاة النبى صلى الله عليه وسلم قال : « أمر جلل ! » ، ثم سأل : « ومن ولى الأمر بعده ؟ » ، قيل : « ابنك » ، فقال : « صاحبه »! ولم يزد شيئا الا أن حمد الله وأثنى عليه ، لما أعطى وما وهب

فلما أقبل « أبو بكر » بعد ذلك الى مكة معتمرا ، خرج أبوه فجلس بباب داره ، فقيل له : « هـذا ابنك قد أقبل » ، فهم بالنهوض كى يتلقاه ، وكان « أبو بكر » ساعتها على راحلته ـ وهو يومئذ فى الستين من عمره ، أو نحوها ـ فما أن رأى أباه يهم بالنهوض ، حتى ألقى بنفسه من فوق راحلته قبل أن ينيخها وهو يقول : « يا أبت ٠٠ لا تقم ! » ٠٠ ولم ينتظر حتى ينيخ راحلته وينزل من فوقها وهو فى هذه السن ، مخافة على أبيه من مشقة النهوض ٠٠

يكره التعالى ٠٠ والمال الحرام !

◆ **وكان** « أبو بكر » يكره الخيلاء والكبرياء والتعالى ٠ دخل يوما على ابنته السيدة عائشة ـ زوج النبى ـ فاذا هى تمشى

وتنظر الى ذيل ثوبها ، فقال لها : « يا عائشة ! ٠٠ أما تعلمين ان الله لا ينظر اليك الآن ؟ » ، قالت : « ومم ذاك ؟ » قال : « أما علمت ان العبد اذا دخله العجب بزينة الدنيا مقته ربه عز وجل حتى يفارق تلك الزينة ؟ »

فلما نزعت تلك الزينة التى أعجبتها وتصدقت بها ، قال : « عسى ذلك يكفر عنك » !

وكان فى جاهليته واسلامه وقورا ، لم يؤثر عنه أنه شرب الخمر ، بينما كان أشراف قريش يفاخرون بشربها ويرونهـــا عنصرا من عناصر الحياة لا غنى عنه ٠ فلما سئل فى ذلك قبل اسلامه ، قال : « انما أصون عرضى ، وأحفظ مروءتى » !

وكان يكره المال الحرام ، حتى أنه لم يطق أن تستقر فى جوفه لقمة شك فى مأتاها ، فأدخل أصبعه فى حلقه وجعل يتقيأ ، ويتحايل على اللقمة حتى خرجت ! ٠٠ وقيل له : « يرحمك الله! أكل هذا من أجل لقمة ؟ » ٠٠ فقال : « لو لم تخرج الا ومعها روحى لأخرجتها » !

آداب الخصام !

◆ **ولم** يكن « أبو بكر » يحب أن يعتدى على أحد ، أو يغضب الا لدينه ولرسوله ٠٠

جرى بينه وبين « ربيعة الأسلمى » يوما كلام ، فقال « أبو بكر» لربيعة كلمة جارحة، ثم عاد فندم عليها ، فقال : « ياربيعة ٠٠ رد على مثلها حتى يكون قصاصا ! » فلم يرض «ربيعة» ٠٠ قال أبو بكر : « قل لى مثلها أو استعدين عليك رسول الله » ، فأبى ربيعة أن يفعل ٠٠ فانطلق « أبو بكر » ، وجاء رجال من قوم « ربيعة » فقالوا له : « لماذا يستعدى عليك بعد الذى قاله لك ؟! » ٠٠ قال لهم ربيعة : « كفوا ٠٠ أتدرون من هو أبو بكر هذا ؟ انه ثانى اثنين ٠٠ اياكم أن يلتفت فيراكم تنصروننى عليه

فيغضب ، فيأتى رسول الله فيغضب لغضبه ، فيغضب الله لغضبهما ، فيهلك ربيعة ! »

وأتى « أبو بكر » النبى وقص عليه ما حدث . وكان «ربيعة» قد لحق به عند الرسول ، فرفع النبى رأسه اليه وقال : « يا ربيعة ! مالك والصديق ؟ »

قال ربيعة : « يا رسول الله .. قال لى كذا ، فكرهت ذلك منه ، ثم قال لى قل لى مثلها وردهاعلى فتكون قصاصا ، فأبيت! »

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أجل .. لا ترد عليه .. ولكن قل قد غفر الله لك يا أبا بكر ! »

ولم يعرف انه استعصى عليه كبح جماح غضبه الا مرة واحدة .. ثم عاد فندم ! .. فقد أخذ « الفجاءة بن عبد ياليل » منه سلاحا زعم انه سيحارب به المرتدين ، فاذا به يستعمله فى قتال المسلمين ، وراح يقطع عليهم الطريق ، ينهب ويسفك الدماء بغير حساب !

وبلغ النبأ « أبا بكر » فمس شغاف قلبه وكرامته ، وأحس أن « الفجاءة » ـ فضلا عن أنه قد مس وقاره وجعله موضع الاستهزاء أمام نفسه ـ قد غدر بالمسلمين وأراق دماءهم غيلة ، فلم يملك نفسه ، وثار لهذه الخديعة الآثمة .. **حتى اذا وقع « الفجاءة » فى الأسر ، أمر « أبو بكر » بالنار فأوقدت ، ثم جاء بالفجاءة مكبلا بالحديد والأغلال ، وأمر بالقائه فيها جزاء غدره وخيانته للمسلمين !**

ومع ذلك فقد بقى طوال حياته يندم على حدته وشدته فى ذلك العقاب !

سباق الى الخير !

◆ **وكان** دائما سباقا الى الخير

قال عمر بن الخطاب : « ما سابقت أبا بكر الى خير قط ، الا سبقنى اليه »

وقال على بن أبى طالب : « هو السباق ٠٠ والذى نفسى بيده ، ما استبقنا الى خير قط الا سبقنا اليه أبو بكر »

صلى النبى الصبح ذات يوم ، فلما قضى صلاته التفت الى أصحابه وقال : « أيكم أصبح اليوم صائما ؟ »

قال أبو بكر : « أنا يا رسول الله ٠٠ بت الليلة وأنا أحدث نفسى بالصوم ، فأصبحت صائما » ٠٠ ولم يكن من صائم سواه ٠٠

ثم سأل النبى أصحابه : « فأيكم عاد اليوم مريضا ؟ » ٠٠

قال عمر : « انما صلينا الساعة يا رسول الله ولم نبرح ٠٠ فكيف نعود المريض ؟ » ٠٠ وقال أبو بكر : « أنا يا رسول الله ٠٠ أخبرونى أن أخى عبدالرحمن بن عوف مريض وجع ، فجعلت طريقى اليه ، فسألت عنه ، ثم أتيت المسجد » !

ثم سأل النبى أصحابه ثالثة : « فأيكم تصدق اليوم بصدقة ؟ »

قال عمر : « يا رسول الله ٠٠ ما برحنا معك مذ صلينا ٠٠ فكيف نتصدق ؟ » ٠٠ وقال أبو بكر : « أنا يا رسول الله ٠٠ دخلت المسجد فاذا سائل يسأل ، وابن لعبد الرحمن بن أبى بكر معه كسرة خبز ، فأخذتها وأعطيتها السائل ! »

قال النبى : « فأبشر بالجنة ٠٠ أبشر بالجنة » !

ينازل ابنه فى الحرب !

◆ **وما** نظن أحدا امتحن فى ايمانه ، بمثل ما امتحن به «أبو بكر » فى يوم (بدر) ٠٠ اذ التحم المسلمون مع المشركين فى معركة دامية ، فاذا ابنه « عبد الرحمن » فى طليعة المشركين ، وقد أعمل سلاحه فى المسلمين ضربا وطعنا ! ٠٠ وكان فتى من أشجع فتيان قريش وأنفذهم سهما ، فما أن رآه أبوه يتقدم صفوف المشركين حتى دعا عليه ٠ **وما أن خرج عبد الرحمن يدعو المسلمين الى المبارزة ، حتى خف اليه أبوه ليبارزه ، لأنه لم يشأ أن يدع أمره لأحد غيره من المسلمين !**



ولما أسلم « عبد الرحمن » بعد ذلك ، قال لأبيه : « لقد أهدفت لى يوم (بدر) فتحاميتك ولم أقتلك !» ٠٠ قال أبو بكر : « لو أهدفت لى لقتلتك وما تحاميتك ! »

أرأيت ايمانا أقوى من هذا الايمان الذى يحمل أبا بكر على قتل ابنه ، فى سبيل ربه ودينه ، وهو الذى عرف – فى الجاهلية وفى الاسلام – بأنه الابن البار غاية البر بأمه وأبيه ، والوالد العطوف غاية العطف على أولاده وبناته ، والزوج الوفى غاية الوفاء لزوجاته ؟!

« أبو بكر » ٠٠ الزوج والأب

◆ **ولقد** تزوج « أبو بكر » مرتين فى الجاهلية ، ومرتين فى الاسلام ٠٠ وكانت أولى زوجاته « قتيلة بنت عبد العزى » ، تزوجها فى صدر شبابه فولدت له « عبد الله » و « أسماء » ٠٠ فأما عبد الله فكان من أشجع شباب قريش ، كما كان أديبا رقيق الحاشية ، وهو الذى كان يأتيه بأخبار قريش بعد هجرته الى المدينة ٠ وله شعر مأثور فى زوجته « عاتكة » ، اذ كانت من أجمل فتيات قريش ، فشغل بها عن شئونه ، حتى أوحى اليه والده أن يطلقها ، فطلقها ٠٠ ثم ندم على طلاقها أشد الندم ، وقال فيها من الشعر ما قال ، حتى رق له قلب أبيه وأمره باعادتها الى عصمته

وأما « أسماء » ، فهى التى لقبت فيما بعد « ذات النطاقين » ، والتى تحملت من أذى قريش ما تحملت فى سبيل هجرة أبيها

مع الرسول وتزويدهما بالطعام فى تلك الهجرة، ولما لم تجد ما تشد به طعامهما شقت نطاقها وشدته به ، فدعاها الرسول « ذات النطاقين » !٠٠ وكانت من خير نساء العرب ٠٠ كانت زوجة مثالية ، تقوم فى بيت زوجها ـ « الزبير بن العوام » ـ بما يقوم به الخدم ، دون أن تشكو أو تضجر ، لأنه كان فقيرا ٠٠ ولم يمنعها أنها أبنة أبى بكر وزوجة بطل من أعظم أبطال الاسلام ، أن تعلف فرس زوجها ، وتسقيه ، وتملأ الماء وتحمله من مكان بعيد !

وبعد « قتيلة » ، تزوج « أبو بكر » من « أم رومان » ـ أشهر زوجاته ـ وقد ولدت له « عبد الرحمن » و « عائشة » ، أم المؤمنين ، وزوجة الرسول ، وأحب زوجاته الى قلبه ، لأنها كانت ـ على حداثة سنها ـ « موسوعة » رائعة فى الشعر والأمثال والأخبار ، ثم لم تلبث أن غدت بعد زواجها مرجعا من أهم مراجع الفقه والسنة ، حتى قال رسول الله لأصحابه يوما وهو يشير اليها : « خذوا نصف دينكم عن هذه الحميراء ! »

أما زوجتاه بعد اسلامه ، فأولاهما « حبيبة بنت خارجة » ـ التى ولدت له «أم كلثوم» ـ وثانيتهما «أسماء بنت عميس» التى ولدت له ابنه « محمدا »

موقف أبى بكر يوم وفاة النبى

• **وكانت** ولايته الخلافة بعد رسول الله ، خير ما فعله المسلمون ٠ فقد وقى الله المسلمين بذلك فتنة كانت كفيلة بأن تمزق شملهم ، وتبدد جمعهم ، وتترك الاسلام أثرا بعد عين ٠٠ اذ شعر النبى يوم وفاته بشىء من العافية من مرضه ، فخرج من بيت « عائشة » الى المسجد ، وتحدث الى المسلمين ، ودعا لأسامة بن زيد الذى كان قد عقد له قيادة الجيش الذاهب لغزو بلاد الروم ٠

فلما استطار الخبر بعد ذلك بساعات بأن رسول الله قد

مات ، تولى المسلمين الذهول ! ٠٠ وغضب « عمر بن الخطاب » غضبته المضرية المرهوبة ، وثار بالنعاة يتوعدهم ليقطعن أيديهم وأيدى كل من يزعم أن محمدا قد مات ! ٠٠ وكان « أبو بكر » قد ذهب الى داره ، فكر راجعا الى دار « عائشة » ، فبصر بالمسلمين مجتمعين وعمر يخطبهم ، ويهددهم ! فلم يقف ، بل دخل الى حيث كان النبى مسجى ، فكشف عن وجهه ، وجعل يقبله ويقول : « ما أطيبك حيا ، وما أطيبك ميتا !! »

ثم خرج الى الناس فقام فيهم خطيبا ، وقال عبارته الخالدة : **« أيها الناس ٠٠ من كان يعبد محمدا فان محمدا قد مات ٠٠ ومن كان يعبد الله فان الله حي لا يموت ! » ٠٠ ثم تلا قول الله تعالى : « وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل ٠٠ أفئن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ٠٠ ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا ، وسيجزى الله الشاكرين » ٠٠**

فلما سمع عمر الآية خر على الأرض ما تكاد تحمله رجلاه ، وكأنه لم يسمع هذه الآية من قبل ، وأيقن أن رسول الله قد مات ٠٠ ووجم الناس لما سمعوا ورأوا ، وأقاموا فى ذهولهم لا يدرون ما يصنعون !

أليس هذا الموقف من أبى بكر دليلا جديدا على قوته النفسية ، ونفسيته القوية ، وهو الذى كان جديرا به أن يجزع لوفاة رسول الله أكثر مما جزع « عمر بن الخطاب » ؟ ٠٠ فهو صفى النبى وخليله ، وهو الذى آثره فى كل موقف على نفسه ، وهو الذى أجهش بالبكاء عندما سمع النبى يقول : « ان عبدا من عباد الله خيره الله بين الدنيا وبين ما عنده ، فاختار ما عند الله » ، اذ علم « أبو بكر » يومئذ ان رسول الله انما كان ينعى نفسه ، ويخبر المسلمين بقرب موته !

لكن أبا بكر رغم ما وصف به من سرعة الحزن ، ورقة القلب، وشجى النشيج (أى البكاء فى صمت) ، كان قوى النفس ، لم

يذهله النبأ الفاجع بموت الرسول عن أن يواجه الحقائق ، دون أن يؤثر ذلك فى حبه لمحمد أو تقديسه اياه

ولعل هذه القوة النفسية التى أعانت أبا بكر فى هذه الساعات العصيبة ، هى بعينها التى أعانته فى الساعات العصيبة الأخرى التى تعرض لها فيما بعد ، وهى بعينها التى جنبت المسلمين كثيرا من الفتن التى واجهتهم بعد وفاة الرسول ٠٠ اذ كانت كل فتنة منها كفيلة بأن تهلك الحرث والنسل ، لولا قوة « أبى بكر » النفسية وصدق ايمانه وبعد نظره وحسن تقديره للأمور

أزمة بين الأنصار والمهاجرين

◆ **وكانت** أول أزمة تعرض لها المسلمون بعد وفاة الرسول ، هى التفكير فى مصيرهم ، والى من يؤول أمرهم من بعده ٠٠ تلك الأزمة التى تعرضوا لها ولما يمض على وفاة الرسول غير لحظات ، وهو ما زال مسجى لم يثو بعد فى قبره !

بل لعل التفكير فى هذا المصير قد سبق موت الرسول بكثير ٠٠ فقد كان «الأنصار» يجدون على «المهاجرين» انهم جاؤوهم ضعافا مطرودين ، لا مأوى لهم ولا نصير ، فلما أعزتهم المدينة وأهلها أرادوا أن يستأثروا بالأمر دونهم ! ٠٠ وكانت هذه الروح الخبيثة تسرى فيما بينهم دون أن يجرأوا على الجهر بها أو التحدث فيها الا خفية ٠ لكن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ما لبث أن عرف ما يدور فى نفوس القوم ، فطلب الى « سعد بن عبادة » ، زعيم الخزرج أن يجمعهم اليه ٠ فلما اجتمعوا قال لهم صلوات الله عليه : « يا معشر الأنصار ٠٠ ماقالة بلغتنى عنكم ، وجدة وجدتموها فى أنفسكم ! ٠٠ ألم آتكم ضلالا فهداكم الله ، وعالة فأغناكم الله ، وأعداء فألف بين قلوبكم ؟! »

فأطرق الأنصار خجلا من رسول الله وقالوا : « بلى يا رسول الله ٠٠ لله ورسوله المن والفضل » ٠٠ فقال الرسول : « أما والله

لو شئتم لقلتم ، فلصدقتم ولصدقتم : أتيتنا مكذبا فصدقناك ، ومخذولا فنصرناك ، وطريدا فآويناك ، وعائلا فآسيناك » !..

وما أن بلغ الرسول هذه العبارة حتى غلبه التأثر فقال : « يامعشر الأنصار .. أما ترضون أن يذهب الناس بالشاة والبعير ، وترجعون برسول الله الى رحابكم ؟! .. فوالذى نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار ، ولو سلك الناس شعبا ، وسلك الأنصار شعبا ، لسلكت شعب الأنصار .. اللهم ارحم الأنصار ، وأبناء الأنصار ، وأبناء أبناء الأنصار »

ولقد تأثر الانصار يومها من عبارات الرسول ، لانها كانت صادرة من قلبه ، فبكوا وقالوا : « رضينا برسول الله قسما وحظا » !

خلاف على الخلافة !

◆ **أما** اليوم ، فان رسول الله قد مات .. فما هو أن ذاع نبأ وفاته ، حتى تداعى الانصار الى سقيفة « بنى ساعدة » .. وكان « سعد بن عبادة » — زعيم الخزرج — مريضا فى داره ، فحملوه الى السقيفة حملا . وهناك جعل أحدهم ينقل الى المجتمعين كلام « سعد » ، اذ أوهن المرض صوته .. فقال ان المهاجرين ما كانوا يقدرون أن يمنعوا رسول الله أو يعزوا دين الله ، ولا حتى أن يدفعوا عن أنفسهم الضيم الذى أنزلته بهم قريش ، بينما الانصار هم الذين آووا ونصروا ، وأعزوا دين الله حتى استقام الامر لرسول الله ، ودان له — بأسيافهم — العرب فى كل مكان .. فهم أولى بالامر دون الناس !

وعلم « أبو بكر » و « عمر » أن الانصار يجتمعون فى السقيفة لاختيار الخليفة منهم ، فخرجا اليهم ، وفى طريقهما التقيا بأبى عبيدة الذى كان رسول الله يسميه « أمين الامه » ، فرافقهما الى السقيفة . ولاح لاول وهلة أن الخطر عظيم ، اذ همت الفتنة بأن تنطلق من عقالها بغير عنان ، فكانت يقظة

« أبى بكر » وصاحبيه أسرع منها ، وكانت كلمة من « أبى بكر » أقوى من جيش وأنفذ من سهم !

قال : « **ان هذا الامر اذا تولته الخزرج نفس عليهم الاوس . واذا تولته الاوس نفسته عليهم الخزرج .. ولا تدين العرب لغير هذا الحي من قريش .. نحن الامراء ، وأنتم الوزراء ، لا تفتاتون بمشوره ، ولا تقضى دونكم الأمور** »

وقال عمر : « **ان العرب لا تمنع أن تولى أمرها من كانت النبوة فيهم ، وولى أمورهم منهم** » ..

وقال أبو عبيدة : « يا معشر الانصار .. كنتم أول من آزر ونصر ، فلا تكونوا أول من بدل وغير » !

ونادى أبو بكر : « هذا عمر ، وهذا أبو عبيدة ، فأيهما شئتم فبايعوا »

فقال عمر وأبو عبيدة : « **لا والله .. لا نتولى هذا الامر عليك .. فانك أفضل المهاجرين ، وثانى اثنين اذ هما فى الغار ، وخليفة رسول الله على الصلاة ، والصلاة أفضل دين المسلمين .. فمن ذا الذى ينبغى أن يتقدمك أو يتولى هذا الامر عليك ؟! أبسط يدك نبايعك !** »

وتمت المبايعة .. وماتت الفتنة وهى بعد جنين فى صدور من كانوا يوشكون أن يثيروها ! ولولا فضل الله ورحمته ، ولولا حزم أبى بكر وحكمته ، وقوة ايمانه وصلابة ارادته ، لأوشك هذا الدين الجديد أن يتعرض لزوابع الخلاف فى موطنه ، ولجاز أن يتغير مجرى الامور .

وهكذا أثبت « أبو بكر » منذ اللحظة الاولى لوفاة الرسول ، انه بحسن سياسته وحكيم تصرفه ، خير من يخلف النبى المسجى فى بيته ، فى تولى أمور المسلمين

الخطوط الرئيسية للامبراطورية

◆ **ولم** يكن عمل الصديق فى خلافته أقل جلالا من صحبته

رسول الله فى حياته ٠٠ كان فى عهد الرسول ثانى اثنين حيثما كان الرسول أول الاثنين ٠٠ أما بعد وفاة الرسول ، فقد حمل « أبو بكر » العبء ، متبوعا لا تابعا ، وأصيلا لا مساعدا ! ٠٠ حمله بايمان وأمانة ، وتجرد لنشر دين الله وتأييد كلمته بصورة لا يملك الانسان معها – مهما تكن عقيدته ودينه – الا أن يحنى أمامها هامته ، اجلالا وتقديرا ، بل « وتقديسا » أيضا !

واذا كان « أبو بكر » صاحب الفضل فى اسلام من أسلم من أشراف العرب – أمثال عثمان وعمر ومن اليهم من سادة قريش – فقد كان فى خلافته نفس القوة الهائلة التى تجلت فى عهد النبوة ، ولكنها برزت هنا بشكل أوضح ، وبصورة أعم ، فكان مثله فى ذلك مثل القمر ، اذا اكتمل له البهاء والجلال بعد أن غربت شمس الرسول !

ان كل موقف من مواقف « أبى بكر » فى خلافته – على قصر مدتها – جدير بأن تفرد له الكتب ، وكلها تشهد له بحسن الرأى وبعد النظر ٠٠ فغزوه الفرس ، وحروب الردة ، وجمعه القرآن ، وفتحه الشام من بعد فتح العراق ٠٠ كل ذلك وغيره مما قام به « أبو بكر » فى مدة خلافته ، أو رسم سياسته وخطته ، هو الاساس الذى قام عليه صرح الامبراطورية الاسلامية من بعده ، حتى شملت شرق الارض وغربها ٠٠

ولقد كان عهد « أبى بكر » امتدادا لعهد الرسول صلى الله عليه وسلم ٠٠ بل لقد كان فترة الانتقال بين عهد الرسول وبين عهد الامبراطورية الاسلامية ، وهو لذلك جدير بأن يوصف بأنه أخطر فترة فى تاريخ الاسلام ٠ فهو الذى تفتحت فيه أبواب الامبراطورية الاسلامية الزاهرة ، ودان لها العالم وبدأ يحسب حسابها ، كما بدأت هى توجه تاريخه وتبعث الحضارة الانسانية فيه ، بل وتخلقها خلقا جديدا ٠

يحاسب نفسه فى المرض

◆ **ولقد** أتم « أبو بكر » فى سنتين ، مالم يكن ليتم فى سنوات !.

قضى على ردة العرب ، وعلى الثورة التى اندلعت اثر وفاة الرسول بسبب هذه الردة ، فأشعلت الجزيرة نارا ، وفتح العراق ، وأوشكت جيوشه أن تدق أبواب عاصمة فارس ، وتقدم فى فتح الشام الى دمشق ، وجمع القرآن فحفظه من أن يناله التحريف أو النسيان .. وهذه كلها أعمال جسام تنوء بها العصبة أولو القوة .. ولكنه « أبو بكر » ! .. أبو بكر الذى أوتى من توفيق الله مالا يؤتاه الا الصديقون .

وفجأة مرض أبو بكر ، وأحس أنه ملاق ربه ورسوله عما قريب .. فما شغله مرضه عن أن يفكر فى أمور المسلمين ، بل لعل هذا المرض لم ينل منه بعض الذى ناله من حسابه الدائم لنفسه طوال الأسبوعين اللذين لزم فيهما الفراش .

وكان أهم ما يشغل بال أبى بكر فى مرضه ، ما سيصيب المسلمين بعد وفاته .. فلقد خشى أن تقع الفتنة بينهم كما كادت تقع يوم وفاة الرسول ..

وعجم « أبو بكر » أعواد أصحابه ، فلم يجد أصلب من « عمر بن الخطاب » .. عمر الذى امتدحه الرسول فى حياته بحديثه المأثور الذى ينتهى بقوله صلى الله عليه وسلم : « ألا وان عمر حسنة من حسنات أبى بكر » ! .. لذلك دعا الخليفة اليه كلا من « عثمان بن عفان » ، و « عبد الرحمن بن عوف » ، و « سعيد بن زيد » ، وغيرهم من الصحابة ، وسأل كلا منهم — على انفراد — عن رأيه فى عمر ، فأجمعوا على انه أولى الناس بالخلافة ، اذ ليس فيهم مثله ...

أول وصية فى الحكم الاسلامى

◆ **وسمع** المسلمون بما كان من مشاورات « أبى بكر » ،

فأشفق الكثيرون من شدة « عمر » ، فدخلوا على الخليفة وهو فى فراش مرضه ، وقال له طلحة بن عبيد الله : « ما أنت قائل لربك اذا سألك عن استخلاف عمر علينا ، وقد رأيت ما يلقى الناس منه وأنت معه ، فكيف به اذا خلا بهم بعد لقائك ربك ؟ » ! .. **وملك الغضب « أبا بكر » فقال والمرض يهزه : « أجلسونى ! » .. فلما أجلسوه قال : « أبالله تخوفوننى ؟! .. خاب من تزود من أمركم بظلم ! أقول اللهم استخلفت على أهلك خير أهلك » ! .. ثم التفت الى طلحة وقال : « أبلغ عنى ما قلت ، من وراءك » !**

ثم دعا فى غده عثمان بن عفان ، وكان يكتب له ، فقال له « اكتب » .. ثم أملاه وصيته التى استخلف فيها ابن الخطاب .. « فان عدل فذلك ظنى به وعلمى فيه ، وان بدل فلكل امرىء ما اكتسب من الاثم ، والخير أردت ، ولا أعلم الغيب ، وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون » .. ثم دعا عمر اليه فأوصاه بما أوصاه به .

.. وجاءت سكرة الموت !

◆ **وقد** ذكر « أبو بكر » فى مرضه هذا أن أصحابه كانوا قد جعلوا له من بيت المال ما يصلح به نفسه وعياله ، بعد أن فقد فى الاسلام كل ثروته ، وكانت طائلة .. فلما رأى أنه مشرف على الموت قال لأهله : « ردوا ما عندنا من مال المسلمين ، فانى لم أصب من هذا المال شيئا » !

وكانت له أرض أوصى بأن تباع ويرد ثمنها الى بيت المال ، بما أصاب من أموال المسلمين !! .. **وهكذا بلغ حرص « أبى بكر » على أن يترك الدنيا بريئا وقد ألقى عن نفسه كل ما يخشى أن يؤاخذه الله به .. فلما اطمأن الى ذلك أوصى بأن يكفن فى ثوبيه اللذين كان يلبسهما ، قائلا : « ان الحى أحوج للجديد من الميت » !!**

ثم بدأ يعالج سكرات الموت ٠٠ وكانت ابنته السيدة « عائشة » الى جواره ، فراحت تردد قول حاتم طى :

لعمرك ما يغنى الثـــراء عن الفتى
اذا حشرجت يوما وضاق بها الصدر !

فنظر اليهـــا الصديق عاتبـا وقال : « ليس كذلك يا أم المؤمنين » ٠٠ ولكن : « وجاءت سكرة الموت بالحق ، ذلك ما كنت منه تحيد » !

وكان آخر ما فاه به قبل موته : « رب توفنى مســلما ، وألحقنى بالصالحين » ٠



نمر الثلوج !

الحمال الذى قهر أعلى قمة فى العالم..!

تلخيص : فرج جبران

الحمال الذى كرمه الملوك !

◆ ظل يحلم طوال عمره بأن يصل الى أعلى بقاع العالم كله ٠٠ الى قمة (ايفرست) ! ولكن العالم لم يكن يحلم مطلقا بان يهزم القمة المنيعة ـ التى استعصت على أمهر متسلقى الجبال ـ شاب خامل من ابناء الهند ، ربما كان أعظم تقدير تخلعه عليه بعثات المستكشفين من أبناء الغرب هو أن تتخذه رئيسا لحماليها !٠٠ وبين عشية وضحاها ، أثبت « تنزنج » الهندى ، الأمى ، البسيط ،أن حلمه كان أصدق من حلم العالم ، وان ابن الشرق المتواضع يطوى جوانحه على همة تدين لها ٠٠ حتى « أم جبال العالم » ، ايفرست ٠٠ وان القمة التى استعصت على أمهر رواد الجبال الغربيين ، ألانت جانبها لابن الهند و«هيملايا»البسيط، المنحدر من سلالة حمالى البعثات ٠٠

وبين عشية وضحاها ـ أيضا ـ ذاع اسم « تنزنج » ، وتناقلتـه البرقيات ٠٠ وانهالت مظاهر التقدير على الهندى المتواضع ، ودعى الى زيارة عواصم الغرب الكبرى ، وأغرقته حفلات التكريم ٠٠ واستقبله ملك (نيبال) وملكة انجلترا ، وأنعما عليه بالاوسمة والنياشين !

انها قصة من أروع قصص المغامرات ، تختلف عن القصص الاخرى فى أنها مقتطعة من صميم الواقع لا من نسج الخيال !٠٠ وقد رواها بنفسه الى الكاتب الانجليزى « جيمس رمزى أولمان » ، الذى كتبهـا ونشرها على الفور ٠٠

وها هى ذى بين يديك اليوم !

رجل متواضع ٠٠ فى قمة الأرض !

◆ **اننى** فرد من أبناء قبيلة «الشيربا» ٠٠ رجل متواضع من أبناء الجبال ٠٠ جبال (هيملايا) العظيمة !

على أننى رجل سعيد ٠٠ كان ثمة حلم قديم يراودنى ، فقدر لى أن أحققه ٠٠ وهو أمر لا يحدث لكل الناس ! ٠٠ **هذا الحلم هو تسلق جبل (ايفرست) الذى يسميه قومى « شومولنجما »٠** فقد كان أملى ، طوال حياتى ، أن أبلغ أعلى بقعة على سطـح الأرض ٠ وقد وفقت أخيرا ـ وبعد المحاولة السابعة ـ الى تحقيق ما أريد ٠ وها أنذا أقول بلغة « الشيربا » : « توجى تشى » ٠٠ أى : « أنا شاكر » !

« أم » جبال العالم !

◆ **ولدت** فى (صولوخومبو) ـ بولاية (نيبــال) ـ عام ١٩١٤ ، فى الغالب ! ٠٠ اذ ليس لدى « الشيربا » سجلات للمواليد ٠ ومع أننى أتكلم الآن بلغات عديدة ، الا اننى لم أتعلم قط فى حياتى القراءة أو الكتابة!



« تنزنج »
قاهر أعلى جبل فى العالم !

وكنت ـ منذ طفولتى ـ أحلم بالأسفارة البعيدة ، والرحلات الخطيرة ٠ فلقد أقبل على بلادى ـ وأنا بعد طفل ـ عدد من المستكشفين البريطانيين من رواد الجبال ، فاستأجروا فريقا من أبناء قبيلة « الشيربا » ليحملوا لهم متاعهم ومعداتهم فى جبال (هيملايا) ٠٠ وما لبث رجال « الشيربا » أن اكتسبوا شهرة واسعة بوصفهم أمهر رجال الجبال ٠ ولقد ذهب كثير منهم مع البعثات المشهورة الثلاث التى أقدمت فى أعوام ١٩٢١ و ١٩٢٢ و١٩٢٤ على محاولة اكتشاف (ايفرست) ، ثم عادوا يروون قصصا مثيرة ، غريبة ٠٠ ولم يكن للجميع من حـديث الا عن (ايفرست) ٠٠ وسألتهم : « وما هو ايفرست ؟ » ، فأجابوا : « انه الاسم الذى يطلقونه على شومو لنجما ، أعلى جبال العالم ! » ٠٠ **ويقال ان « شومو لنجما » فى لغة « الشيربا » معناها « أم جبال العالم ! » ٠٠ وانها « الجبل العالى الذى لا يستطيع طائر أن يحلق فوقه ! »** ٠٠ هذا ما تلقنه أمهات « الشيربا » لأطفالهن ٠٠ وهذا ما علمتنيه أمى !

وكنت الطفل الحادى عشر بين ثلاثة عشر ابنا رزقهم والداى ٠ وقد قضيت صباى كله فى رعى حيوان « الياك » الذى يمدنا

بالصوف والجلد والجبن والزبد ٠ وكان حيوان « الياك » يرعى فى سفوح الجبال ، الا اننى كنت أقود قطيعى الى مراع تعلوعلى سطح الأرض بثمانية عشر ألف قدم !٠٠ ومن هذا الارتفاع، كنت أجيل النظر فى الجبال الشامخة المحيطة بى كالأسوار الشاهقة ، أو القلاع المنيعة ٠٠ ولكن بصرى كان لا يلبث أن يستقر فى النهاية على (شومو لنجما) ٠٠ الجبل العالى الذى لا يستطيع طائر أن يحلق فوقه ! ٠٠ وبدأت أحلم بتسلق هذا الجبل !

طموح مساعد الحمال !

◆ **وكنت** فى الحادية والعشرين من عمرى ، حين حصلت على أول عمل لى يتصل بتسلق الجبال٠٠فقداختارنى«اريك شبتون» البريطانى ، فى سنة ١٩٣٥ ، للاشتراك فى بعثة ارتياد(ايفرست) ٠٠ وكان العمل شاقا ، اذ كان علينا أن نحمل فوق ظهورنا أحمالا يتراوح وزنها بين ٦٠ و٩٠ رطلا فى المعسكرات الدنيا ، ولا تتجاوز ٥٥ رطلا فى المعسكرات العليا !٠٠ وكانت المهمة تتلخص فى الصعود والهبوط ، الى أن يتم نقل جميع الأحمال ٠ وقد تعلمت أمورا كثيرة فى تلك المرة الأولى ، كما رأيت كثيرا من الأشياء : ارتديت ثيابا معينة ، وحذاءين من نوع خاص ٠ وكنا نقتات على الاطعمة المحفوظة ، وننام فى أكياس خاصة ! ٠٠ على أن أهم ما اكتسبت ، هو أننى تعلمت الكثير عن تسلق الجبال ٠٠ تعلمت أصول فن التسلق ، وكيف تستخدم الفؤوس ، وكيف تبنى المعسكرات ، وكيف تختار الطرق ٠٠ لا أقصر الطرق فحسب ، بل آمنها كذلك !

ومع أننى لم أكن أكثر من مساعد حمال ، الا أننى بذلت جهدا كبيرا لأكون نافعا بوجه عام ٠ ولما كان الامعان فى الارتفاع عن سطح الارض لا يؤثر فى قوتى كثيرا ، فقد كنت ممن حملوا الاثقال الى ارتفاع ٢٣٠٠٠ قدم ، وهذا أقصى ما بلغته تلك

البعثة ! ·· ولكننى كنت شديد الرغبة فى الوصول الى نقطة أعلى ·· كنت أحلم بالوصول الى قمة (ايفرست) ·· ولا أقل من القمة !

الاقبال على « استئجار » النمر !

• **وتوالت** البعثات فى السنوات التالية ، لا لارتياد (ايفرست) وحدها ، وانما لاكتشاف الجبال الأخرى فى سلسلة (الهيملايا) أيضا ! ·· واستطعت أن أصبح من « النمور » ـ وهو اللقب الذى يطلقه البريطانيون على متسلقى الجبال العالية من « الشيربا » ـ ومن ثم اشتد الاقبال على استئجارى من البعثات ··

ثم جاء اليوم العظيم فى سنة ١٩٥٢ ، حين ترامت الى الانباء بأن السويسريين يفكرون فى ايفاد بعثة لارتياد (الهيملايا) ، وانهم يريدون استخدامى « سردارا » ، أى رئيسا لمن يرافقونهم من « الشيربا » · وكثير من الناس لايعرفون ما الذى يمكن أن يؤدى « الشيربا » فى بعثة اكتشافية ·· ففى وسعنا أن نحمل من الأثقال ، وأن نصعد بها الى أعلى مما يستطيع أى فريق آخر من الناس أن يفعل ، فى أية جهة من العالم ! ·· ونحن لا نرهب الجبال ، بل ان خبرتنا بها ساعدتنا على مر الايام فى اختيار الطرق ، والتنقيب عنها ، واختيار أنسب المواقع لاقامة المعسكرات · كما أننا نبذل قصارى جهودنا فى العناية برواد الجبال ، فنطهو لهم الطعام ، ونحافظ على معداتهم ، ونحرص على راحتهم فى خيامهم · ولسنا نفعل ذلك كخدم ، وانما كزملاء !

وتخيرت ١٣ رجلا · وفى أوائل الربيع ـ وهو موسم بعثات تسلق الجبال ـ يممنا شطر (كتمندو) ، عاصمة (نيبال) ·· فقد كانت البعثات السابقة تحاول تسلق (ايفرست) من الناحية الشمالية دائما ، ولكن الصين الشيوعية أغلقت (التبت) فى وجه البعثات الغربية ـ بعد الحرب ـ فاضطر السويسريون الى أن يبدأوا محاولتهم من الجنوب ··

يتنفس بثلاث رئات !

• **وكان** أبرز أعضاء البعثةالسويسرية ، هو المرشدالمحترف « رايموند لامبرت » ، أحد أبطال تسلق جبال (الالب) ٠ وقد أصبح - بعد اتصالنا فى أعالى الجبال - من أصدق أصدقائى ٠٠ والواقع أن « الشيربا » أحبوا السويسريين أكثر مما أحبوا غيرهم من الاوربيين !

وعندما بلغ السويسريون المعسكر « رقم ٣ » - الذى أقمناه على ارتفاع ٢٠٫٠٠٠ قدم - بدأ بعضهم يشعر بضيق فىالتنفس! **٠٠ وأذكر أن أحدهم أشار نحوى، ونحن نتحدث فى هذا الصدد ، ثم قال : « هذا هو الوحيد الذى لا يشعر بأى ضيق فى التنفس ! » ٠٠ وقال آخر مداعبا : « ان له ثلاث رئات ! ٠٠ وكلما ارتفع تحسنت صحته ! »**

وضحك الجميع ، ولكن من الغريب أن ما قاله هذا السويسرى كان حقيقة واقعة ٠٠ فكلما صعدت الى أعلى ، تحسنت صحتى ٠ وانى لأعتقد أن حياة المرتفعات تناسبنى أكثر مما تناسب أى شخص آخر ، لأننى أرتقى الجبال دون أن يطرأ على مقدرتى على التنفس أى تغير ! ٠٠ ويقول الاطباء دائما ان دقات قلبى بطيئة ، ولذلك فان المرتفعات هى مكانى المختار !

واستطعت وأعضاء البعثة أن ننشىء المعسكر « رقم ٥ » ، على ارتفاع ٢٢٫٦٤٠ قدما ٠ وعند هذا الارتفاع ، تقرر أن يقوم بالمحاولة الأخيرة أربعة : اثنان من السويسريين ، و «لامبرت» ، وأنا ٠ واستطعنا أن نصل الى الحافة الجنوبية ، على ارتفاع ٢٥٫٨٥٠ قدما ، وهو ارتفاع لم يسبق أن وصل اليه أحد ! ٠٠ ومع ذلك ، فقد مضينا فى الصعود ٠٠وكان الجوصافيا ٠ وأخذنا نسير ببطء شديد ، وليس معنا سوى قوت يوم واحد ، بينما حمل كل منا خزانا صغيرا مليئا بالاوكسيجين ، حتى اذا بلغنا ارتفاع ٢٧٫٥٠٠ قدم ، رأينا أن أبقى و « لامبرت » ، لنمضى



« صورة امرأة » لوحة من الفن الحديث للرسامة الانجليزية المعاصرة « مارى لورنسن »



« على الشاطىء » للرسام الانجليزى « بلومرز » (١٨٤٥ - ١٩١٤)

فى اليوم التالى فى محاولة الوصول الى القمة ، بينما يعود السويسريان الى المعسكر ..

فشل المحاولة الأولى

◆ **ولم ننم** فى تلك الليلة .. وقضينا الوقت نفرك أيدينا ، ونضرب بها أجسامنا ، حتى لا تتجمد دماؤنا من البرد . حتى اذا تسرب الى الخيمة أول خيوط الفجر ، خرجنا زاحفين . وبدأنا الصعود .. وكنا نسير ثلاث خطوات ثم نقف ، لفرط الاجهاد . ثم أخذنا نقف بعد كل خطوتين .. ثم بعد كل خطوة !..وبرح بنا التعب بعد أربع ساعات ، حتى أننا أخذنا نزحف على أربع ! .. وأخيرا ، توقفنا تماما ، اذ لم نعد نقوى على التقدم . وكانت ثمة ٥٠٠ قدم تفصل بيننا وبين القمة الجنوبية .. بل القمة ذاتها !

اننى أومن بالله ، وأومن بأنه يرشد الناس فى أحرج الازمات الى ما ينبغى أن يفعلوا . وقد أرشدنا فى هذا الموقف الى خير ما نصنع . كان فى وسعنا أن نمضى فى الصعود الى أبعد مما وصلنا ، وربما كان باستطاعتنا أن نبلغ القمة ، ولكنا لو فعلنا لما قدر لنا أن نعود .. كان الاستمرار فى الصعود معناه السير الى .. الموت !

كنا على ارتفاع ٢٨٫٢١٥ قدما ، وربما كان هذا أقصى ما وصل اليه انسان فوق أى جبل حتى ذاك الوقت .. وكنا فى أشد حالات الاعياء ، ومن ثم عدنا صامتين ، لا ينبس أحدنا ببنت شفة !

كان مجهودا رائعا ! .. وقد كسبت فى هذه المحاولة صديقا عظيما ، هو « لامبرت » !

اذا لم يكن من الموت بد .. !

◆ **وذاعت** قصة البعثة السويسرية فى العالم كله . وفى سنة ١٩٥٣ ، تلقيت دعوة للصعود مرة أخرى الى (ايفرست) ،

كسردار لبعثة بريطانية يرأسها الكولونيل « جون هنت » ، وتضم أبرع المتسلقين البريطانيين ، واثنين من (نيوزيلندا) ، أحدهما « ادموند هيلارى » الذى ارتاد (ايفرست) فى بعثة استطلاعية فى سنة ١٩٥١ ٠٠

وترددت كثيرا ، لأن البريطانيين سبق أن وقعوا فى خلافات مع « الشيربا » فى بعثة سنة ١٩٥١ ، ولأن الرواد البريطانيين أكثر تحفظا من سواهم ، وأحرص على التفرقة بين أعضاء البعثة وبين الحمالين ! ٠٠ وأقض التفكير مضجعى ٠ ولكننى حزمت أمرى ذات صباح ، وقررت قبول الدعوة ، فقد وجدتنى عاجزا عن مقاومة اغراء تسلق الجبل مرة أخرى !

وعارضت زوجتى هذا القرار قائلة : « انك شديد الضعف ، وسيعاودك المرض من جديد ٠٠ وربما سقطت من أعلى الجبل ، ودقت عنقك ٠٠ انك تجازف بنفسك ! »

فأجبت : « ولكنى أكسب عيشى من تسلق الجبال ! »

ـ انك لا تحسب لى وللأولاد حسابا ٠٠ ماذا يصيبهم لو أنك مت ؟

ـ بل اننى لأهتم بك يا امرأة ! ٠٠ **ولكن هذا عملى ، ومورد رزقى ٠٠ وكما أننى لا أتدخل فى شئون المنزل ، لأنك مسئولة عنها ، فاننى لا أسمح لأحد بالتدخل فى شئون (ايفرست) ٠٠ واذا لم يكن من الموت بد ، فمن الخير أن أموت على (ايفرست) من أن أموت فى البيت !**

وهكذا ذهبت ، بعد أن اشتركت فى اختيار عشرين حمالا من « الشيربا » ، سبق لمعظمهم ارتياد (ايفرست) مع البعثات الأخرى ٠ وكنت طيلة الوقت أخاطب نفسى قائلا : « لقد بلغت التاسعة والثلاثين من عمرك ٠٠ لذلك يجب أن « تفعلها » فى هذه المرة ٠٠ أو تموت ! »

شهامة « النمر » ٠٠ فى المآزق !

◆ **وقبل** أن تغادر البعثة مدينة (دارجيلنج) ، حصلت على



وعد صريح بالصعود الى القمة ، لاسيما وقد أثبت الفحص الطبى اننىأكثر من أى عضو فىالبعثة صلاحية !٠٠ ورشح لمحاولة بلوغ القمة ثلاثة آخرون ، هم: « توم بورديون » ، والدكتور « تشارلس ايفنز »كشريكين٠٠ و « ادموند هيلارى» ليكون شريكى ٠ وسرعان ما توثقت صلتى بهيلارى ، وربط بيننا تعاونلا مثيلله ٠ومن أمثلةهذا التعاون ماحدث ـ فى المرحلة الاولى ـ حين كنا نجتاز ابراجاعالية من الجليد،وقدربط بيننا حبل واحد ٠٠وفجأة،**زلت قدم« هيلارى » ، فهوى وهويصيح مرددا اسمى ٠ ولم يكن الحبل الذى يربط بيننا طويلا ـ لحسن الحظ ـ فغرست فأسى فى الجليد على الفور ، واستلقيت على الأرض متشبثا بها ، وبهذا أوقفت انحدار زميلى بعد أن سقط فى الفضاء ، على مسافة ١٥ قدما منى ٠ وشرعت بعد ذلك فى رفعه بكل وسيلة حتى وفقت !**

وعندما عدنا الى المعسكر ، قال لزملائه : « لولا تنزنج للقيت حتفى اليوم ! »٠٠وكانت تحية لطيفة منه ، وان كان من واجبات رواد الجبال أن يساعد كل منهم الآخر فى مثل هذه المواقف !

وغادرنا مدينة (دارجيلنج) فى أول مارس ٠ وقبلأنأبرحها، أعطانى صديق علما هنديا ، ثم قال وهو يودعنى : « يجب أن تضع هذا فى المكان الجدير به » ٠٠ وأعطتنى « نيما » ـ ابنتى الصغيرة ـ بقية من قلم أحمر وأزرق للكتابة،فوعدتها بأن أضع هذا القلم أيضا « فى المكان الجدير به » ، لو شاء الله وأكرمنى !

النضال ٠٠ فى الطريق الى القمة !

◆ **لم يولد** بعد الانسان الذى لا يشعر بالمتاعب وهو يتسلق (ايفرست) ، فهو معرض فى كل لحظة لانهيار القوى ، وتجمد الاطراف ، وللنضال فى سبيل الهواء ، وللظمأ المبرح الذى لا يرويه الثلج ، ولا ماء الجليد المذاب ! ٠٠ وهناك الصداع ، وجفاف الحلق ، وانسياب الماء من الانف ، وفقدان الشهية ، والارق ٠٠ لذلك كان البريطانيون جميعا يتناولون الحبوب التى تساعد على النوم ، فى المرتفعات العليا ٠ أما أنا ، فقد ظللت محتفظا بصحتى وحرارتى العادية ، وربما كان الفضل فى ذلك للرئة الثالثة !

وانهمكت و « هيلارى » ـ فى الأسابيع الأولى ـ فى نقل الأحمال الخفيفة من المعسكر الرئيسى ، وفى مساعدة الحمالين الجدد فى الدروب الوعرة ، خلال الجليد ٠ وكانت قد سبقتنا فرق سلكت الطريق الذى سلكه السويسريون من قبل ، وأقاموا معسكرات فوق سلسلة الجبال الجنوبية ٠٠ وكان السويسريون قد خلفوا مقادير هائلة من الأطعمة والمعدات فى المعسكر « رقم ٤ » ، فاستطعت الاهتداء الى هذا المعسكر ٠٠ والواقع أننا أفدنا كثيرا ـ طوال الرحلة ـ بما تركه السويسريون !

وتأهبنا للنضال فى سبيل الوصول الى القمة ، فى الثلث الاخير من شهر مايو ٠ وكانت الخطة تقضى بأن يبدأ الكولونيل « هنت » و « ايفانز » و « بورديون » الحملة ، مصحوبين ببعض « الشيربا » ٠٠ على أن ألحق بهم مع « هيلارى » واثنين آخرين ، وثمانية من « الشيربا » ، بعد يوم واحد ٠٠ وكان على « بورديون » و « ايفانز » أن يشرعا فى محاولة بلوغ القمة من المعسكر « رقم ٨ » فى السلسلة الجنوبية ٠٠ وكان يفصل بينهما وبين غايتهما نحو ٣٣٠٠ قدم ٠ ولو أنهما وفقا ، لكان عملهما نصرا هائلا ! ٠٠ على أن « الكولونيل » آثر أن يطلق على محاولتهما

هذه اسم «هجوم استطلاعى» . وكان من المقرر أن أبدأ وهيلارى محاولتنا بعدهما ـ من المعسكر « رقم ٩ » ـ اذا هما أخفقا ..

لا أنانية .. بين رواد الجبال !

◆ **وفى** ٢٣ مايو ، بدأ « بورديون » و « ايفانز » محاولتهما.. بينما تقدمت أنا و «هيلارى» فى اليوم التالى الى المعسكر « رقم ٧ » ، فقضينا فيه ليلتنا، ثم وصلنا فى اليوم التالى الى المعسكر « رقم ٨ » . وكان الكولونيل « هنت » قد بارحه مع تابع له من « الشيربا » صاعدين .. ولكننا سرعان ما رأيناهما يهبطان فى الناحية الجنوبية الشرقية ، وقد تولاهما اعياء شديد ، حتى لقد أغمى على « الكولونيل » ، فبادرت الى اسعافه .. وعندما تحسنت حاله ، أخبرنا بأنه وتابعه وصلا الى ارتفاع ١٧٣٥٠ قدما ، حيث أقاما المخازن الخاصة بفريقنا ، وتركا لنا خزانى «الأوكسيجين» اللذين كانا يحملانهما أثناء الصعود ..

ومكثنا ننتظر « بورديون » و « ايفانز » .. وطال الانتظار ، ونحن لا نكف عن النظر الى أعلى .. وأخيرا ، رأينا شبحين ينحدران على الجليد ، فقلت لنفسى : « ما أراهما وفقا .. اذ لم ينقض بعد وقت كاف لبلوغهما القمة والعودة منها ! » .. **وصدق حدسى ، اذ كانا قد وصلا الى القمة الجنوبية ، أى الى أعلى نقطة بلغها انسان من قبل ، ولكنهما لم يتجاوزاها** . وعلى الرغم من اعيائهما ، ومرضهما ، فقد أخذا يجيبان على أسئلتنا، ويقدمان لنا كل عون ونصح .. فهذه هى تقاليد الجبال وليس للأنانية وجود بين الرواد !

وكان من المقرر أن نبدأ محاولتنا فى الصباح التالى ، ولكن سرعة الريح اشتدت خلال الليل ، وظلت فى اليوم التالى على قوتها ، فلذنا ـ مع مرافقينا ـ بالخيام ، وأخذنا نسرف فى تناول الشاى والقهوة والحساء وعصير الليمون ، لنحتفظ بحرارتنا . وكنت بين آن وآخر أغادر الخيمة ، لأقف في العراء أنظر الي

أعلى ٠٠ الى قمة الجبل الشامخة فوقنا ! ٠٠ وظل الجو رديئا فى ليل ذلك اليوم ٠٠ ولكننى كنت أقف فى الفضاء أتجسس سرعة الهواء واتجاهه ، وأقول لنفسى : « لا بد أن يتوقف ٠٠ لقد ارتدت ايفرست سبع مرات من قبل ، وانى لأحبها ، ولكن سبع مرات تكفى ٠٠ لا بد من أن نحقق النجاح فى هذه المرة ! »

« وجبات الاوكسيجين » ٠٠ و « أكياس » النوم !

◆ ٢٨ مايو

فى مثل هذا اليوم من العـــام الماضى ، قمت و « لامبرت » بمحاولتنا الاخيرة ، فبلغنا أقصى ارتفاع استطعنا الوصـــول اليه ٠ واليوم ، لايزال يفصل بيننا وبين هذا الارتفاع صعود يوم كامل ٠٠ وما أن شعرنا بأن سرعة الريح قد خفت ـ حوالى الساعة الثامنة صباحا ـ حتى قررنا القيام فورا بالمحاولة ٠ ومضينا خلال الثلوج المتجمدة ، متجهين الى الحافة الجنوبيـــة الشرقية ، يسبقنا زملاؤنا ـ « فرقة المعونة » ـ لتمهيد الطريق واعداد درجات فى الجليد ٠٠ فلم تحن الظهيرة ، حتى كنـا عند آخر نقطة بلغها الكولونيل « هنت » قبل ذلك بيـــومين ، ثم بارحناها بعد أن تزود كل منا بطعام ومعدات زنتها ٦٠ رطلا ٠ وأخذت حافة الجبل تضيق ، وسرعتنا تقل ٠٠ واشتد تكاثف الجليد وسمكه ٠ وعندما حانت الساعة الثانية بعد الظهر ، كان التعب قد برح بنا جميعا ، فتخيرنا مكانا تحجبه ربوة صخرية ، لنقيم فيه معسكرا ٠٠ واذ ذاك ، تمنى لنا زملاؤنا حظا سعيدا ، وشرعوا فى النزول

وبقيت و « هيلارى » وحدنا ، على ارتفـاع ٢٧٫٩٠٠ قدم ، فى أعلى بقعة أقيم فيها معسكر ما ٠ وأخذنا نعمل بجد ـ الى أن هبط الليل ـ فى اقامة الخيمة ٠٠ ثم رحنـــا نعـــالج الحبال المتجمدة ٠ وكان كل شىء نصنعه يستغرق خمسة أمثال الوقت الذى يستغرقه عادة ! ٠٠ وجلسنا أخيرا فى الخيمة نتباحث فى

مشروعات اليوم التالى . واستنشقنا « وجبة » الليل من « الاوكسيجين » ، ثم اندس كل منا فى « كيس » النوم بملابسه الكاملة !.. وظللت أنا مبقيا على حذاءى ، فى حين أن « هيلارى » خلع حذاءيه ، اذ أن كثيرا من مرتادى الجبال يظنون أن خلع الحذاءين ينشط الدورة الدموية فى القدمين !

ومرت ساعات ، كنت أغفو خلالها ثم استيقظ تباعا . وفى كل مرة كنت أنصت فى اهتمام الى صوت الريح ، حتى اذا انتصف الليل ، لم تعد هناك ريح على الاطلاق .. **وحانت لحظة** العمل !

علم الامم المتحدة .. وقلم ابنته !

• ٢٩ مايو

فى منتصف الساعة الرابعة صباحا ، بدأنا نتحرك . ولم تكن ثمة رياح . وعندما فتحنا جانبا من الخيمة ، بدا كل شىء هادئا ، صافيا ، فى نور الصباح الباكر .. وصليت فى صمت ، قائلا : « **يا اله أبى وأمى .. تلطف بنا اليوم !** »

ولكن أول ما صادفنا لم يوح بالتفاؤل .. فقد تجمد حذاءا « هيلارى » ، وصارا أشبه بكتلتين من الحديد الاسود !.. واضطررنا الى أن تضعهما على النار ساعة ، حتى امتلأت الخيمة برائحة الجلد المحترق . واستطعنا أخيرا أن نبدأ رحلتنا . وكانت الساعة السادسة والنصف حين شرعنا نزحف ، فاذا الجو بديع ، والريح ساكنة .. وكان كل منا يغيب يديه فى ثلاثة أزواج من القفازات : أولهما من الحرير ، يعلوه آخر من الصوف ، وفوقهما ثالث من الجلد لمقاومة الريح !.. وثبتنا المسامير المدببة فى أحذيتنا ، وحملنا جهازى « الاوكسيجين » فوق مناكبنا . وربطت فى فأسى أربعة أعلام : علم الامم المتحدة ، وعلم بريطانيا ، وعلم نيبال ، ثم علم الهند .. **وفى جيب سترتى ، كنت أضع القلم الصغير الذى أعطتنيه ابنتى .. وانطلقنا !**

وكان حذاءا « هيلارى » لا يزالان متيبسين ، كما كانت قدماه باردتين ، فسألنى أن أسبقه فى الصعود ، ثم سار خلفى والحبل يصل بيننا • وبلغنا الحافة الجنوبية الشرقية ، ثم سعينا الى القمة الجنوبية •• وعندما تحسنت حال قدمى « هيلارى »، أخذ يتناوب معى القيادة ، وما يصحبها من أعباء تمهيد الطريق للزميل الثانى •• **وما لبثت الحافة أن اتسعت ، ولكننا سرعان ما وجدنا نفسينا أمام جدار من الجليد الناصع ، يكاد يقوم عموديا فى وجهينا • وكان أخطر ما فيه ان الجليد الذى يتألف منه هذا الجدار كان ينهار تحت أقدامنا ، فننزلق معه !•• حتى لقد توقعت أن يهوى بنا الى قاع الجبل !•• ولا تكاد ذكرى هذا الجزء من الطريق تخطر ببالى اليوم ، حتى ينتصب شعر رأسي لشدة الهول !•• ولكن قدر لنا فى النهاية أن نجتاز هذا الجزء ، فلم تحن الساعة التاسعة حتى كنا نقف على القمة الجنوبية**

الاقتراب من الهدف !

• **واسترحنا** عشر دقائق تقريبا ، كنا خلالها نتطلع الى ما فوقنا ، نتأمل الجزء الباقى •• لم يكن يفصلنا عن القمة العليا سوى ٣٠٠ قدم ، ولكن الطريق اليها كانت ضيقة ، وعرة •• على أننا ما لبثنا أن عاودنا السير ببطء ، ولكن فى تقدم مستمر ، حتى انتهينا الى آخر العقبات ، وكانت ربوة صخرية تسد الطريق ، وتقوم عمودية عليه • ورحنا نفكر فى طريقة لاجتيازها •• ثم عثرنا ـ أخيرا ـ على ثغرة فى أحد جوانب الربوة ، فتقدم « هيلارى » وشق طريقه فيها ، وأنا أسنده من الخلف بكل قواى ، اذ كان الجليد معرضا للانهيار فى كل لحظة ! على أن « هيلارى » وفق الى ارتقاء الربوة ، ثم أمسك بالحبل الذى يربط بيننا ، حتى لحقت به • واسترحنا مرة أخرى ، ثم استنشقنا بعض « الأوكسيجين » • وتطلعت الى القمة ، فاذا بها قد غدت جد قريبة • ورقص قلبى طربا !

وعلى بعد مائة قدم من القمة ، مررنا بأعلى صحراء صخرية

جرداء لا يغطيها الجليد ، فالتقطت حجرين دسستهما فى جيبى لأعود بهما الى العالم الأرضى ! ٠٠ وما لبثنا أن وجدنا نفسينا بين كتل جليدية تنحرف الى اليمين ، ولا تكاد تبدو لها نهاية ٠٠ **فلما قدر لنا أخيرا أن نفرغ منها ، ونبتعد عنها ، شاهدنا الفضاء الشاسع ٠٠ وكانت السهول الداكنة تترامى تحتنا ، ونحن نطل على (التبت) !**

من الذى بلغ القمة أولا ؟!

◆ **لكم** فكرت طويلا فيما أنا مقبل على الحديث عنه الآن : كيف وصلت مع « هيلارى » الى قمة (ايفرست) ؟٠٠ **فلقد ثار عقب هبوطنا لجاج سخيف حول أينا بلغ القمة قبل الآخر !٠٠ ولقد حاولنا أن نحسم الامر في (كاتمندو) ، فوقعنا معا بيانا قلنا فيه اننا « وصلنا الى القمة فى وقت واحد تقريبا ! » ٠٠ ولكن الناس ظلوا يتساءلون : « بماذا تفسر « تقريبا » هذه ؟ »** ٠٠ على أن الذين يتسلقون الجبال يدركون تماما أن لا معنى لمثل هذا السؤال ، فان الرجلين المربوطين بحبل واحد ، يعتبران دائما معا !

وقبيل الوصول الى القمة ، توقفنا قليلا ، وتطلعنا الى أعلى ثم عاودنا السير ٠ وكان الحبل الذى يصل بيننا يبلغ حوالى ٣٠ قدما ، ولكننى كنت أمسك بمعظمه فى يدى ، فلم يكن يفصل بيننا فى الواقع سوى ستة أقدام ٠٠ وما خطر لى أن أفكر فى أينا يكون الاول ، وأينا يكون الثانى ٠٠ ولا حدثتنى نفسى قط بأن أزيح « هيلارى » من طريقى ، لأستأثر وحدى بالمجد ٠٠ وانما تقدمنا معا فى بطء ، وثبات ، وتعاون ٠٠ فلم نلبث أن وجدنا نفسينا هناك ٠٠ عند القمة !

وخطا « هيلارى » اليها أولا ٠٠ وأنا فى أثره !٠٠ واذا كان ثمة عار فى أن أكون وراء « هيلارى » بخطوة واحدة ، فأنا وحدى الذى يحمل هذا العار !

وكان أول ما فعلناه عند وصولنا الى قمة (ايفرست) ، أن

تصافحنا !٠٠ ولكن هذا لم يكن كافيا للاحتفال بالتغلب على (ايفرست) ٠٠ أعلى قمم العالم !٠٠ ومن ثم أخذت ألوح بذراعي في الهواء ، ثم طوقت بهما عنق « هيلارى » ، وأخذ كل منا يدق ظهر الآخر ، حتى كدنا نفقد القدرة على التنفس ،رغم استعانتنا بالاوكسيجين !

الحلوى ٠٠ للعزيزة (ايفرست) !

◆ **وتلفتنا** حولنا ٠٠ كانت الساعة الحادية عشرة والنصف صباحا والشمس مشرقة فى صفحة السماء الزرقاء ٠٠ ما رأيت قط السماء فى مثل تلك الزرقة من قبل !٠٠ ولم يكن هناك سوى نسيم خفيف ، يهب من ناحية (التبت) ٠٠و (هيملايا) العظيمة تمتد حولنا ، لا تكاد قممها الكبيرة – مثل (لوتسى) و (نوبتسى) و (ماكالو) – تبدو للعين الا اذا أنعمت النظر الى أسفل ٠ **كان المنظر – من فوق (ايفرست) – رائعا ، لم أشهد له مثيلا طوال حياتى ٠٠ بل ولن أشهد له مثيلا بعد ذلك مطلقا !**

وفى تلك اللحظة العظيمة التى ظللت أترقبها طوال حياتى ، لم يعد الجبل فى نظرى جمادا من صخر وثلج ٠٠ وانما كان صديقا دافئا ينبض بالحياة ! ٠٠ وأغلقنا خزانى «الأوكسيجين» ، وأزلنا الثلج الذى تراكم على كمامتينا ٠٠ وقبل أن أعيد كمامتى الى وجهى ، دسست فى فمى قطعة من الحلوى ، بينما أخرج « هيلارى » آلة التصوير من تحت ثيابه ، والتقط صورتى وأنا أحمل فأسى وقد ربطت اليها الاعلام الاربعة ٠ ولسبب ما ، رفض أن ألتقط صورته بدورى ، وأخذ يلتقط مناظر القمة وما يحيط بها ، بينما انهمكت فى حفر ثغرة فى جليد القمة ، أودعتها القلم الصغير الذى أعطتنيه ابنتى ، ولفافة بها بعض الحلوى ٠٠ فمن عادتنا أن نقدم الحلوى لاعزائنا ، وقد كانت (ايفرست) دائما عزيزة على نفسى !

الشعور بالقرب من الله ·· فوق القمة !

◆ **خمس عشرة** دقيقة تقريبا ، قضيناها فوق القمة ، قبل أن نتهيأ للهبوط · **وقد كان الشعور بالقرب من الله ، هو أقوى ما طغى على قلبى من مشاعر ·· وشكرته ـ سبحانه ـ من أعماق فؤادى ، ثم صليت أدعوه أن يمكننا من الهبوط بسلام ، كما حقق لنا الفوز ·· بسلام !**

وسرنا ـ فى هبوطنا ـ بمنتهى البطء والحذر ، اذ كنا قد بدأنا نشعر بالتعب ·· فضلا عن ادراكنا أن معظم حوادث الجبال تقع فى فترات التعب والاهمال اللذين يصيبان المتسلقين وهم فى طريق عودتهم !

وعند الساعة الثانية وصلنا الى الخيمة التى انطلقنا منها فى الصباح ، فتوقفنا لنأخذ قسطا من الراحة، ثم استأنفنا الهبوط · وما لبثنا أن رأينا الخيام الاخرى التى أقيمت على الحافة ·· وسارع « جورج لو » الى لقائنا ، على رأس الفريق الذى كنا قد خلفناه وراءنا فى رحلة الصعود الى القمة ·· وعانقنا ، وقدم لنا القهوة الساخنة ، ثم عاوننا مع الآخرين على الوصول الى المعسكر « رقم ٨ » ، فبلغناه وقد اشتد تكاثف الظلام ، واشتد البرد · ولما كان التعب قد أنهك قوانا فقد قضينا الليل هناك ·

ولم نلتق بأحد فى المعسكرات (٧ ، ٦ ، ٥) ·· ولكنا التقينا بالعدد الاكبر من رجال البعثة فى المعسكر رقم (٤) · ولم نصارحهم بما تم ، حين خفوا لاستقبالنا ، ولكننا لم نستطع كتمان السر لاكثر من خمسين ياردة ·· وما أحسب أن (هيملايا) شهدت فى تاريخها مثل تلك اللحظة الحافلة بالمشاعر ، اذ اندفع « هنت » يعانق « هيلارى » ويعانقنى · وعانقت ايفنز · وكان كل فرد يعانق الآخر ! وكان « هنت » يكرر السؤال قائلا :

ـ هل هذا حقيقى ؟! هل هذا حقيقى ؟!

وكان كل من يرانا فى هذه اللحظة لا يمكنه أن يميز بين

الشيربا وأفراد البعثة ، فقد كنا جمعا واحدا من متسلقى الجبال نجحوا فى تسلق جبلهم !

وفى اليــوم التــالى ، نزلت الى المعسكر الاساسى فى سفح الجبل . ولما وصلت الى هناك قلت أحدث نفسى :

ـ لقد تحررت !٠٠ لقد حررنى (ايفرست) !

ولحسن الحظ ، لم أعرف وقتئذ أنى كنت مخطئا !

التعصب ٠٠ فى كل مكان !

• **وحدثت** بعد ذلك عدة أشياء أدت الى احتكاك وخلاف بين جهات مختلفة ٠ فقد أذاع الراديو الهندى اننا لم ننجح فى الوصول الى القمة ، الا أن الحقيقة كانت قد أرسلت الى السفارة البريطانية التى بعثت بالنبأ الى لندن وحدها ، ولم تدل به الى أية جهة أخرى ٠ **وكانت السفارة ترمى بذلك الى أن تكون لنــدن أول من يذيع النبأ ، أثناء حفلات تتويج الملكة اليزابث كتحية خاصة لها فى هذه المناسبة٠ وكان اختيار هذه المناسبة بالنسبة للبريطانيين توفيقا عظيما ٠ ولـكن سكان آسيا ، ومن بينهم ملك (نيبال) ـ الذى يدعى « تريبهوبانا » ـ لم يعرفوا شيئا عن الخبر مطلقا ، مع أن جبل ايفرست يقع فى بلادهم !٠٠ أو بالاحرى لم يعرفوا خبر غزو قمة ايفرست الا بعد ٢٤ ساعة ، مع أن عكس ذلك هو الذى كان يجب أن يحدث !**

ومن أين تلقوا النبأ ؟٠٠ من الطرف الآخر من العالم !!

ولم أعرف وقتئذ شيئا عن هذا كله ٠ ولقد كان فى وسعى أن أبعث النبأ بواسطة عداء من الشيربا ، ولكنى لم أنس أنى كنت أعمل لحساب البريطانيين ، أو كما نقول نحن الشيربا : كنت آكل ملحهم !٠٠ ولهذا لم أبعث بالخبر لأى انسان

ومع ذلك ، كانت الجماهير الغفيرة فى نيبـــال تستقبلنى ـ حينما أمر بها ـ وهى تصيح :

ـ تنزنج ٠٠ زنده باد !

ومعناها : فليحى تنزنج !

وعندما اقتربنا من (كاتمندو) ألح على المتطرفون الوطنيون فى نيبال أن أقرر اننى نيبالى لا هندى ، واننى وصلت الى القمة قبل هيلارى ، فسألتهم :

ـ وأية أهمية لهذا الامر ؟ وما هى علاقة الجنس أو السياسة بتسلق الجبل ؟!

ولكن الجماهير لا ترحم ، فقد فصلتنى عن زملائى ، وأخذت تدفعنى أمامها كما لو كنت ألعوبة فى أيديها .. بل لقد « وضع البعض فى فمى اجابات مختلفة ! » ، كما دفعوا الى بأوراق أجبرونى على توقيعها دون أن أقرأها .. فاننى ، وان كنت أتكلم لغات كثيرة ، الا انى لم أتزود بالعلم !

العالم يكرم الغزاة !

◆ **وعندما** وصلنا الى (كاتمندو) ، وكان بعضنا لايزال مرتديا ملابسه القذرة التى تسلق بها الجبل ، اتجهنا الى القصر الملكى حيث استقبلنا الملك « تريبهوبانا »

ومنحنى الملك وسام « نيبالى تارا » أو نجمة نيبال ، ويعتبر أسمى وسام فى نيبال . ومنح وسامين أقل شأنا لهيلارى وهنت

وبالغ النيباليون فى اظهارى بمظهر البطولة ، وأغفلوا البريطانيين اغفالا تاما بدلا من أن يعاملوهم معاملة الضيوف المكرمين . كما أنهم حاولوا أن يصوروا للناس أننى ارتقيت الجبل كله بمفردى . وقد كان كل ذلك ، الى جانب التصريحات التى وقعتها دون أن أعرف ما تتضمنه ، مدعاة للاسف الشديد

وكان من شأن هذا كله أثارة الكولونل هنت ، فأدلى ببعض تصريحات . واضطررت بدورى أن أرد عليها بعد الحاح الصحفيين النيباليين والهنود . ولكن كان حسن النية متوفرا فى تصريحات هنت وفى ردى عليها ، اذ لم يكن أحدنا يريد أن تنقلب مغامرتنا الكبرى العظيمة الى شىء صغير وضيع !

ووضع الملك « تريبهوبانا » طائرته الخاصة رهن تصرفى أنا



وأسرتى ، فسافرنا بهـا الى (كلكتا) . ولما وصلنا اليها، وجدنا استقبالا حافلا وحفلات كثيرة تنتظرنا . وحدث مثل هذا أيضا فى (دلهى) ، حيث أقام البانديت نهرو حفلة استقبال لتكريمى . وقد عاملنى نهرو معاملة الاب لابنه ، ونصحنى بضرورة السفر الى لندن ، وقال انه يعتقد أن كل شىء سيبذل هناك لاصلاح ماحدث . ثم صحبنى الى منزله حيث فتح لى خزانة ملابسه ، وقدم لى مجموعة منها ، اذ اننى لم أكن أملك الا الملابس التى أرتديها . ولما أخذت بعض هذه الملابس ، فضـلا عن احدى الحقائب ، قلت فى نفسى : « اننى لم أعد أحد الشيربا الفقراء ، ولكنى أصبحت رجلا من رجال الاعمال أو السياسة ! »

انشاء مدرسة لتعليم تسلق الجبال !

◆ **وقضيت** مع زوجتى ١٦ يوما مدهشا فى لندن ، ترددنا فيها على المسارح ودور السينما والمحـال التجـارية وأماكن النزهة . **وكان أهم حادث هو زيارتنا لقصر بكنجهـام ، حيث قدمنا للملكة اليزابث فى حجرة استقبال كبيرة ، وكان جميع أعضاء البعثة وزوجاتهم حاضرين . وقد قدمت لنا الملـكة النياشين التى أنعمت بها علينا**

وأمضينا فى سويسرا أسبوعين ، ضيوفا على المؤسسة السويسرية لابحاث الالب . ولم تكن فرصة لزيارة البلاد فقط ولكنها كانت أيضا فرصة لارتقاء جبال الالب !

ولما انتهت الرحلة ورجعت الى بلادى ، كنت شديد الرغبـة فى أن أعود « تنزنج » القديم الذى كنته .. ولكن ، هناك أيضا

بدأت سلسلة لا نهاية لها من الحفلات والاحاديث . ولقد كنت دائما أحب التجول فى طرقات (دارجيلنج) ، ولكننى سرعان ما اكتشفت أنه لابد لى من الاستيقاظ والسير قبل الفجر ، والا تبعنى جمهور غفير من الناس !.. بل لقد أخذ الزائرون يترددون على منزلى ليل نهار . وكان بعضهم أحيانا يقتحم المنزل من بابه أو من نوافذه . وأقبل الناس من كل حدب وصوب يطلبون أن أوقع لهم بامضائى !

وربما كانت أهم نتيجة لرحلتى تتمثل فى القرار الذى اتخذه الحاكم بافتتاح مدرسة خاصة لتسلق الجبال فى (دارجيلنج)، أطلق عليها اسم « معهد الهيملايا للتسلق » . وأنا المسئول اليوم عن هذه المدرسة ، اذ أتولى فيها مهمة التعليم والتدريب ، وهى تهدف الى نشر حب الجبال والاقبال على تسلقها بين الهنود!

وقد حصلت على مبالغ طائلة من الصحف التى نشرت تفصيلات مغامرتى ، كما أن كثيرا من مدن الهند ومعاهدها أغدقت على المنح التى تقينى شر الفقر . وقد أثار ذلك حقد بعض الناس ، حتى لقد انتقدوا زوجتى يوم رأوها تحمل مظلة فى يوم مطير ، وقالوا أنها قد أصبحت متعجرفة !

وقد اشتريت منزلا فى أطراف مدينة (دارجيلنج) ، وهو يطل على منظر بديع من مناظر الجبال التى تغطى الثلوج قممها . وكانت زوجتى قد عملت كخادم فى منازل كثير من الاسر البريطانية ، ولذلك كانت شديدة الميل الى اقتناء الاثاث الغربى الطراز ، وجميع الادوات الصغيرة التى تستخدم فى المطابخ الحديثة . وكنت أقول لها :

ـ لقد كان ماعملناه حتى الآن مناسبا ، فلا تتطرفى ، ولنستمر على حياتنا البسيطة المتواضعة !

ولكن يبدو أن تنفيذ ذلك لم يكن سهلا مثل قوله بالالفاظ !

وقررت أن أزيد معرفتى باللغة الانجليزية ، فاستعنت

بطريقة التعلم بالاسطوانات التى تبين النطق الصحيح ، وتقدمت معرفتى بهذه اللغة كثيرا !

★ ★ ★

◆ **لقد** كان الطريق طويلا من حافة الجبل الى قمته !

ومن حمال فقير ، رث الثياب ، الى رجل وجيه يرتدى سترة أنيقة تزينها صفوف من الاوسمة والنياشين ، ويستخدم الطائرة فى تنقلاته ، وعليه أن يعمل حساب ضريبة الدخل !

ولكننى تعلمت كثيرا .. ليس فقط فى عالم المدن والطائرات والجغرافيا ، ولكنى تعلمت أن اختلاف آراء الناس عن آرائك ليس معناه حتما انك على حق ، وانهم على خطأ ، وان المصاعب التى اعترضت تسلق ايفرست ليست شيئا اذا قورنت بالمشكلات التى يصادفها الانسان فى حياته العادية !


MEMOIRES
DE
CASANOVA
مغامرات في الحب والسياسة !
مذكرات
كازانوفا
الكتاب الكلاسيكي الخالد
في أدب العشق
والمغامرة

حامى حمى الدين .. يبحث عن عشيقة !

◆ نقلت اليك فى الحلقة الماضية ، حديث أمير العشاق عن فتاة صغيرة التقى بها فى بيت أختها ، التى كانت من غانيات (باريس) . ومع أن الفتاة لم تكن قد تجاوزت الثالثة عشرة ، الا أن «كازانوفا» فتن بجمالها ، فأخذ ينفق عليها ، وكلف رساما بأن يسجل بريشته أحد الاوضاع التى كانت تبرز مفاتن هذه العشيقة الصغيرة . وقدر للملك الفرنسى «لويس الخامس عشر» - وكان يلقب نفسه ب « حامى حمى الدين » ! - أن يرى هذه اللوحة ، فكلف « سان كنتان » ، أحد رجال حاشيته ، بالبحث عن الفاتنة الصغيرة .. فاتصل هذا بالرسام ، الذى استعان بكازانوفا .

والآن ، تعال نواصل قراءة هـذه القصة ، التى تذكرنا بفاروق وغرامياته !

١٠٠٠ فرنك ثمنا للحسناء الصغيرة !

◆ لم يمض يومان أو ثلاثة ، حتى اصطحبت الغانية أختها الفاتنة الصغيرة الى (فرساى) . وكان « سان كنتان » قد رسم خطته ، فكلف خادما بأن يصحبهما الى خميلة فى بساتين القصر المترامية . وما لبث الملك أن أقبل بعد نصف ساعة ، فأخرج الرسم من جيبه ، وراح يقارن بينه وبين « الاصل » ، ثم هتف : « مارأيت من قبل رسما بهذه الدقة ! » .. ثم أجلس الفتاة على حجره ، وأخذ يداعبها ، ويضمها ، حتى اذا اطمأن الى سذاجتها ، والى أن الثمرة لم تقتطف بعد ، « خلع عليها ! » قبلة ، فابتسمت الصغيرة وهى تتأمل الملك بنظرة فاحصة !

وسألها الملك عما يدعوها للابتسام ، فقالت : « انما أحاول أن أتصور شكلك والتاج يعلو هامتك ! » .. وضحك الملك لسذاجة الفتاة .. تلك السذاجة التى كان يمكن أن تعتبر قحة من سواها ، ثم سألها عما اذا كانت تحب أن تبقى فى (فرساى) ، فقالت ان هذا يتوقف على أختها . وبادرت هذه قائلة ان الاقامة فى (فرساى) شرف عظيم ، لا تكاد تحلم به لاختها . وهنا تركهما الملك وانصرف . وان هو الا ربع ساعة ، حتى أقبل «سان كنتان» ، فصحب الصغيرة الى مقصورة فى جناح بالقصر ، وأسلمها الى رعاية احدى نساء الحاشية ، ثم صرف أختها بعد أن سألها عن عنوانها . وفى اليوم التالى ، تلقت الغانية ألف فرنك .. ثمن أختها الصغيرة !

ثلاث سنوات فى أحضان الملك !

◆ وأعجب الملك بالفاتنة اليافعة ، التى أطلق عليها اسم « أومورفى » . وكان



أشد ما استهواه فيها بساطتها ، وسذاجتها ، ورشاقة حركاتها ، ولطف تصرفاتها ٠٠ فضلا عن ذلك الجمال الرائع الذى لا أذكر اننى رأيت له مثيلا ٠ وقد أمر الملك بتخصيص جناح لاقامتها فى « حديقة الوعول » ٠٠ وهى جزء من (فرساى) وقفه الملك العابث على عشيقاته ، ولم يكن يسمح بدخوله لغير نساء الحاشية ! ٠٠ ولم ينقض عام حتى وضعت الفتاة ولدا ، لم يدر أحد مصيره ، كما لم يدر أحد مصير أولاد العشيقات الأخريات ٠٠ على ان ولع الملك بالفاتنة الصغيرة لم يدم لأكثر من ثلاث سنوات ، ثم نبذها بعد أن منحها أربعمائة ألف فرنك ، كانت « دوطة » مغرية ، فسرعان ما تزوجت الفتاة من ضابط من مقاطعة (بريتانى) فى سنة ١٧٨٣ !

ملك يحب الضحك ٠٠ ولا يميل للنســاء !

◆ وما لبثت أن صحبت أخى الى (درسدن) حيث كان يبغى أن يتلقى مزيدا من الدراسات فى فن الرسم ٠ وهناك ، رحبت بنا أمنا ـ اذ كانت تقيم فى (درسدن) ـ وأكرمتنا أيما اكرام ، وقد أسعدها أن تجتمع بنا ٠ على أننى ما لبثت أن تركت أخى معها ، وبارحت المدينة دون أن تعترض حياتى فيها أحداث تذكر ، اللهم الا أننى وضعت مسرحية من النوع « الميلودراما » لقيت من اعجاب ملك ذلك البلد ما حمله على أن يمنحنى هدية ثمينة ٠ وكان ذلك الملك يعتمد فى أبهته وكرمه على جيب الكونت « دى برول » وزيره ! ٠٠ وكان الملك مغرما بوزيره ، اذ كان « دى برول » أكثر بذخا واسرافا من مولاه ! ٠٠ ولم أعرف فى حياتى عاهلا يمقت الاقتصاد قدر ذلك الملك ، حتى لقد كان ينفق أموالا طائلة ، فى سبيل ٠٠ الضحك ! ٠٠ وكان يحتفظ بأربعة مهرجين ، كل مهمتهم فى الحياة أن يبتكروا من الحركات والفكاهات ما يضحك مولاهم !

ومع ذلك ، فان بلاط (درسدن) كان فى ذلك الحين أكثر بلاطات أوربا اشراقا ولمعانا ، وقد ازدهرت الفنون بين رحابه ٠٠ ولم يكن ينقصه سوى الغــزل والغراميات ، اذ لم يكن للملك أى ميل للجنس اللطيف ، ولم يكن للحاشية أو للرعية أن يتجهوا الى شىء كهذا ، ما لم يضرب لهم مولاهم المثل والقدوة !

بوليس الآداب فى فيينا !

◆ كنت فى الثامنة والعشرين من عمرى حين وصلت الى عاصمة (النمسا) للمرة الأولى ، وأنا أبهى ما أكون أناقة . ولكننى كنت خالى الوفاض تقريبا ، ولم يكن لى ثمة معارف ، ولا حملت توصيات لأحد ، اللهم الا خطاب تقدمة للاب « ما تيستاسيو » ، الأسقف الجليل ، الذى سرعان ما تبينت انه أكثر ثقافة وعلما مما كان يبدو فى مؤلفاته . وكان دقيقا فى تحرى واختيار كل كلمة فى القصائد التى كان ينظمها !

وكان الرخاء والترف موفورين فى تلك المدينة العظيمة : (فيينا) . ولكن صرامة الامبراطورة وحزمها ، جعلا التعبد فى محراب « فينوس » - (أى ممارسة العشق والغرام) - من أصعب الامور ، اذ ألفت الامبراطورة فرقة من « ضباط العفة » ، على نسق بوليس الآداب ، كان أفرادها يجوسون خلال الشوارع فى كل ساعة من ساعات النهار والليل ، يتصيدون كل فتاة مسكينة تكون الظروف قد قضت عليها بأن تعيش وحيدة ، وأن تخرج لتعمل وتكسب عيشها ! .. وكان أفراد الفرقة لا يرتدون زيا رسميا ، ومن ثم كان من العسير أن يفطن أحد اليهم وهم يختلطون بالناس فى الطرقات . فاذا رأى الواحد منهم فتاة تسير وحيدة ، تبعها ، حتى اذا دخلت بيتا ، تحرى عما اذا كانت من سكانه ، فان لم تكن ، ترقبها الى أن يراها خارجة فيعترض طريقها ، ويستجوبها ! .. وعند أية بادرة من تلعثم أو ارتباك ، يجرها الى السجن ، ولا يكف طوال الطريق عن استفزازها واهانتها ، ولا يتورع عن تجريدها مما قد يجده معها من مال أو حلى !

« كازانوفا » يتنبأ بمصير امبراطور النمسا !

◆ وكان من الطبيعى أن ينفر هذا البوليس أى أجنبى يزور (فيينا) من اطالة المقام فيها ، اذ يحول بنشاطه دون أن يحظى هذا الاجنبى بأية متعة فى عاصمة النمسا !

على أن القدر ساق لى عددا من الاشخاص الذين سبق أن التقيت بهم فى البندقية ، فقدمونى الى عدد من المجتمعات الراقية ، حيث انفسح أمامى المجال للمقامرة ، وحيث تعرفت باحدى البارونات ، وعدد من السيدات اللائى كانت مراكزهن تجعلهن بمأمن من سطوة « ضباط العفة » ! .. وقدر لى فى (فيينا) أن ألتقى للمرة الأولى بجوزيف الثانى ، الابن الاكبر للامبراطور .. وكان اذ ذاك أميرا ، مستهترا ، يذهب فى غروره الى حد الوقاحة . وقد قدر لى أن ألتقى به بعد سنين عديدة فى (لوكسمبورج) ، وكان يسخر من الناس الذين يبتاعون الالقاب من حكومة الامبراطور . وكان مما قاله : « اننى أحتقر أولئك الذين يشترون رتب الشرف » ، فقلت : « ان جلالتكم على حق ، ولكن ، ما الرأى فيمن يبيعون هذه الرتب ؟! »

ولقد أراد الاسقف « ماتيستاسيو » مرة أن يختبر مدى تبحرى فى الفراسة ، فسألنى عما أقرأ فى وجه الامبراطور ، فقلت له : « استهتار ٠٠ وانتحار ! » ٠٠ وما أظننى بعدت كثيرا عن الحقيقة ، لأن الامبراطور قتل نفسه ٠٠ اذ مات فى حادث جاء نتيجة استهتاره !

(ولم يلذ العيش فى (فيينا) لكازانوفا ، الذى كانت لا تطيب له الحياة بدون مغامرات ٠ ومن ثم لم يلبث أن رحل الى (تريستا) ، ومنها استقل سفينة ذاهبة الى (البندقية) ٠ وهكذا عاد الى وطنه بعد أن غاب عنه ثلاث سنوات ٠ وفى أحد المهرجانات ، قدر له أن ينقذ سيدة جميلة وسيدا فى زى الضباط الالمان انقلبت بهما عربتهما ٠ وسرعان ما مال « كازانوفا » الى السيدة ، وكانت تدعى مدام « ك ٠ » ، بينما حاول الضابط ـ الذى تبين أنه ايطالى الاصل ، ويدعى « ب ٠ ك ٠ » ـ أن يغشه بأذون مصرفية زائفة ٠ واذ فطن « كازانوفا » الى الخدعة ، اعتذر له الضابط ، وقال انه يرجو أن يراه فى ميدان (سان مارك) فى المساء ، حيث يصحب مدام « ك ٠ » ، كما أعطاه عنوان مسكنه ، ودعاه الى زيارته فيه)

صريع الهوى ٠٠ دائما !

◆ على أننى لفرط اشمئزازى من تصرفات هذا الضابط ، لم أعد أشعر بميل لتجربة حظى مع مدام « ك٠ » ، فتفاديت لقاءهما فى ذلك المساء ٠ على أن شيطانى أوعز الى فى الصباح التالى بأن أعتذر لهما لتخلفى عن موعدى معهما ٠ وتلقانى الضابط بترحاب ودى ، ولامنى لعدم مقابلتى اياهما فى الليلة السالفة ٠ وحاول مرة أخرى أن يوقعنى فى احدى أحابيله ، وأن يستدرجنى الى توقيع بعض سندات مالية ، ولكننى تهربت منه ، وهممت بالانصراف ، غير أنه استبقانى ليقدمنى الى أمه وأخته

وكانت الأم سيدة محترمة ، بسيطة فى مظهرها ٠ ولكن ابنتها كانت رائعة الجمال الى درجة بهرت عينى ٠ ولم تنقض بضع دقائق ، حتى استأذنت الأم الطيبة ، الساذجة ، فى أن تأوى الى مخدعها ، وبقيت ابنتها ٠ وان هو الا نصف ساعة ، حتى كنت صريع هواها !

٠٠ مع أكمل فتاة فى الوجود !

◆ كان كل ما فيها يهفو بالمشاعر والأحاسيس : ذكاء ، وجمال ، ومرح ، وبراءة ساذجة ـ ولم يكن ثمة ما يأسر عواطفى قدر البراءة والسذاجة ! ـ كان

كل ما فى الآنسة « ك٠ ك٠ » يجعلنى عبدا لها ، ويوحى الى بأنها أكمل امرأة فى الوجود ، ويبعث فى رأسى أكثر الاحلام جموحا !

كانت لا تغادر البيت الا فى صحبة أمها ، كما كانت تقية ، عفة الخلق ، لاتقرأ من الكتب الا ما كان فى مكتبة أبيها التى لم تضم رواية قط ! ٠٠ على أننى عرفت خلال الحديث الذى دار بيننا ـ بينما كان أخوها منهمكا فى الكتابة ـ أنها تتوق الى مشاهدة معالم (البندقية) ، وتصبو الى قراءة بعض القصص الأدبية ، وتتمنى لو أتاح لها القدر أسرة طيبة تستطيع أن تتردد عليها ٠ وراحت تمطرنى بالأسئلة ، وأنا أرد بالاجابات التى تثير الشوق فى نفسها ، وتوجه أفكارها وعواطفها الوجهة التى أردتها ، وان لم أشر قط فى حديثى الى ما أوتيت من جمال فتاك ، ولا الى أثر ذلك الجمال فى نفسى

عهد ٠٠ واغراء !

◆ وانصرفت أخيرا وأنا آسف لمبارحة الدار ، وقد تغلغل فى نفسى أثر تلك الخصال النادرة ٠ وعاهدت نفسى على أن لا أراها ثانية ، اذ كنت أدرك أننى لست بالرجل الذى يقوى على أن يقيد حريته بالزواج ، وان رأيت فيها كل الصفات التى تكفل السعادة لزوجها !

وانقضى يومان أضربت بالفعل عن زيارة بيت « ب٠ ك٠ » خلالهما ٠ ولكننى فى اليوم الثالث صادفته فى الطريق ، فذكر لى أن أخته لا تكف عن الحديث عنى ، وعن ترديد بعض ما رويته لها ٠٠ وان أمه ارتاحت الى ، وسرت بتعرف الأسرة بى ٠ وتطرق بنا الكلام الى الحديث عن الزواج ، فقال اننى وأخته أصلح زوجين متلائمين ، وانها أوتيت « دوطة » قدرها عشرة آلاف دينار ذهبى !

ودعانى الى تناول القهوة فى داره فى اليوم التالى ، فنسيت العهد الذى قطعته على نفسى ٠٠ أو بالاحرى ، تناسيته !

وذهبت ٠٠ وقضيت ثلاث ساعات فى الحديث مع الفتاة الفاتنة ، حتى اذا بارحت الدار فى النهاية ، كنت قد تدلهت فى هواها ٠٠ وقلت لها وأنا أفارقها ، اننى أحسد الرجل الذى سيقدر له أن يكون زوجا لها !

كازانوفا ٠٠ العاشق الحائر !

◆ ما أن فارقتها فى هذه المرة ، حتى أخذت أدرس عواطفى نحوها ٠ وشد ما جزعت اذ تبينت أننى عاجز عن أن أعاملها فى تحرر وعبث ، وعن أن أظل معها شريفا عفا ، كذلك ! ٠٠ أجل ، لم أجد من نفسى جرأة على أن أقدم على طلب يدها ، ولا أنا استطعت أن أفكر فى النيل منها ٠٠ ولو أن أحدا اقترح على اذ ذاك أن أغرر بها لقتلته !

على أننى ـ عند هذه المرحلة ـ كنت قد بدأت أفطن الى عدة أمور ٠ أولها ،

ان العـذراء الفاتنة صرفتنى عن مطاردة عشيقة شقيقها ٠٠ وثانيها ـ وأهمها ـ أن الشاب كان يسعى لاستدراجى بشكل مريب الى الزواج بشقيقته ٠ وخرجت من تفكيرى بأن الوغد كان يعانى ضائقة مالية ـ بدليل محاولاته العديدة للاحتيال على ـ وانه لم يكن يتورع عن أن يبيعنى أخته فى سبيل المال ! ٠٠ وأسفت على أن تكون مثل هذه العذراء الجميلة ، وأمها الوقور الطيبة ، على قرابة بوغد كهذا ٠ بيد أن انتباهى الى هذه الحقيقة ، جعل شيطانى ينشط للعمل ٠٠ وكانت الحيلة التى وسوس الى الشيطان بها ، بالغة المكر والخبث ! ٠٠ فقد أوحى الى بأن الشاب لن يرعوى عن بيع أخته لأى مشتر ، ومن ثم فقد يوقع بها تحت رحمة عابث لا يرعى ذمة ولا ضميرا ، فى حين أننى لن أجسر على أن ألحق بها أى ضرر ، لأن حبى لها يمنعنى من ايذائها !

أخيرا ٠٠ خلا الجو !

◆ وهكذا وجدتنى أتمشى مع الشاب فى تدبيراته ، فأغرينا الأم الطيبة بأن تأتمننا على ابنتها ، لنصحبها الى « الأوبرا » ٠٠ وبالفعل ذهبت الفتاة معنا ٠ وصحبتنا كذلك عشيقة أخيها ٠ وكان من الطبيعى أن يشغل الشاب بعشيقته ، وأن أجد فرصة لأجاذب الفتاة الحديث ، بمنأى عن أية مضايقة !

وفى اليوم التالى ، أقبل « ب٠ ك٠ » مغتبطا ، وقال لى ان الفتاة ذكرت لأمها عقب عودتها من « الاوبرا » أنها تؤثر أن تتزوجنى دون كل رجال الدنيا ! ٠٠ وأكد لى أنها فطنت الى حبى لها ، ومن ثم راح يغرينى على الزواج منها ، ويمنينى بما كانت تملك من « دوطة » !

وقلت له : « الواقع أننى لا أحبها فحسب ، بل أعبدها ، ولكن ٠٠ هل تظن أن أباك يرضى بى زوجا لها ؟ »

وكنت قد عرفت أن الاب على شقاق مع أسرته ، وكان لهذا يعيش بعيدا عنها ٠٠ فقال « ب٠ ك٠ » فى صراحة مترددة : « لا ٠٠ ما أظنه يرضى ، ولكنه شيخ طاعن فى السن ٠٠ والى أن يواتيه الموت ، تستطيع أن تستمتع بصحبة الفتاة ! ٠٠ وبهذه المناسبة ، أبشرك بأن أمى سمحت بأن نصحب أختى مرة أخرى الى « الاوبرا » ٠ والآن ، لننتقل الى حديث عملى ٠٠ لقد ابتعت صفقة من النبيذ القبرصى الرائع ، وسأحقق ربحا كبيرا من وراء بيعها ٠٠ بيد أن التاجر الذى اشتريت منه ، أبى أن يقبل توقيعى على سند ، دون ما ضامن ٠٠ فهل تضمننى؟»

ووقعت السند فى هذه المرة دون ما تردد ، اذ أين الرجل الذى يضيع عـلى نفسه فرصة كهذه ؟ ٠٠ كنت قد تيمت بحب الفتاة ، وكان الشاب يفسـح لى الطريق ، وقد غرق فى علاقته بعشيقته فشغل بها عن كل شىء !

وهكذا ، ما لبثت أن وجدت الفـرص تسنح ، كى أخلو الى حبيبتى ، وأن أصحبها فى نزهات بعيدة عن أنظار أخيها !

« يتبع »



لولا « جوبيتر » .. لاحترقت الارض !

◆ عرفت الشىء الكثير عن اله الشعر والموسيقى - « أبوللو » - خلال أساطير القدماء التى أيقظها « كتابى » من مرقدها ، ليقدمها لك فى صورة جديدة ، ممتعة . واليوم ، تقرأ أسطورة جديدة عن «أبوللو» اله الشمس ، الذى كاد يحرق الأرض ، ليحقق نزوة لأحد ابنائه ، لولا أن سارع « جوبيتر » - « رب الأرباب ! » - الى انقاذها !

« فايتون » .. ذو الشعر الذهبى !

◆ فى بقعة مشمسة من بلاد الاغريق ، كانت تقطن ذات يوم حورية جميلة تدعى « كلومينى » . وكان لها ابن ذو شعر ذهبى ، اسمه « فايتون » .. فكانت كلومينى ، اذا ما داعبت أشعة الشمس الصفراء شعر ولدها ، تضحك وهى تقول : « أى فايتون .. تأمل كيف يلاطفك أبوك ! » .. فيسألها الصبى : « وهل أبى هو رب الشمس العظيم ؟ وهل هو الذى يقود عربة الشمس المذهبة ، عبر السماء ، فى كل يوم ؟! »

وكانت أمه ترد عليه قائلة : « نعم .. انه هو . ولك يا فايتون أن تفخر بمثل هذا الأب العظيم ! »

وتاه الصبى زهوا وفخرا عندما أكدت له أمه أن أباه اله عظيم ، وهرول الى رفاقه ينقل اليهم الحقيقة الكبرى ، فصدقوه لأول وهلة . ولكن ، حين تملك الغرور الصبى ، وأخذ يتطاول على رفاقه ، سئم هؤلاء تلك النغمة المرذولة ، وصاحوا فيه ذات يوم : « اننا لم نعد نصدقك يا فايتون ، فأرنا دليلا واحدا تثبت به ان اله الشمس هو حقا أبوك ، حتى نلتمس لك عذرا فى خيلائك وتغطرسك ، وميلك الى المفاخرة والمغالاة ! »

وغضب الصبى أشد الغضب حين سمع هذا الكلام ، وجرى الى أمه والحنق يكاد يخنقه : « أماه .. ان رفاقى يزعمون ان أبوللو العظيم ليس أبى .. فعليك أن

تسمحي لى بالذهاب اليه ، لأطالبه ببرهان يقنع هؤلاء المأفونين بأنى ابنه حقيقة ! »

فقالت له « كلومينى » فى حنان : « ستذهب يا بنى بعد أن أدلك على الطريق ٠ ولسوف تشرع فى رحلتك غدا »

فى حضرة « اله » الشمس !

◆ وفى اليوم التالى ، بدأ الصبى رحلته الطويلة متجها الى الشرق ، حيث اعتادت عربة الشمس العظيمة أن تظهر فى كل صباح ٠ وأخذ يضرب فى الفضاء ، يوما اثر يوم ، وقد سيطر عليه شوق جارف للقاء أبيه والارتماء فى أحضانه

وما أن وصل الى قصر اله الشمس العظيم ، حتى وقف مشدوها ، وهو يلهث من فرط الروعة التى تتجلى فى القصر ، بعمده التى تتلألأ ببريق الذهب والأحجار النفيسة ، وبسقوفه المطعمة بالعاج ، وأبوابه المصنوعة من الفضة اللامعة !

وارتقى الصبى الدرجات الذهبية المؤدية الى مقصورة العرش ، ثم وقف لدى عتبة الباب ، وقد خطف بصره ذلك البريق اللامع الذى ينبعث من الداخل

كان أبوللو جالسا على عرشه الناصع ، يعلو رأسه تاج من أشعة الشمس البراقة ٠٠ فلما رأى الصبى ، رفع التاج من فوق رأسه وألقى به جانبا ، ثم أمر الصبى بالاقتراب منه

وقال « فايتون » فى شىء من الخيلاء : « ها هو ذا ابنك العزيز قد أتى ليزجيك التحية ٠٠ ان رفاقى يتحدوننى ويجاهرون بأنى لست ابنك ٠٠ ولهذا سعيت اليك ، لأطلب منك أن تثبت لهم بالدليل القاطع انك أبى ، حتى لا تعلو وجهى حمرة الخجل كلما قابلتهم ! »

وبسط أبوللو ذراعيه لولده ، فتقدم منه الصبى متهلل الأسارير ، وألقى بنفسه فى أحضان أبيه الذى قال : « أنت ابنى ٠٠ وأنا أبوك ٠٠ وان الدماء التى تجرى فى عروقى هى نفس الدماء التى تجرى فى عروقك ٠٠ ولسوف تعرف الدنيا بأسرها هذه الحقيقة ٠ فقد حان لى أن أعلنها على الناس أجمعين ٠٠ وما عليك يا بنى الا أن تطلب ما تريد ، فتجدنى رهن مشيئتك ! »

وعندئذ صاح « فايتون » ، وقد استولت عليه فرحة طاغية : « اننى لا أطلب سوى أن تسمح لى بقيادة عربة الشمس غدا ، حتى اذا ما شاهدنى رفاقى فى الأرض ، وأنا ممسك بالأعنة ، تولاهم العجب وقالوا : « ها هو ذا فايتون فى عربة أبيه ! قد تأكدنا الآن فقط أنه ما كذب ، بل كان صادقا ! »

وما أن لفظ « فايتون » بهذه الرغبة ، حتى تكهرب الجو ، وتجهم وجه الرب ، وراح يهز رأسه قائلا : « لك يا بنى أن تطلب منى ما تشاء ، الا هذا الذى سألته ٠٠ فجياد عربتى عسيرة قيادتها بأيد غير يدى ٠٠ حتى « جوبيتر » العاتى ،

رب الأرباب أجمعين ، لا يجسر على قيادتها !٠٠ انك تجهل خطورة مطلبك هذا ، ومن ثم اطلب شيئا آخر ، فأقوم بتلبيته على الفور ! »

وقطب « فايتون » جبينه ، ثم قال فى اصرار : « ليس لى مطلب آخر غير هذا الذى طلبته ٠٠ ولا يمكن للرب أبى أن يحنث بوعده ٠٠ لذلك أطالبك فى الحاح بأن تفى بوعدك ، فتدعنى أقود عربة الشمس ! »

وحاول « أبوللو » أن يثنى ابنه ، مبصرا اياه بالخطر الذى يتهدده ، الا ان فايتون كان يزداد اصرارا ، ومن ثم وافق أبوه على مطلبه قائلا : « انك ستقتل نفسك ٠٠ انك أحمق لعدم اصغائك الى نصحى وتحذيرى ! ٠٠ ولكن على رسلك اذن ما دمت مصرا على مطلبك ٠ هاهو ذا الفجر قريب منا ، وأبواب السماء مفتوحة ٠٠ لقد حان وقت رحيل عربة الشمس ! »

وقاد «أبوللو» ابنه الى مكان العربة البراقة ، وكانت جيادها الأربعة مسرجة، وقد بدا عليها الشوق الى الرحيل

مخاوف « الرب » ٠٠ تتحقق !

◆ وقفز « فايتون » الى داخل العربة ، وأمسك بالأعنة ، بينما راح «أبوللو» يزوده بنصائحه قائلا : « قد العربة فى وسط السماء ، لأن الطريق الأوسط هو آمن الطرق ٠ ولا تسر ببطء زائد ، حتى لا تشتعل قمم الجبال التى تمر فوقها ٠ وكذلك لا تسر على ارتفاع شاهق ، والا ضللت الطريق وسط النجوم ٠ ولا تستخدم السوط ، لأن الجياد تحتاج الى كبح الزمام أكثر من الحث ٠٠ فحتى يدى القوية لا تستطيع أن تتحكم فى تلك الأعنة جيدا ! ٠٠ لكم أخشى يا بنى أن لا تتمكن من السيطرة على هذه الجياد الجامحة ٠٠ فانزل بربك الآن ، ودعنى آخذ مكانك ٠٠ ففى الوقت متسع لتغيير رأيك ! »

ولكن الصبى المتغطرس لم يعر تحذير أبيه التفاتا ، وهز الأعنة فى صبر نافد ، فقفزت الجياد الى الأمام ٠ وفى لحظة واحدة ، كانت قد شقت طريقها عبر السماء

وتذكر « فايتون » فى بداية الرحلة نصائح أبيه ، فشد قبضته على الأعنة ، ونادى الجياد بأسمائها ٠ ولكن سرعان ما أحست الجياد الجامحة بأن اليد التى تمسك أعنتها ليست تلك اليد القوية التى اعتادت أن تمسكها ، فراحت تجذب الأعنة بقوة ، فلم يتمكن « فايتون » من كبح جماحها

وعدت الجياد المجنونة تعربد بين النجوم ، وتقفز تارة هنا وطورا هناك ٠ وأخذ الناس فى الأرض يحملقون الى السماء فى هلع ، وقد أزعجهم أن يروا الشمس تنحرف بعيدا عن مجراها الطبيعى !

« الجحيم » ٠٠ يقترب من الأرض !

◆ وحاول قائد العربة الصغير أن يسترد سيطرته على الجياد الثائرة ، الا انه

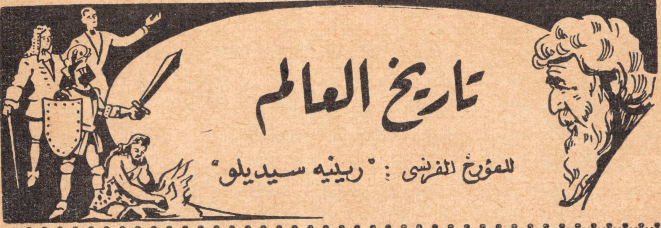
فشل ٠ بل لقد نسى أسماء الجياد لفرط الخوف والفزع اللذين استوليا عليه ، ومن ثم ترك الأعنة تسقط من يده ، وانهار على ركبتيه ليتشبث بالعربة التى أخذت تتأرجح من جانب الى آخر ، وقد تركت السماء ، وأخذت تتجه بسرعة جنونية صوب الأرض ٠ واذ لامست العربة قمم الجبال ، اشتعلت هذه واندلعت منها النيران ٠ وأدى اشتداد الحرارة الى جفاف الأنهار ٠ أما البحار فقد شحت مياهها الى درجة خطيرة ٠ وكذلك ذبلت أوراق الشجر وتساقطت ٠٠ واستبد الخوف والهلع بالناس ، فأخذوا يصرخون ويولولون !

واستمرت العربة تقترب من الأرض رويدا رويدا ٠٠ ولفحت الحرارة الشديدة الأرض المنزرعة ، فمات الزرع ، وتحولت الأرض الخصبة الى مساحات شاسعة من الصحارى ، ما تزال قائمة حتى يومنا هذا ٠ واحترقت جلود سكان افريقيا الوسطى ، لفرط الحرارة ، فأصبحوا سود اللون !

وسجد الناس المفزوعون ، وراحوا يصلون لجوبيتر - رب الأرباب - كى يهرع لانقاذهم ٠ واذ سمع جوبيتر دعاء الناس ، ورأى عربة الشمس تندفع نحو الارض ، أدرك انه وحده القادر على انقاذ العالم ! ٠٠ ومن ثم أمسك باحدى صواعقه ، وقذف بها ناحية العربة ، فأصابت الصاعقة « فايتون » فى كتفه ، وأسقطته على الأرض والنيران مشتعلة فيه ٠ وما لبثت الجياد أن هدأت ، وأوت الى حظيرتها فى السماء ٠ وفى ذلك اليوم ، حل الليل مبكرا ، اذ لم تشرق الشمس بعد الظهر !

وحزن « أبوللو » و « كلومينى » حزنا شديدا على مصير ابنهما الأحمق ٠ فلقد قضت عليه الصاعقة ، وأسقطته فى نهر (اريدانوس) ٠ وحدث أن ألقى صديق له يدعى « كوكنوس » نفسه فى مياه النهر ، وراح يسبح فيها باحثا عن « فايتون » ٠ ولما لم يعثر عليه تولاه يأس شديد ، حتى لقد ذبل وذوى من فرط حزنه ، وتحول الى بجعة ظلت تسبح سنين طويلة فى مياه النهر ، وهى تذرف الدمع على « فايتون » ، ذى الشعر الذهبى !

أمين سلامه



تاريخ حكام (روما) يلهم القصصيين !

◆ حدثنا المؤرخ الفرنسي « رينيه سيديللو » – فى كتابه الطريف الذى صاغ فيه « تاريخ العالم » فى قالب روائى ممتع – عن بداية مجد (روما) ، ونمو الاستعمار الرومانى ، وكيف تولى « قيصر » رئاسة الدولة فانفرد بأزمة الامور ، ورفع من قدر الشعب الذى كان الاشراف يستغلونه ويتحكمون فيه .. وكان من آثار تحمس الشعب لاصلاحات « قيصر » ان جعله « ديكتاتورا » .. ولكنه كان « ديكتاتورا » محبوبا من الدولة كلها ، فيما عدا طبقة الاشراف الناقمة ..

وفى الجزء الذى أقدمه لك اليوم ، يحدثنا «سيديللو» عن نهاية قيصر ، وعن الفترة التى جعلت تاريخ حكام (روما) منهلا لكتاب القصص والمسرحيات ..

ديكتاتور يعترف بفضل الشعب !

◆ واعترافا بفضل الشعب عليه ، عمد « قيصر » الى منح أفراده قطعا من الأرض ، وأنشأ مستعمرات للفقراء وللمتقاعدين من جنوده ، ووضع برنامجا حافلا بالمشروعات العامة لايجاد أعمال للمتعطلين ، ومنح المساعدات لأرباب العائلات الكبيرة ، وأتاح للاكفاء من العامة أرقى المناصب ، وقضى على الفساد المالى . ولكى ينقذ العمال من منافسة العبيد ، فرض على أصحاب المزارع الكبيرة أن يكون الثلث – على الأقل – ممن يعملون فى أراضيهم ، من الأحرار . كما أنه – رغبة فى حماية الزراعة الايطالية من المنافسة – حرم على اسبانيا وبلاد الغال زراعة الكروم والزيتون . وأعاد تنظيم توزيع الغلال ، وأصدر تشريعا ضد الترف ، وهبط بنفوذ مجلس الشيوخ ، فجعله مجرد مجلس استشارى ، وأدخل فيه دماء جديدة ، اذ عين فى عضويته من أبناء الريف وأبناء الأحرار . وهكذا كان نظام الحكم القيصرى : ديكتاتورية شعبية .. على أن « قيصر » –

فى الوقت ذاته - كان يعمل جاهدا للتوفيق بين الارستقراطية والشعب . ولم يتردد فى ان يخفض عدد الذين يعتمدون على اعانات مالية من الدولة . وبدأ - بوصفه قائدا للجيش ومسئولا عن القوانين ومالية الدولة - برنامجا بعيد المدى للاصلاح الحقيقى . وسعى الى ربط السنة بحركة الشمس ، فأصدر تقويما يعتبر السنة ٣٦٥ يوما ، مع وقوع سنة كبيسة - أى ٣٦٦ يوما - مرة فى كل أربع سنوات . وأصدر صحيفة هى فى الغالب أول صحيفة عرفت فى التاريخ ، وكان اسمها : « آكتا اوربيس »

ثلاثة وعشرون خنجرا .. باسم الحرية !

◆ وكان قيصر مظفرا ، أينما ذهب .. فى بريطانيا ، وفى مصر ، وفى آسيا ، وفى اسبانيا .. فأصبح سيدا مطلقا ، وتلقى آيات التبجيل والتمجيد، وأصبح اسمه - فى العصور التالية - رمزا للسلطان الذى لا منازع له .. « قيصر » ! .. فصار كل من يلى حكم الامبراطورية الرومانية يسمى قيصرا .. وظل هذا اللقب عنوانا للملوك فى المانيا وروسيا ، الى أن قامت الحرب العالمية الأولى ..

ولكن الشيوخ لم ينسوا ما فعله بهم ، فما لبثوا أن تآمروا عليه . وانضم اليهم من كانوا يفيدون من الفساد المالى ، والانتهازيون .. وباسم الحرية « المظلومة » ، صوبت اليه الخناجر فى سنة ٤٤ قبل الميلاد . وكان « بروتس » هو البطل الذى خلع اسمه على الجريمة صفة مشروعة ! .. ووقع « قيصر » فريسة ثلاثة وعشرين خنجرا .. ولكن نظام الديكتاتورية الشعبية لم يلبث أن بعث من جديد بعد ذلك بزمن ..

تداعى الجمهورية الرومانية

◆ على أن الجمهورية التى سعى اليها نبلاء روما ، وظلوا يحلمون بها ، لم تكن مجردة من الخير ، اذ أنها رفعت صرح عظمة (روما) . ولكنها فى خوفها من الملكية اندفعت الى الفوضى ، فاذا الحكم يبدو مظفرا ناجحا ، فى مظهره ، فى حين كان التداعى الخلقى والمعنوى يدب فى جوفه . ففقد العمال شغفهم بالعمل ، ولم تعد الطبقة الوسطى تحلم بغير المضاربات والمجازفات المؤدية الى الثراء .. وكان الفراغ والجدة يفسدان الطبقة العليا . والواقع ان (روما) استنامت ، وغرقت فى الديون ، وراحت تنحدر الى الخراب . واستنزفت موارد الدولة ، حتى بات من الضرورى فرض ضرائب على الدخل فى سنة ٤٢ قبل الميلاد . وفقد الرومانيون ايمانهم بعقائدهم الدينية ، ولم يعودوا يحفلون بآلهتهم ، بل أخذوا يتقبلون - فى تسامح - العقائد التى كانت تتسرب اليهم من البلاد الأخرى !

ويبدو ان اختلاط الدماء الأجنبية فى عروق الرومانيين - فى تلك الفترة -

أدى الى فتور روح الحـرب التى كانت تتأجج فى العنصر الرومانى ، اذ باتوا يؤثرون الترف والنعيم ، على الحياة الخشنة فى ميادين القتال . ولم تعد الخدمة العسكرية اجبارية ، الأمر الذى انحدر بالجيش الرومانى ، فلم يعد يتألف الا من جنود مرتزقة ، كانوا يدينون بالولاء لقادتهم ، لا للدولة ذاتها !

استيلاء «اوكتافيوس» على الحكم

◆ وهكذا لاح ان مصرع « قيصر » لم ينقذ (روما) ، بل ان نذر الحـرب الأهلية راحت تخيم عليها . فقد استأثر مجلس الشيوخ ـ أى النبلاء والاشراف ـ بالسلطة الكاملة ، فقام « انتونى » ـ أحد أعوان « قيصر » ـ وحفيد اخته « اوكتافيوس » يهددان هذه السلطة ، ويتنافسان فى الوقت ذاته ، حتى قدر للأخير أن يهزم أسطول الاول فى واقعة « اكتيوم » فى سنة ٣١ قبل الميلاد . وكانت (روما) قد سئمت صراع القوى المتضاربة والأحـزاب ، فانصاعت لأوكتافيوس ، ورضيت به سيدا وحاكما .. وهكذا ماتت الجمهورية !

وكان المنجمون قد تنبأوا لأوكتافيوس يوما بالسيادة على العالم ، فما لبث فى سنة ٢٧ قبل الميلاد ، أن أطلق على نفسه لقب « أوجسطس » .. أى العاهل الأعلى ، اذ جمع كل السلطان والنفوذ فى يديه ، وعرف باسم « أب الدولة » وراعيها !

وعمد « اوكتافيوس » الى ما فعله « قيصر » من قبله ، اذ أقام دعائم حكمه على الطبقات الدنيا من الشعب ، والدهماء ، وان حرص على أن لا يشركهم فى الحكم عن طريق الشورى . وتحبب الى الشعب بأن ألغى جميع الديون التى كانت للدولة على الأفراد ، وضاعف مرتبات حرسه وجنوده ، وأتاح للشعب أن يحظى بـ « الخبز والملاهى » ، وقد تمثلت هذه الملاهى فى انتشار ملاعب « السيرك » . وفرض الضرائب على رؤوس الأموال والتركات . على انه وضع تقسيما لطبقات المجتمع ، وأتاح الانتقال من طبقة الى أخرى ، فى الوقت الذى ألغى فيه رتب الاشراف ، وأسبغ حمايته على العبيد !

والى جانب ذلك ، عمد « اوكتافيوس » الى اعادة العبادات القديمة ، ورد الى « الآلهة » : « أبوللو » و « مارس » و « فينوس » اعتبارها الدينى ، ولم ير مانعا من أن يضيف اسمه الى قائمة الآلهة ! .. وبعد أن كانت (روما) مشيدة من الأحجار ، جعلها عاصمة تقوم فيها صروح من الرخام ، وتضم من السكان نصف مليون . وأخذ الشعراء يتغنون بمديح « أوجسطس » المقدس . وبدأ فجر العظمة يشرق على (روما)

المانيا .. الثائرة !

◆ ومع أن « أوكتافيوس » كانت تنقصه عبقرية « قيصر » العسكرية ، الا أنه بسط نفوذ (روما) ، وشهرة (المدينة الخالدة) ـ كما لقبت ـ الى أقطـار بعيدة . وأتم فتح اسبانيا ، وبسط سلطانه على كافة شبه جزيرة (ايبريا) ،

واستقبل الوفود من الهند ، وأرسل حملة الى شبه جزيرة العرب ٠ وكان يعيد تنظيم وتعمير الدول التى يفتحها ، فيشق فيها الطرق ، ويقيم الجسور والملاعب ٠ وعبرت حملاته نهرى (الدانوب) و (الراين) فى سنة ١٢ قبل الميلاد ، ولم تنقض خمس سنوات ، حتى ضم ألمانيا الى ملكه !

وفى ألمانيا بالذات ، انتكست سياسته ، وأصيبت بالصدمة التى قدر لها أن تكون من العوامل الحاسمة فى مصير الغرب ٠ فقد نجح الألمان فيما أخفق فيه سكان بلاد (الغال) ، اذ قاموا ثائرين على استعمار الرومان ، واستطاع زعيمهم (هيرمان) فى سـنة ٩ بعد الميلاد ، أن يبيد القوات الرومانيـة فى بلاده ٠ وتقلصت حدود الامبراطورية الى نهر (الراين) حيث بادر « أوجسطس » الى اقامة سلسلة من الحصون والاستحكامات

واذا كان « هيرمان » ـ أول بطل وطنى فى المانيا ـ قد حرر بلاده ، الا انه حرمها من الافادة من المدنية الرومانية ٠٠ (وهى حجة الاستعمار فى كل عصر وآن ٠٠ حتى منذ ألفى عام !!) ٠ اذ بينما اصطبغت بلاد (الغال) ـ فرنسا ـ وحوض (الراين) ، و (هلفسيا) ـ سويسرا ـ بالصبغة الرومانيـة ، بقيت ألمانيا فى بداوتها عدة قرون ٠ بل كانت من التأخر بحيث لم يكن أهلها يعرفون استخدام الحجارة فى البناء ٠ وبدلا من أن يغدو نهر (الراين) شريانا حافـلا بالحركة التجارية والمواصلات ، ظل راكدا !

« يتبع »



« نيل جوين » فاتنة المسرح الانجليزى فى القرن ١٧ ، وعشيقة الملك تشارلس الثانى ، كما رسمتها ريشة الفنان « ليلى » تلميذ « فان دايك »



« طفلة نائمة » للرسام ماتيو ماريس (١٨٣٩ - ١٩١٧)

مطبعة هنرى شندلر